تاريخ مصر الإسلامية

من الفتح العربى حتى الفتح الفاطمى

دكتـــور
محمد أحمد إبراهيم
مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الآداب ـ جامعة بنى سويف

إشراف ومراجعة
أ. د. عبادة عبد الرحمن كحيلة
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الرسول الأمين محمد ابن عبد الله إمام الهدى وخاتم الأنبياء والمرسلين . وبعد .

هذه محاولة متواضعة فى الكتابة لتاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح العربى الإسلامى حتى الفتح الفاطمى ، وهى بلا شك محاولة شاقة ومرهقة نظراً لطول الفترة الزمنية أولاً ، وتشعب الموضوعات والأحداث التى شغلتها هذه الفترة ثانياً ، فضلاً عن الجهود السابقة لأساتذتنا الأجلاء من المؤرخين الذين قاموا بالكتابة فى هذا المجال ، والذين على نهجهم نحاول أن نسير ونقتدى .

وقد حاولنا أن نختزل بعض الموضوعات أو أن نشير إليها سريعًا ، حتى لا نرهق القارئ بالكثير من التفاصيل ، التى لا يستوعبها مثل هذا الكتاب ، لذلك فقد ركزنا على استعراض الجانب السياسى لتاريخ مصر خلال هذه الحقبة ، على أمل أن نستكمل بقية الجوانب الاقتصادية والحضارية والفنية فى دراسة أخرى فى القريب العاجل .

يتناول هذا الكتاب فى الفصل الأول أحوال مصر قبل الفتح العربى الإسلامى فى العهدين الرومانى والبيزنطى ، خاصة فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، أما الفصل الثانى فيتناول الفتح العربى لمصر ومراحله حتى فتح الإسكندرية الأول والثانى .

أما الفصل الثالث فقد خصصناه للحديث عن مصر عصر الولاة ، فتحدثنا عن ولاة مصر فى عصر الراشدين خاصة عمرو بن العاص ، وعبد الله ابن سعد بن أبى السرح، وأهم أعمالهم، ونظراً لطول عهد الأمويين والعباسيين ، فقد خصصنا الفصل الرابع له حتى ولاية أحمد بن طولون .

أما الفصل الخامس فقد حرصنا فيه على استعراض التكوين

الاجتماعى والثقافى لمصر فى عصر الولاة ، مع التركيز على انتشار الإسلام واللغة العربية .

وفى الفصل السادس تحدثنا عن الدولة الطولونية منذ ولاية أحمد بن طولون وحتى استقلاله بمصر ، ثم تتبعنا حكام الطولونيين : خمارويه ، وأبو العساكر جيش ، وأبو موسى هارون ، وشيبان بن أحمد ، كذلك استعرضنا أسباب وعوامل سقوط الدولة الطولونية ، ثم عودة مصر لتبعية الخلافة العباسية مرة أخرى .

أما الفصل السابع فقد خصصناه للدولة الإخشيدية وحكامها منذ محمد ابن طغج الإخشيد ، وأنوجور ، وعلى بن محمد ، وكافور الإخشيدى، وأحمد بن على الإخشيد ، ثم تطرقنا لأسباب سقوط الدولة الإخشيدية ، وفى النهاية حاولنا أن نستعرض أهم منشآت وعمائر الإخشيديين .

أما الفصل الثامن والأخير فقد خصصناه للحديث عن الفتح الفاطمى لمصر ، مستعرضين أولاً الدعوة الإسماعيلية وتطورها ثم قيام الخلافة الفاطمية فى المغرب ، ثم حملات الفاطميين لفتح مصر حتى دخول جوهر الصقلى عام٣٥٨هـ .

وأخيراً حاولنا أن نزود الكتاب ببعض الملاحق والخرائط والصور الموضحة لموضوعات الكتاب ، راجين من المولى عز وجل أن ينال هذا الجهد المتواضع رضا القارئ الكريم .

وفى النهاية لا يسعنى إلا أن أتقدم بوافر الشكر وجزيل العرفان لأستاذى الفاضل أ. د. **عبادة كحيلة (أبو أدهم)** لتفضله بالإشراف والمراجعة لهذا العمل ، فجزاه الله عنى كل خير .

د/ محمد أحمد إبراهيم

الهرم فى ٢٢ من صفر ١٤٢٨هـ / مارس ٢٠٠٧م

الفصل الأول
أحوال مصر قبل الفتح العربى الإسلامى



الفصل الأول

أحوال مصر قبل الفتح العربى الإسلامى

لا شك أن البداية الموضوعية والمنطقية للحديث عن الفتح العربى الإسلامى لمصر ، ينبغى أن يسبقها الحديث عن أحوال مصر قبل هذا الفتح، إذ إن أحوال مصر قبل الفتح ـ لا شك ـ كانت ممهدة له ، بل لا نبالغ عندما نقول إنها حملت عوامل نجاح الفتح الإسلامى ، الذى يعد حدثاً قومياً فى تاريخ مصر السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى .

الحياة السياسية :

كانت مصر قبل الفتح العربى الإسلامى ولاية من ولايات الإمبراطورية الرومانية ، بعد أن ورث الرومان حكم البطالمة فى مصر ، عقب الهزيمة التى حلت بقوات كل من أنطونيوس وكليوباترا فى موقعة أكتيوم البحرية (Actium) عام ٣١ ق.م . فقد استطاع القائد الرومانى أوكتاڤيانوس (Octavianus) دخول الإسكندرية وحصار قصر الملكة كليوباترا ، التى فضلت الانتحار فى الشهر الثامن من عام ٣٠ ق.م ، على أن تساق أسيرة فى موكب أكتاڤيانوس بروما ، وبموت كليوباترا ينتهى الحكم البطلمى لمصر لتقع مصر تحت السيادة الرومانية[1].

وقد بدأ أكتاڤيانوس بإقامة حكومة قوية فى مصر ، وضع على رأسها

---

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، دار الجيل ١٩٩٦ ، جـ١ ، ص١٩١ .

حاكم رومانى من طبقة الفرسان ليكون نائبًا عنه فى الحكم ، يعاونه جهاز من كبار الموظفين يقيمون فى الإسكندرية عاصمة البلاد ، كما ترك فى مصر جيشا قوامه اثنان وعشرون ألف جندى ، ويتكون من ثلاث فرق رومانية (Legiones) ، فرقة منها تعسكر فى نيقوبوليس شرق الإسكندرية ، والثانية فى حصن بابليون على الضفة الشرقية للنيل ، والثالثة فى طيبة (الأقصر) العاصمة الدينية ، وإلى جانب هذه الفرق الثلاث ، وضع عدة ألوية من الفرسان المساعدة الملحقة بهذه الفرق (Auxilia) لتتعاقب على حراسة الأماكن الحيوية فى البلاد .

وفى عام ٢٧ ق. م حمل أكتافيانوس اسمًا جديداً وهو أغسطس (Augustus) بمعنى المبجل ، منحه السناتو (Senatus) أى مجلس الشيوخ إياه تكريمًا لفتحه مصر ، بل زيادة فى هذا التكريم أطلق هذا اللقب على الشهر السادس (الثامن فيما بعد) الذى فتحت فيه مصر ، فأصبح يعرف باسمه شهر أغسطس ، كذلك احتفظ أغسطس بلقب إمبراطور (القائد الأعلى للجيوش) والذى التصق بلقبه وتحول إلى مصطلح سياسى جديد ، وبذلك أصبح أغسطس أول سلسلة أباطرة الرومان .

حكم الإمبراطور أغسطس واحداً وأربعين سنة ، أحدث خلالها عدة تغييرات جذرية فى جهاز الحكم وفى تركيبة المجتمع الرومانى وفى نظام مصر الإدارى والمالى ، ولعبت مصر دوراً حيويًا فى التنظيم الجديد للإمبراطورية وهو إمداد مدينة روما بثلث ما تحتاجه سنوياً من القمح طعاماً لشعبها ، وبسبب حرص أغسطس على ألا يعطى أية فرصة للعناصر المناهضة لحكمه من بقايا الجمهوريين ، وذوى النفوذ والطموحين من اتخاذ مصر قاعدة للمعارضة كما فعل كل من بومبيوس ومارك أنطونيوس ،

اختار الوالى على مصر من طبقة الفرسان وليس من طبقة السناتو[1]، وقد كان محرمًا عليه التمتع بسلطة الإمبريوم (Imperium) وهى السلطة المؤهلة للحكم وقيادة الجيوش ، وجعله يحمل لقبًا متواضعًا وهو « نقيب الإسكندرية ومصر »[2]، وبهذا التحديد الدقيق لشخص الوالى ولمكانته كان يحق للإمبراطور عزله فى أى وقت وتعيين حاكم غيره ، أو إلقاء القبض عليه ومحاكمته .

وخوفاً على مصر وتقديراً لمكانتها أصدر أغسطس قراراً أسماه « سر الإمبراطورية » (Arcana imperii) وهو اصطلاح قانونى يعفيه من أعطاء أى تفسير لما يفعله باعتباره مسألة أمنية عليا ، ويتمثل هذا القرار فى تحريم دخول مصر على أفراد الأسرة الإمبراطورية ورجال طبقة السناتو والمشاهير من رجال طبقة الفرسان ، ومن الشخصيات العامة دون الحصول على إذن مسبق من الإمبراطور شخصياً [3] .

وكان يساعد القائم بالأعمال فى مصر أو (الوالى) ثلاثة من كبار الموظفين الذين ينتمون أيضًا إلى طبقة الفرسان ويقيمون أيضًا فى الإسكندرية وهم : مدير ديوان القضاء ، ومدير ديوان المالية ، ومدير إدارة المحاسبات الطارئة والأوقاف[4] .

ولقد رفض أغسطس طلب أهالى الإسكندرية بإعادة مجلس الشورى

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى ، دار الثقافة العربية ، ٢٠٠٤ ، ص١٠ .

(٢) هـ. آيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . ص٩٥ .

(٣) اهـ. آيدرس بل : لمرجع نفسه ، ص٩٤ .

(٤) هـ. آيدرس بل : المرجع نفسه ، ص٩٧ .

الخاص بمدينتهم لمعرفته بأنه مركز الكبرياء الوطنى ومنبع الثورة[1] .

أما عن التقسيم الإدارى لمصر فقد أبقى أغسطس على التقسيم القديم الذى عرف عند البطالمة ؛ أى إن مصر ظلت مقسمة إلى ثلاثين إقليمًا يحكم كل منها استراتيجوس (Strategos) بمعنى مدير الإقليم ، نزعت منه السلطة العسكرية ليتحول إلى مجرد موظف تنفيذى مدنى ، وأصبحت السلطة العسكرية فى أيدى الرومان وحدهم[2] .

كانت أحوال مصر تحت الحكم الرومانى بوجه عام غير مرضية ، فالبلاد تحكم بواسطة حكومة مركزية أجنبية قوية ، تساندها قوات عسكرية كبيرة لحفظ الأمن وقمع الثورات ، ونظام إدارى بيروقراطى معقد ، ومجتمع هرمى التكوين ينقسم إلى طبقات ممتازة وطبقات عامة ، تحكمه فوارق كبيرة فى المعاملة بين من يحملون حق المواطنة الرومانية والمتأغرقين من سكان المدن ، وبين جمهرة الأهالى المصريين من سكان الريف .

لقد كان تاريخ مصر تحت الحكم الرومانى قصة من قصص الاستبداد السياسى التى عاشت فيه البلاد ، فقد أرسى أغسطس قواعد وقوانين صارمة حكمت بمقتضاها مصر ، وصار خلفاؤه من بعده على نهجها حتى جاء الإمبراطور دقلديانوس (Diocletianus) وألغاها .

ولمدة تزيد عن ثلاثة قرون ونصف ، حكم الرومان مصر قبل أن تنقسم إمبراطوريتهم إلى قسمين : قسم غربى عاصمته روما ، وقسم شرقى عاصمته القسطنطينية ، وقد ظلت مصر تابعة للإمبراطورية الرومانية

(١) هـ. آيدروس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص٩٩ .
(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى ، ص١١ .

الشرقية ، التى استمرت فى الصمود دون الإمبراطورية الغربية التى سقطت عام ٤٧٦م ، وهذه الإمبراطورية الشرقية عرفت عند العرب باسم دولة الروم وأطلق عليها الأوربيون الغربيون اسم الدولة البيزنطية لعدم اعترافهم بأنها رومانية، حتى أتم العرب فتحها عام ٦٤٢م .

على أن أوضاع مصر بعد انقسام الامبراطورية وتبعيتها للدولة البيزنطية (٢٨٤ ـ ٦٤٠م) لم تختلف كثيراً عما كانت عليه فى العهد الرومانى (٣١ ق. م ـ ٢٨٤م) فقد ظل الشعب المصرى محروماً من الاشتراك فى حكم بلاده فى ظل وجود أباطرة بيزنطيين أشداء منذ دقلديانوس وحتى هرقل ، كما اعتبرت الدولة البيزنطية مصر مجرد مخزن للغلال يزود العاصمة القسطنطينية بالقمح ، ولم تكن الاصلاحات التى أُدخلت فى نظم الحكم والإدارة منذ عهد الإمبراطور (دقلديانوس) سوى مجرد تنظيم لاستغلال البلاد بصورة أفضل ، حتى يعم النفع والخير على الدولة البيزنطية لا أهل مصر نفسها[١].

الحياة الاقتصادية :

كان المجال الاقتصادى هو أول مظهر تجلت فيه سوء أحوال مصر قبل الفتح الإسلامى ؛ إذ اعتبرت الدولة البيزنطية ـ كما كانت عليه الحال أيام الإمبراطورية الرومانية ـ مصر مجرد مخزن للغلال ، وأن المصريين مصدر لجباية الضرائب[٢]، وقد تعرضت البلاد لاستنزاف خيراتها بصورة لم يسبق لها مثيل على عهد الدولة البيزنطية ، حتى صارت الضرائب

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١ ـ ٢ .

(٢) إبراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٥ ـ ٦ .

مصدر شكوى الفلاحين فى القرى المصرية ، وكذلك التجار وأهل الحرف فى المدن والذين كان يطلق عليهم اسم (Diugop be) ومعناها الملزمون بتأدية بعض التكاليف والإلتزامات[1]. وتشير كثير من البرديات إلى ما تعرض له دافعو الضرائب من ظلم وجور جباة الضرائب ؛ فقد كانت سلطة الدولة وأساليب موظفيها كفيلة بأن تجعل الفلاح أو المزارع ، يجتهد فى أن يبدأ بدفع ما كانت تفرضه عليه الدولة من ضرائب ، فإذا كان مستأجراً من أرض الدولة فكان يدفع الإيجار بغض النظر عن قلة المحصول أو هلاكه بسبب انخفاض فيضان النيل ، فقد كانت الزراعة مرتبطة أشد الارتباط بمقدار فيضان النيل ومقدار ما يغطى الأرض أثناء الفيضان ، ولذلك تختلف القدرة الإنتاجية للأرض حسب اختلاف منسوب الفيضان بين عام وآخر ، فإذا حدث وقل المحصول لسبب أو لآخر ، لم تكن الدولة تخفض قيمة الإيجار أو الضريبة المستحقة على الأرض ، لأن ضرائب الأرض لم تكن عادة نسبة مئوية من المحصول ، وإنما كانت تُقَدَّر على الأرض ذاتها ، ولعدم توافر المرونة اللازمة فى الجهاز الإدارى ولانعدام الثقة بين الإدارة والفلاحين ، كان جامع الضرائب يتمسك بتحصيل مقدار الضريبة حسب ما جَمَع فى العام السابق ؛ لأن تقدير متوسط ضرائب كل نوع من الأرض حسب خصبها كان يتم على مراحل متفاوتة بين خمس أو عشر سنوات أو أقل أو أكثر[2].

ونظراً لأن مسئولية دفع الضرائب فى ذلك الوقت أصبحت مسئولية

---

(١) محمود عرفة محمود : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص٥ .

(٢) مصطفى العبادى : الأرض والفلاح فى مصر الرومانية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص١٣٠ ـ ١٣١ .

جماعة ؛ أى أن جميع سكان القرية أو المنطقة تحملوا أى عجز فى مقدار الضريبة المقررة ، فقد كان من الممكن إرهاب أو تعذيب صغار الملاك حتى يدفعوا العجز المطلوب ؛ لذلك وجد صغار الملاك أن لا فائدة ترجى من امتلاك أراضيهم ، فلجأوا إلى حيلة غريبة تنجيهم من مواجهة مسئولية دفع الضرائب أو التعرض لقسوة الباجرك (الموظف الملتزم بجباية الضرائب) ؛ وهى أنهم طلبوا حماية أحد كبار الملاك من أصحاب النفوذ والسلطة فى المنطقة ، على أساس أن يتنازل له المالك الصغير عن أرضه ويتولى السيد الكبير عنه أمر دفع الضرائب للدولة ، وهكذا تحول المالك الصغير من مالك حر إلى تابع (Colonus) أولاً ، ثم إلى رقيق قن للإرض يستأجر من سيده الأرض التى كان يمتلكها[1] ، كذلك لجأ البعض إلى هجرة أرضه والتماس حماية الكنيسة ؛ ذلك لأن الكنائس كانت قد أصبحت لها ممتلكات شاسعة بفضل ما تحصل عليه من هبات دينية متمثلة فى الأراضى التى تحيط بالأديرة والكنائس ، كما أن عدداً كبيراً منها استطاع أن يحصل على امتيازات تعفيها من جانب كبير من الضريبة[2] .

وقد ترتب على كل ذلك تناقص كبير فى الملكيات الصغيرة وظهور الملكيات الكبيرة التى اقتربت كثيراً من الإقطاعات الكبرى التى عرفت بها أوربا فى العصور الوسطى ، والتى تركزت فى أيدى أسر بعينها ، اشتهر منها فى تلك الفترة أسرة أبيون (Apion) فقد نشأت هذه الأسرة فى مصر الوسطى وتوارث أبناؤها ـ جيلاً بعد جيل ـ شرف

---

(١) هـ. آيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص١٧٩ ؛ مصطفى العبادى : الأرض والفلاح فى مصر الرومانية ، ص١٤٢ .

(٢) محمود عرفة محمود : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص٨ .

القنصليــة (Consularis) والانتماء إلى طبقة (الأشراف) ، والواقع أن هذه الأسرة تمتعت فى مصر بنفوذ واسع وثروة طائلة ؛؛ إذ كانت تمتلك ضياعاً لا فى إقليم اكسورونخوس (cynopolites) (البهنسا) فحسب ، بل فى اقليمين آخرين على الأقل وهما : كينوبوليتيس (Cunapalites) (القيس) وأرسينويتيس (Arsinoites) (الفيوم) ، ففى الإقليم الأول كانت فى حوزتها قرى كثيرة برمتها ، وكغيرها من الأسر الكبيرة كانت لها جيش خاص وسجون ونظام للبريد ومحطات للخيل اللازمة له ، وإصطبلات لجياد السباق ومصارف ومكاتب لمراجعة الحسابات وأسطول من المراكب النيلية ، وكانت هذه الأسرة لا تدفع ضرائبها لخزانة الولاية مباشرة ، بل فى الإسكندرية وليس عن طريق الموظفين جامعى الضرائب[1] .

من ناحية أخرى عانى المصريون من ضريبة الرأس (Capitatio) مما اضطر الكثيرين إلى الفرار هرباً من دفعها ، فأصدرت الدولة القوانين التى تمنع انتقال الفلاح من قريته وربطه بالأرض ، ففقد الفلاح ـ أيضاً ـ الحرية فى الحركة والانتقال ، ووصل الأمر بالإدارة البيزنطية ، وموظفى جمع الضرائب إلى استخدام أقصى درجات القسوة والعنف فى تحصيل الضرائب إلى حد أنهم كانوا ينبشون قبر الفلاح الذى مات دون أن يدفع ضرائبه ، ويأخذون جثته من أجل أرغام أهله على دفع ما لم يدفع من الضرائب ، أو يلقون فى الحبس الزوجة والأطفال وغيرهم من الأقارب ، أو يعذبونهم لكى يعرفوا منهم مكان اختفاء من هرب من دفع الضرائب[2] .

---

(١) هـ . آيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص١٨٣ ؛ ومصطفى العبادى : الأرض والفلاح فى مصر الرومانية ، ص١٤٥ ؛ وإبراهيم أحمد العدوى : مصر والشرق العربى درع الإسلام ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ، ص٨ .

(٢) مصطفى العبادى : الأرض والفلاح فى مصر الرومانية ، ص١١٥ ، ١٤٣ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩١ .

وخلاصة القول أن ثروات مصر وخيراتها تعرضت للنهب والاستغلال وتدهورت الأحوال الاقتصادية بها فى ظل نظام ظالم جعل من أرضها وشعبها غنيمة لبلاده ، ومصدراً للحصول على الأموال بسبل شتى ، حتى اضطر عدد كبير من الفلاحين إلى ترك أراضيهم إما بالهروب أو الهجرة أو التنازل عنها للملاك الكبار ، بل أن بعض الوثائق أشارت إلى أن سدس أراضى الفيوم تحولت إلى أراضى بور غير مؤهولة[1]، لذلك كانت السياسة الاقتصادية التى انتهجها البيزنطيون من العوامل القوية التى دفعت المصريين إلى اعتناق الإسلام والترحيب بحكم العرب ، خاصة بعد ما سمع المصريون عن سماحة الإسلام وعدله .

الحياة الاجتماعية :

كان سكان مصر ينقسمون إلى ثلاث مجموعات أو فئات هى :

١ ـ الرومان وهم الطبقة الحاكمة صاحبة السيادة .

٢ ـ الإسكندريين .

٣ ـ المصريين .

وكانت كل فئة من هذه الفئات متميزة عن الأخرى من ناحية وضعها القانونى ومنزلتها الاجتماعية أشد التميز ، فالرومان كان أرقاها لتمتعه بالمواطنة الرومانية (Civis) وما تشتمل عليه من إمتيازات ، ويليه المواطن الإسكندرى الذى تمتع بمواطنة الإسكندرية ، وما اشتملت عليه ـ أيضاً ـ من إمتيازات مثل الإعفاء من ضريبة الرأس (Capitatio) وحق

---

(١) عبادة كحيلة : العقد الثمين فى تاريخ المسلمين ، دار الكتاب الحديث ، الكويت ١٩٩٦ ، ص١٢٠ .

الحصول على المواطنة الرومانية مباشرة مما قربه من منزلة الرومان ، أما المصرى فكان أقل الثلاثة منزلة رغم كثرته العددية الساحقة ؛ إذ اعتبر الرومان المصريين بمثابة (مستسلمين) (Dediticii) أى أدنى مرتبة من غيرهم[1]، فلا حقوق سياسية محددة لهم ، فهم ملزمون بدفع ضريبة الرأس كاملة ، وغير مسموح لهم بالزواج من طبقة الإسكندريين ، كما لا يجوز لهم الحصول على المواطنة الرومانية مباشرة ، إلا بعد الحصول أولاً على مواطنة الإسكندرية .

ولكن طبقة المصريين لم تكن تمثل فئة واحدة من السكان ، بل انقسمت بدورها إلى فئتين : فئة أرقى وهم سكان عواصم المحافظات أو المديريات (Metropolites) وهم يمثلون خليطاً من المصريين وعناصر إغريقية استقر بعضها فى الريف ، وكانوا يدفعون ضريبة الرأس منخفضة عن غيرهم ، أما الفئة الثانية من المصريين فهم سكان القرى من فقراء الفلاحين ، الذين أُلزموا بدفع ضريبة الرأس كاملة (٤٠ دراخمة)[2].

ولا شك أن التفرقة التى تعمدتها الإدارة الرومانية قد استهدفت تأكيد تفوق الحضارة الهلينية ، والتمييز بين الصفوة المتأغرقة المقيمة فى الحواضر والعواصم وبين المصريين خاصة الفلاحين[3]، وهو أمر كثيراً ما ولَّد شعوراً بالغربة لدى المصريين فى وطنهم وأشعرهم بالدونية ، خاصة وأن هذا الوضع الاجتماعى كانت تترتب عليه واجبات وأعباء مادية أثقلت كاهل المصريين وعرضتهم للكثير من الأزمات الاقتصادية .

---

(١) هـ. آيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص٩٩ .

(٢) مصطفى العبادى : الأرض والفلاح فى مصر الرومانية ، ص١٢٣ .

(٣) هـ. آيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ، ص١٠٠ .

الحيـــاة الدينيـــة :

على الرغم من انتشار المسيحية واعتبارها الدين الرسمى للإمبراطورية اعـتـبـاراً من القـرن الرابع الميـلادى منذ عـهـد الإمـبـراطور تيودوسيوس الكبير (Theodosius) (٣٧٨ ـ ٣٩٥م)[١]، فإن أباطرة القسطنطينية اختاروا ألاَّ يتركوا أقباط مصر يتمتعون بحرية العقيدة وحق التعبير عن رأيهم فى تفسير الآراء المتعلقة بالمسيحية ؛ ذلك أنه حدث حوالى منتصف القرن الخامس للميلاد أن اشتد الخلاف والجدل فى تفسير طبيعة السيد المسيح ؛ إذ اعتبر البعض بإن للمسيح طبيعة واحدة (إلهية) وهم أتباع المذهب المونوفيزتى ، فى حين قال فريق آخر بأن للمسيح طبيعتين إحداهما إلهية والأخرى بشرية وهم أتباع المذهب الملكانى (التابع للملك أو الإمبراطور)[٢].

وقد أجمع المصريون على اعتناق مذهب الطبيعة الواحدة ، فى الوقت الذى قرر مجمع خلقدونية عام ٤٥١م ، الذى عقد تحت إشراف السلطة الإمبراطورية الأخذ بمذهب الطبيعتين وفرضه بالقوة على الولايات التابعة للإمـبـراطورية ، وقـد اتخـذ تمسك المصـريين بالمذهب المونوفيـزتى أو اليعقوبى[٣]، طابعًا قوميًا الأمر الذى عرضهم لموجة اضطهاد عنيفة من جانب الأباطرة ، مما أدى إلى ازدياد الثورات من جراء قسوة الإضطهادات

---

(١) أ. دونالد نيكول : معجم التراجم البيزنطية ، ترجمة وتعليق حسن حبشى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٣ ، ص٩٧ ـ ٩٨ . فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠ ، جـ١ ، ص٣٣ .

(٢) محمود عرفة محمود : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص١٠ .

(٣) اليعقوبى : نسبة إلى يعقوبوس بارودايوس أو يعقوب البردعى ، أحد القسس المروجين لهذا المذهب . الفريد . ج . بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ص١٣٨ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٠ .

التى تعرض لها أقباط مصر أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع ، ففى عام ٥٣٧م عزم الإمبراطور جستنيان Justinianus (٥٢٧ــ ٥٦٥)[١] تحت تأثير المندوب البابوى بيلاجيوس على تحطيم المونوفيزتيين فى مصر؛ إذ كانت مصر تعتبر قلعتها المنيعة ، فأمر بعزل البطريرك (تيودوسيوس) وقرر استدعاءه إلى القسطنطينية حيث قام باعتقاله فى قلعة (ديركوس)[٢].

وفى هذا الوقت كان البطريرك الملكانى الخلقدونى الجديد وهو بولس ، قد قبض على زمام الأمور فى البلاد ، محاولاً فرض الملكانية البيزنطية فى الإسكندرية والأديرة كافة بالقوة ، إذ استخدم هذا البطريرك ضد أقباط مصر من وسائل الاضطهاد ما لم يستخدمه إلا الأباطرة والحكام ، فصار يلقى بالأقباط فى الحمامات ليكونوا وقوداً لتسخين مياهها ، فكان نتيجة لذلك فشله فى فرض العقيدة بعد أن ولد عند المصريين كراهية وعناداً أكثر من ذى قبل[٣].

وقـــد زاد الاضطهـاد الدينى وبلغ مـــداه فى عـــهـــد الإمـــبـــراطور هرقل Hercules (٦١٠ ــ ٦٤٠م)[٤] الذى اختار كيرس (Cyrus) أو المقوقس ليقوم بتحويل عقيدة المصريين من المونوفيزتية إلى الملكانية ، بعد أن أسند إليه الإمبراطور الرئاستين الدينية والسياسية ، فقد كان كيرس بطريركاً ووالياً معاً (٦٣١ ــ ٦٤١م)[٥].

---

(١) أ. دونالد نيكول : معجم التراجم البيزنطية ، ترجمة وتعليق حسن حبشى، ص١٠٤ .
(٢) محمود عرفة محمود : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص١٠ .
(٣) محمود عرفة محمود : المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٤) أ. دونالد نيكول : معجم التراجم البيزنطية ، ترجمة وتعليق حسن حبشى ، ص١٦٥ .
(٥) فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٤٣ .

وقد قام كيرس بالتنكيل برجال الكنيسة المصرية وكهنتها أشد التنكيل ، فيروى أن قسًا يُدعى يوسف أحضر أمام كيرس وجُلد جَلداً كثيراً ؛ لأنه شهد شهادة الحق ، رافضاً قرارات مجمع خلقدونية ، أما مينا أو ميناس أخو البطريرك بنيامين فقد عُذب ثم قتل غرقًا ، وذلك بأن أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسده فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه إلى الأرض ، ولكنه مع ذلك لم يتزعزع عن إيمانه وعقيدته ، فخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس مملوء بالرمل وحمل إلى البحر حتى صار قريبًا من الشاطئ ، فعرضت عليه الحياة إذا آمن بما أقره مجمع خلقدونية عام ٤٥١م فرفض ، فقذف به فى البحر فمات غرقاً[١] .

لقد استمرت صور التعذيب والتنكيل بأقباط مصر فى ظل سياسة كيرس (المقوقس) الذى يرى بتلر أن الإمبراطور هرقل أخفق فى اختياره للقيام بهذه المهمة[٢]، فقد أدت سياسة كيرس إلى هروب عدد كبير من المتمسكين بعقيدتهم إلى الصحراء وسكنى الجبال والمغارات ، حتى أن البطريرك بنيامين الذى انتخبه رجال الأكليروس المصرى سراً أسقفاً لهم ، كان دائم التنقل فى كهوف مصر الوسطى ، بعد أن استطاع تدبير أمور الكنيسة المصرية ، وألقى على أتباعه خطاباً يحضهم فيه على أن يَثْبتُوا على عقيدتهم حتى الموت ، كما كتب إلى أساقفته جميعًا يأمرهم ـ أيضاً ـ بالهجرة إلى الجبال والصحارى ، حتى يرفع الله عنهم هذه المحنة[٣] .

---

(١) هـ. آيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص١٩٤ ؛ محمود عرفة محمود : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص١٢ .
(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ص١٥٤ ـ ١٥٥ .
(٣) فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٤٣ .

هكذا دفـع سوء السياسة الدينية التى اتبعتها الدولة البيزنطية ضد أقباط مصر ، ومحاولة إجبارهم على اتباع مذهب الدولة أو حتى مبدأ التثليث (Monothelisme)[1]، أو التوفيق الذى اقترحه الإمبراطور هرقل ، إلى اشتعال موجة من الغضب المحتقن فى النفوس ، بل أصبح المصريون أكثر تطلعًا لقوة أخرى تخلصهم من هذه المحنة ، وترفع عنهم تلك المظالم السياسية والاقتصادية والدينية ، خاصة بعد أن بدا فى الأفق ظهور القوة الإسلامية وانتصاراتها ؛ فقد سرهم ما علموه من استيلاء العرب على الشام ، كما سرهم ما سمعوه عن حسن سيرتهم فى البلاد التى فتحوها ، وتمنوا أن يكون خلاصهم من ظلم الروم (البيزنطيين) على يد المسلمين[2] .

(١) الفريد . ج . بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ص١٥٨ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩١ .

الفصل الثانى
الفتـــح العربـــى لمصـــر
(٢٠هـ/ ٦٤١م)

الفصل الثانى

الفتح العربي لمصر (٢٠ هـ/ ٦٤١م)

العلاقات بين العرب ومصر :

لم يكن الفتح العربى لمصر هو بداية الاتصال بين العرب ومصر ، فقد قامت بين الطرفين علاقات قديمة ، فكانت هناك صلات بين مصر شمالها وجنوبها وبين الجزيرة العربية ، فلم تكن مصر غريبة عن عرب الحجاز أو عرب اليمن ولا بعيدة عنهم ، فمن الخداع أن نتوهم أن صحراء مصر الشرقية أو البحر الأحمر قد أحاطا مصر بعزله عن جيرانها ، فيظهر من أقوال المؤرخ اليونانى هيرودوت أن الأقسام الشرقية من مصر ولا سيما المتصلة بطور سيناء ، كانت مأهولة بقبائل عربية[1]، إذ كانت بعض الهجرات العربية التى تخرج من شبه الجزيرة العربية فى الجاهلية ، يفد بعض منها إلى مصر ، كذلك بعض الأعراب والتجار العرب يفدون إلى الصعيد بطريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية منذ أمد بعيد ، حتى أن المؤرخ والجغرافى الرحالة سترابون (strapo) ذكر عن مدينة قفط (Koptos) بالصعيد أنها مدينة نصف عربية[2].

كذلك امتدت علاقة العرب بمصر عن طريق المصاهرة ، فأم العرب السيدة هاجر زوج سيدنا إبراهيم الخليل وأم إسماعيل عليه السلام ، أميرة مصرية كان قد أهداها ملك العماليق لسيدنا إبراهيم فتزوجها وأنجب منها

---

(١) هيرودوت : هيرودوت فى مصر ، ترجمة وهيب كامل ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص١٢٩ .

(٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص١٠ ؛ شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، بيروت ١٩٨٢ ، ص١١٣ .

إسماعيل أبا العرب المستعرية ، كما تزوج رسولنا الكريم محمد بن عبد الله ﷺ من مارية القبطية ، التى كان قد أهداها له المقوقس هى وأختها سيرين، وقد أنجبت مارية للرسول ﷺ ولده الوحيد إبراهيم[1]، وبزواج سيدنا إبراهيم من السيدة هاجر وزواج الرسول ﷺ من مارية القبطية توثقت الصلات الدموية والقرابة الجنسية بين العرب والمصريين ، وبراً بهذه الصلات كان الرسول ﷺ كثيراً ما يوصى بأهل مصر خيراً ، « إذ قال : إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما)[2]، كما ذكر عن عبد الملك بن مسلمة ، عن الليث وابن لهيعة قال عبد الملك ، أخبرنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث ، عن يزيد بن أبى حبيب أن أبا سلمة بن عبد الرحمن حدثه : « أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته أن تخرج اليهود من جزيرة العرب وقال : الله الله فى قبط مصر ، فأنكم ستظهرون عليهم ، ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله »[3].

ويحدثنا الكثير من المؤرخين عن طائفة من رجالات العرب ، ارتبطت مع مصر بعلاقات تجارية فى العصر الجاهلى وعصر الإسلام ، كالمغيرة بن شعبة ، وعثمان بن عفان ، وعمرو بن العاص الذى زار مصر مرتين فى الجاهلية[4]، وأدرك أهميتها وما تتمتع به من ثروات ، لذلك اعتزم عمرو بن العاص ، أن يكون هو صاحب السبق فى عرض فتح مصر على الخليفة عمر بن الخطاب ، وأن يكون هو قائد هذا الفتح .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق محمد صبيح ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص١٥ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، بيروت ١٩٩١ ، ص٢٢٠ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص١٤ .

(٤) ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، تحقيق د. على محمد عمر ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ ، ص٢٤ .

مراحل الفتح العربى لمصر :

قبل الحديث عن مراحل الفتح ، ينبغى أن نوضح الأهمية التى كانت تمثلها مصر لفتوحات العرب ، فقد أوصى الرسول ﷺ قبل وفاته بفتح مصر ، فضلاً عن أن فتح مصر كان لازمًا لفتح بلاد الشام وبخاصة فلسطين ، فالوجود العربى هناك لم يكن ليتم تأمينه بدون مصر ، إذ إن بقاءها فى يد الروم يزعزع سيادة العرب فى بلاد الشام كلها براً وبحراً ، إذ كانت أساطيل الروم ما تزال تجوب البحر المتوسط حفاظًا على الولايات الخاضعة لهم ، إضافة لذلك كانت مصر ـ وما تزال ـ مفتاحًا لما وراءها من بلاد فى افريقيا الشمالية[١] .

بالطبع لم تكن كل هذه الحقائق غائبة عن قائد قدير داهية من دهاة العرب مثل عمرو بن العاص ، الذى عرف مصر وخبرها بعينى المحارب والتاجر معاً ، لذلك لا نعجب من مقولته الشهيرة للخليفة عمر بن الخطاب يحثه على التعجيل بفتح مصر : « إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهى أكثر الأرض أموالاً ، وأعجزها عن القتال والحرب »[٢] .

وتشير روايات فتح مصر إلى إلحاح عمرو بن العاص على الخليفة عمر بن الخطاب للتعجيل بهذا الفتح ، فلما فتح بيت المقدس وجاء عمر لتسلم مفاتيحها ، قيل إنه أسر إليه برغبته فى فتح مصر ، لكن عمر استمهله

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩١ ؛ شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، ص١١٥ ؛ عبادة كحيلة : العقد الثمين فى تاريخ المسلمين، ص١٢٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٤٧ .

وقتاً ليفكر فى الأمر قبل الإذن له ، فلما أتى عمر بعد ذلك إلى الجابية[1] عام ١٩هـ، خلا عمرو بالخليفة مرة أخرى وظل يسوق له الحجج القوية فى أهمية هذا الفتح ، حتى وافق عمر بن الخطاب بعد تردد[2] ويقال إنه قال لعمرو : «سر وأنا مستخير الله فى سيرك ، وسيأتيك كتابى سريعاً إن شاء الله ، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالإنصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره ، فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس»[3]، بعد أن عقد له الخليفة على أربعة آلاف رجل كلهم من عك، ويقال : « بل ثلاثة آلاف وخمسمائة »[4]، ويحلوا للبعض أن يشكك فى عمرو بن العاص ويصوره بصورة المخالف للخليفة بعد أن أرسل إليه بالعودة ، وذلك أن عمر بن الخطاب حين عاد إلى الحجاز وعرض على أهل الحل والعقد بها قراره بفتح مصر ، قال له عثمان بن عفان محذراً : « يا أمير المؤمنين إن عمراً لمجرأ وفيه إقدام وحب للإمارة ،

---

(١) الجابية : قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان ، وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع الذى خطب فيه عمر بن الخطاب خطبته المشهورة ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، بيروت ١٩٩٧ ، جـ٣ ، ٢١٢ .

(٢) كان تردد الخليفة فى أمر فتح مصر إشفاقًا على المسلمين أن يصبهم الإخفاق ، ولم يستطع أن يجمع لفتح هذه البلاد جيشاً كبيراً ، لتفرق جند المسلمين فى الشام والجزيرة وفارس ، أضف إلى ذلك ما كان يخشاه عمر من التوسع فى الفتح ، وخاصة وأن أقدم المسلمين لم تثبت بعد فى البلاد التى فتحوها ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٢ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٤٧ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٤٧ ؛ البلاذرى : فتوح البلدان ، ص٢١٥ .

فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة ، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا ، فندم عمر بن الخطاب على كتابه إلى عمرو ، فكتب إليه : إن أدركك كتابى هذا قبل أن تدخل مصر فأرجع إلى موضعك وإن كنت دخلت فامض لوجهك »[1]، وخرج رسول الخليفة يحمل الكتاب مسرعاً يريد اللحاق بجيش عمراً بن العاص ، فوصل إليه قبل دخوله حدود مصر وهو برفح ، ولكن عمرو بفراسة القائد المحنك أحس بالشك فى هذا الكتاب ، وتخوف إن أخذه وفتحه أن يجد فيه الإنصراف عن الفتح ، فتباطأ فى استلامه بحجة الوصول أولاً إلى مكان يستريح فيه من عناء السفر ، ولما وصل عمرو إلى الوادى الصغير بين رفح والعريش ، فض الكتاب وقرأه على الجند ثم سأل من حوله ـ وكان هو أعلمهم بحدود مصر وأرضها ـ قائلاً : أنحن بمصر أم الشام ؟ فقيل له : نحن فى مصر ، فقال : « فإن أمير المؤمنين عهد إلى وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وأمضوا على بركة الله »[2].

ويعلق إبراهيم أحمد العدوى على ذلك بقوله : « ولا شك أن هذه الروايات تتناقض مع ما اشتهر به قادة المسلمين وخليفتهم عُمر من حب للدقة وتمحيص للإمور ، إذ لا يعقل أن يكون الفتح الإسلامى لمصر عملاً عفوياً أو موضع تردد ، وأن تلك الروايات إن صحت فقد تكون من باب خديعة الروم ، وإخفاء الأهداف الحقيقية من مسير قوات ابن العاص نحو

(١) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص٤٨ .

(٢) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص٤٧ .

مصر ، إذ إن اختيار الخليفة لهذا القائد الخبير بدروب مصر وأحوالها إختيار يدل على أن خطة الفتح الإسلامى لمصر فى أيد أمينة ، وعلى دراية بالأهداف الحقيقية ، وهى حماية الدولة الإسلامية الفتية ، وأن اتساع رقعة دار الإسلام باتت ترتبط بفتح مصر »[1].

ونحن نضيف أنه حتى ولو كانت هذه الروايات صحيحة فما كان لعمرو أن يضيع هذه الفرصة من يده بسبب مخاوف الخليفة أو أهل المدينة ، لأن لديه فكره العسكرى الخاص الذى يعرف كيف يستعمله عند المواقف الصعبة ، فضلاً عن أن عمراً كان يعلم جيداً أن الخليفة سوف يمده بالمدد اللازم للنصر إذ اقتضت الضرورة[2]، وهو أمر كان شائعًا فى كل فتوحات المسلمين .

كان أول بلد استولى عليه عمرو بن العاص حين دخل حدود مصر هو العريش ، وقد فتحها بدون مقاومة ، لأن حصونها لم تكن من المتانة بحيث تقف فى وجه العرب زمناً طويلاً ، ثم لعدم وجود حامية رومانية بها[3]، بعد ذلك سار عمرو بجيشه مخترقًا الطريق القديم الذى كان يسلكه المهاجرون والفاتحون والتجار والحجاج منذ أقدم العصور ، وهو طريق إبراهيم عندما سار إلى بلاد العرب بإبنه إسماعيل ، وطريق يوسف عندما سار من الشام إلى مصر زمن الفراعنة ، وطريق قمبيز ملك الفرس حين

---

(١) مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، ص١٧ .

(٢) محمد عبد الوهاب صقر : عمرو بن العاص ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧ ، ص٥٦ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٢ .

سار لغزو مصر ، والإسكندر المقدونى الذى مد فتوحه إلى الهند ، ولم يشتبك عمرو مع الروم فى قتال حتى وصل إلى مدينة الفرما الحصينة ، والتى يقال أنها كانت تعد مفتاح مصر ، وهى مدينة بيلوزيون Pelusium القديمة وكانت على ساحل البحر المتوسط شرقى بور سعيد الحالية[1]، اضطر المسلمون إلى حصار الفرما أو بيلوزيون أكثر من شهر ثبتوا فيه بقوة حتى تم لهم فتحها فى منتصف يناير عام ٦٤٠م الموافق أول المحرم عام ١٩هـ[2]، وقد أجمع المؤرخون على أن القبط كانوا أعوانا للعرب على حصار الفرما[3]، وهو ما يؤكد رغبة المصريين فى التخلص من حكم البيزنطيين .

بعد الفرما سار عمرو بن العاص مخترقاً وادى الطميلات حتى وصل إلى بلبيس ، وهناك التقى بالقائد البيزنطى الأرطبون Aretion الذى كان قد ترك فلسطين عندما اشتد الحصار على بيت المقدس عام ١٥هـ، فهزمه

---

(١) بيلوزيون : كانت تسمى بالقبطية برمون ، وكانت تبعد نحو ميل ونصف من البحر وكان لها مرفأ لعله كان متصلاً بالمدينة بخليج بحرى من البحر ، وكان فرع من النيل اسمه الفرع البلوزى ، يهوى إلى البحر بقربها ، وكانت مدينة قديمة قوية الحصون بها كثير من آثار المصريين القدماء ؛ بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ص١٨٦ ؛ شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، ص١١٩ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٢ ؛ شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، ص١١٩ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٤٩ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٧، جـ١ ، ص٤٦ .

عمرو واستولى على المدينة بعد شهر لم ينقطع فيه القتال[1]، ويقال أن ابنة المقوقس حاكم مصر كانت بها حين فتحها المسلمون ، فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة ، مما أكسب المسلمين محبة القبط ، فحسن رأيهم فيهم وفى حكمهم[2] .

وبعد بلبيس واصل عمرو تقدمه جنوباً حتى وصل إلى قرية «تندونياس» والتى أسماها العرب فيما بعد أم دنين [3]، ثم سميت بالمقس[4]، وهنا نشب القتال بين المسلمين والبيزنطيين ، ودام لعدة أسابيع إذ كانت هناك حامية بيزنطية قاتلت عمراً بشراسة ، حتى أبطأ الفتح على عمرو الذى سارع فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستمده ، فسارع الخليفة بإرسال أربعة آلاف مقاتل على رأسهم أربعة من مشاهير القواد ، وصف الواحد منهم بأنه يعادل ألف جندى[5]، وهم الزبير بن العام ، وعبادة بن الصامت ، والمقداد بن عمرو الأسود ، ومسلمة بن مخلد[6]، فبلغ تعداد جيش عمرو ثمانية آلاف بما كان معه من قبل ، على أن السيوطى ينقل عن القضاعى وكذلك البلاذرى أن المدد الذى أرسله الخليفة عمر كان اثنى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٤٩ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٣ ؛ مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، ص١٨ .

(٣) أم دنين : هى قرية كانت تقع عند بحيرة الأزبكية ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٢٠٢ .

(٤) المقس : كان فى القديم يقعد عندها العامل على المكس أى الجمرك الآن ، فقلب وسمى المقس وهو بين القاهرة والنيل ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٨ ، ص٣٠٢ .

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٣ .

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٥٦ .

عشر ألفا ، ليصل بذلك جيش عمرو إلى ستة عشر ألفا[1] ، ويوضح بتلر هذا الخلط فى الأعداد قائلاً : « كان الأمير على المدد الزبير بن العوام ابن عمة النبى وصاحبه وأحد رجال الشورى الستة ، وكان معه أربعة آلاف رجل ، ثم جاء فى عقبه كتيبتان كل منهما أربعة آلاف رجل ، فكان جميع من جاء من الإمداد اثنى عشر ألفاً »[2] ، وبفضل هذه القوات وهذا المدد انتصر المسلمون على الروم فى أم دنين وعين شمس (هليوبوليس بالقرب من المطرية) حيث تقدم تيودور قائد الروم فى عشرين ألفًا ، فوضع له عمرو كميناً فى الجبل الأحمر شرقى العباسية ، وآخر على النيل قريباً من أم دنين، ولاقاه ببقية الجيش ، ولما نشب القتال بين الفريقين خرج الكمين الذى كان فى الجبل الأحمر وانقض على الروم ، فاختل توازن الروم ونظامهم وعرجوا على أم دنين ، فقابلهم الكمين الذى كان بقرب أم دنين فأصبحوا بين جيوش العرب الثلاثة وحلت بهم الهزيمة ، ولم يبق منهم إلا أعداد قليلة ، سار بعضها فى النيل ، وفر البعض الآخر إلى حصن بابليون[3] .

معركة الفيوم :

ومما يدل على أن العرب كانوا ينفذون خطة موضوعة بإحكام ، أنهم قاموا بعد معركة أم دنين وعين شمس بحركة التفاف بارعة فعبروا النيل ،

---

(١) حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص٥٦ ، فتوح البلدان ، ص٢١٥ .

(٢) فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ص٢٠٢ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٣ ؛ جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، دار المعارف (د. ت) جـ١ ، ص١٩ ؛ مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، ص٢١ .

ومضوا فى زحفهم إلى بلاد الفيوم ، ومعركة فتح الفيوم (بيوم) أو (أرسنوى) لم يرد لها ذكر فى المرأجع العربية ، وإنما أشار إليها بتلر فى كتابه[١]، معقباً على ما صادفه عمرو وجيشه من مقاومة فى فتح حصن بابليون فيقول : « ولكن ذلك الخطر ــ أى المقاومة الشديدة للحصن ــ ما كان ليرد القائد العربى عن قصده ، فلم تكن من شيمته أن ييأس أو يفر ، فلما رأى أنه لن يستطيع فتح حصن بابليون بمن معه وهو ما كان يرمى إليه ، عزم على أن يسير إلى وجه آخر كان ما فيه من الجرأة.، ولم يكن ذلك سوى غزو الفيوم »[٢]، ثم يقول فى موضع آخر : « ولا شك أن العرب لم يستطيعوا فى هذه الحملة فتح مدينة الفيوم ، وأنهم عادوا أدراجهم إلى الشمال منحدرين مع النهر ... وكان أول مسير عمرو إلى الفيوم حوالى أول شهر مايو ، وقضى فى غزوته بضعة أسابيع أضاعها الروم ضياعًا ، بل خسروا خسارة كبرى ، وغنم العرب فيها غنما عظيماً »[٣].

ويبدو أن الخطة العربية كان هدفها الرئيسى تطويق بابليون من ناحية الغرب ، والزحف أيضًا على الفيوم للحصول على المؤن اللازمة لجنده منها ، ومفاجأة الروم داخل مصر العليا [٤].

كان على عمرو بعد هذه الموقعة أن يختار أحد أمرين : أن يذهب بجيشه فيتتبع فلول الجيش الرومانى الذى فر بعد المعركة إلى الشمال ويتم فى طريقه فتح الوجه البحرى ، أو أن يعود بقواته سريعاً جرياً على أسلوبه

---

(١) فتح العرب لمصر ، ص١٩٨ .

(٢) بتلر : المرجع نفسه ، ص١٩٣ .

(٣) بتلر : المرجع نفسه ، ص١٩٩ .

(٤) إبراهيم أحمد العدوى : مصر والشرق العربى درع الإسلام ، ص٢٣ .

فى سرعة الحركة ، ويقيم محاصراً لحصن بابليون حتى يتم فتحه ، وقد فضل عمرو الأمر الثانى ؛ وذلك لأن بلاد الوجه البحرى تفصل بينها فروع النيل وترعه ومجاريه المائية ، وكان الوقت وقت فيضان والمياه تملأ هذه المجارى ، ثم إنه لو اتجه هذا الاتجاه لكان لزامًا عليه أن يشطر جيشه شطرين ، شطر يبقى على حصار الحصن ، وشطر آخر يسير لفتح بلاد الوجه البحرى والأسكندرية ، وعمر يدرك أنه لا يستطيع أن يفتح الإسكندرية بنصف جنده ، لذلك فضل عمرو أن يعود ويرابط بجيشه كله حتى يستولى على الحصن[١]، خاصة بعد أن ارتفعت الحالة المعنوية لجنود المسلمين بعد سلسلة الانتصارات المتتالية التى حققوها والمغانم التى غنموها فى الفيوم .

معركة حصن بابليون :

كان الإمبراطور تراجان قد بنى ذلك الحصن مكان قلعة كان الفرس ، قد بنوها هناك عندما احتلوا مصر ، فى المكان الذى يعرف الآن بقصر الشمع عند مصر القديمة ، وقد قام الرومان بتقوية الحصن وزيادة تحصينه قبل الفتح العربى بقليل، وأحاطوه بخندق عريض عميق ملأوه بالماء حتى يعيق حركة أى مهاجم للحصن[٢]، وكان ذلك الحصن من طابقين : طابق فوق سطح الأرض ، وطابق فى جوف الأرض يتصل بنهر النيل عن طريق باب سرى يستطيع الجنود أن يخرجوا منه وأن يدخلوا عند اللزوم ، وفى مواجهة هذا الحصن كانت جزيرة الروضة بمثابة قاعدة عسكرية كبرى يرابط بها أسطول نهرى عظيم مهمته أن يتعاون مع قوات الحصن[٣].

---

(١) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٢٠ .

(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٩ .

(٣) صابر محمد دياب : تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، دار النهضة العربية ١٩٧٦ ، ص٢١ ـ ٢٢ .

وقد أدرك العرب أهمية هذا الحصن وأنه بوابة النصر الأخير على البيزنطيين ، لذلك بذلوا الكثير من الجهد فى محاولة حصاره وفتحه .

فيذكر ابن عبد الحكم : « كان مكثهم على باب القصر ـ الحصن ـ حتى فتحوه سبعة أشهر »(١)، فقد كانت خطة البيزنطيين تقضى بأن تخرج سرايا أو كتائب فدائية من الحصن ، فى أوقات لا يتوقع العرب فيها الهجوم، ثم تقوم بمهاجمة العرب وتفر إلى الحصن وتعتصم به ، وكان الغرض من هذه الهجمات المباغتة زعزعة ثقة العرب بأنفسهم ، وإطالة مدة الحصار إلى أطول مدى ممكن ، خاصة مع قلة معدات الحصار عند العرب(٢).

لم ييأس العرب وصبروا على الحصار وأدرك المقوقس الجد منهم وثباتهم وشجاعتهم ، فخرج هو ونفر من قومه ولحقوا بجزيرة الروضة ، وأرسل إلى عمرو يطلب منه الصلح قائلاً له فى كتاب أرسله إليه : « قد جئتم أرضنا وطال مقامكم فيها ، وأنتم عصبة يسيرة ، وأخشى أن تغشاكم الروم فتندموا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر بيننا على ما نحب وتحبون »(٣)، ولما أتت رسل المقوقس إلى عمرو ، أبقاهم عنده يومين حتى خاف عليهم المقوقس ، ثم قال لهم عمرو : ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث :

١ ـ إما دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا وعليكم ما علينا .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ، ص٥٢ .
(٢) صابر محمد دياب : تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، ص٢٢ .
(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٤ .

٢ ـ وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون .

٣ ـ وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين .

ولما عاد الرسل إلى المقوقس سألهم عن حال المسلمين فأجابوه : «رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليه من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون فى صلاتهم ، فقال عند ذلك المقوقس : والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم »[١] .

لقد أدرك المقوقس إستحالة صمود البيزنطيين أمام قوم كهؤلاء ، وأنه من الأجدى تجنب سفك الدماء بلا طائل ، فأشار على قومه بطلب الصلح وأرسل إلى المسلمين أن ابعثوا إلىّ رسلاً للمفاوضة فى الصلح ، فبعث عمرو ابن العاص عشرة رجال فيهم عبادة بن الصامت ، وأمره أن يكون هو المتكلم ودارت المحادثات بين الطرفين ، وسلك المقوقس طريق الإرهاب المصوغ فى قالب النصيحة ، وألح على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير هذه الثلاث ، فرفع عبادة يديه قائلاً : « لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شئ ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم »[٢] . فقال المقوقس لقومه : « أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٥٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص٥٤ .

من هذه الثلاث ، فوالله ما لكم بهم طاقة ، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين ، لنجيبنه إلى ما هو أعظم كارهين »[1]، ورجع المقوقس وأصحابه إلى حصن بابليون حيث أبلغ قادة الروم نتيجة مفاوضاته ، ولكنهم رفضوا المطالب التى قدمها وفد عمرو بن العاص ، وهو الأمر الذى أدى إلى استئناف القتال بين الفريقين[2]، وقد ازداد موقف الروم سوءاً بسبب انخفاض فيضان النيل وقلة المياه بالخندق المحيط بالحصن ، فعمد جند الروم إلى إلقاء حسك الحديد فى الخندق ، وكذلك أمام أبواب الحصن عوضًا عن المياه ، وإذا بحامية الحصن تأخذ العرب على غرة وتهاجم دون إنذار ، ولكن العرب لم تبغتهم هذه المفاجأة ، فسارعوا إلى أسلحتهم وإلى عدوهم فأشبعوه قتلاً حتى فر راجعًا إلى الحصن ، لم يجد المقوقس وأصحابه بدًا من التسليم بإحد شروط المسلمين ، وعلى ذلك فقد اتفق الطرفان على أن يدفع البيزنطيين الجزية مقابل الحماية والأمن على أنفسهم وأموالهم ، وإرجاء التنفيذ حتى يتم موافقة الإمبراطور هرقل – إمبراطور الدولة البيزنطية – على الإتفاق .

وأسرع المقوقس فغادر الحصن إلى الإسكندرية ، ومنها أرسل إلى الإمبراطور خطاباً استعرض فيه الموقف فى مصر وبرر فيه موقفه واضطراره إلى عقد الصلح ، مبينًا له أن العرب قوة لا يمكن أن تهزم ، وأنه رأى بتصرفه هذا أن يحقن الدماء ويحمى مصر من الخراب[3]، وطلب

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص٥٤ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٤ .

(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٢٢ .

(٣) جمال الدين الشيال : المرجع نفسه ، جـ١ ، ص٢٢ ؛ محمود عرفة محمود : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص١٧ .

منه التصديق على هذا الاتفاق . ويحلل بتلر فى كتابه شعور هرقل عندما وصلته هذه الرسالة تحليلاً منطقيًا فيقول : « وليس بعجيب أن يكون هرقل قد حار فى أمر تلك الكتب التى جاءته من المقوقس ، فإنها لا تبين إذا كان الصلح خاصًا بحصن بابليون أو إنه كان صلحًا على ترك بلاد مصر جميعها حتى الإسكندرية للعرب ، ولا تبين هل يبقى العرب فى البلاد بعد أخذ الجزية أو يرحلون عنها ، فهل كان معنى ذلك الصلح نزع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية ، لقد كان الإمبراطور منذ شهور يلوم قواده ولا سيما المقوقس خليفته على مصر لأنهم فرطوا فى الأمر حتى استطاعت فئة قليلة من العرب أن ترفع ألويتها فى مصر وتغلب جيوش الدولة وتتحداها ، فإذا به وقد بعث إليه بصلح ليس يدرى هل معناه رشوة العدو بمال يأخذه على أن يخرج عن تلك البلاد أم معناه إسلامها فيبقى ذلك العدو سيد الأرض يجبى له خراجها ويتنعم بقمحها وبخيراتها ، عجب الإمبراطور ولم يدر ما الذى أدى إلى ذلك الإذعان ، وعزم على أن يدعو (قيروس) المقوقس ليحاسبه على ما كان منه فى مصر »(١) .

وأرسل هرقل رسالة إلى المقوقس يستدعيه إليه فى القسطنطينية لشرح الموقف ، فما إن وصل المقوقس هناك حتى أساء هرقل استقباله ، واشتد فى توجيه اللوم إليه على اعتبار أنه فرط فى قمح مصر وذهبها ، ووصفه بالإجرام والخيانة والجبن ، ثم أمر بعزله ونفيه(٢) .

كان معنى هذا أن الإمبراطور رفض شروط الصلح الذى عقده المقوقس مع عمرو ، ووصلت أخبار هذا الرفض إلى مصر مع نهاية عام

---

(١) فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ص٢٢٩ .
(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ ، ص٢٣ .

٦٤٠م ، غير أن الموقف لم يكن فى صالح البيزنطيين ، فقد انتشرت الأوبئة والأمراض بين جند حامية الحصن بسبب طول مدة الحصار ، كما حملت إليهم الأنباء خبر وفاة الإمبراطور هرقل فى أوائل فبراير عام ٦٤١م، فضعفت الروح المعنوية لديهم مع إستمرار حصار العرب للحصن .

ويذكر ابن عبد الحكم : « فلما أبطأ الفتح على عمرو بن العاص قال الزبير : إنى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين ، فوضع سلمًا إلى جنب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ، معه السيف ، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفًا من أن يكسر ، فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر ، وكبر من معه ، وأجابهم المسلمون من الخارج ، لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً ، فهربوا فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه ، واقتحم المسلمون الحصن »(١).

سقط حصن بابليون فى أيدى العرب فى ٦ أبريل ٦٤١م، واضطر (چورچ) قائد الجند فى الحصن أن يسلم ويطلب الصلح من عمرو مقابل الأمان ، فأجابه عمرو وكتب عهد الصلح بين الفريقين ، وأهم شروطه :

١ ـ أن يخرج الجند من الحصن فى مدى ثلاثة أيام .

٢ ـ أن يرحلوا عن طريق النهر ويحملوا معهم من القوت ما يكفيهم لبضعة أيام .

٣ ـ أن يستولى العرب على الحصن وجميع ما فيه من ذخائر وآلات الحرب .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ، ص٥٢ .

كانت حملة العرب على الحصن يوم الجمعة الموافق السادس من إبريل عام ٦٤١م ، وبعد ثلاثة أيام أى يوم الاثنين الموافق لعيد الفصح من تلك السنة ، كان رحيل البيزنطيين عن الحصن وعن جزيرة الروضة متجهين شمالاً إلى العاصمة ـ الإسكندرية ـ آخر معقل لهم فى مصر(١) .

فتح الإسكندرية :

اتجهت قوات عمرو بن العاص بعد الإستيلاء على حصن بابليون إلى الشمال فى الطريق إلى الإسكندرية ، واستطاع عمرو أن يتغلب على المدن الحصينة التى قابلته وكان أهمها طَرنوط(٢)، ونَقيوس(٣)، وسُلطيس(٤)، وكريون وكانت آخر حصن فى الطريق إلى الإسكندرية ، فلما افتتحها العرب خلا لهم هذا الطريق وأشرفوا على المدينة الحصينة ، وحل موسم

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ص٢٣٨ ؛ جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية، جـ١ ، ص٢٤ .

(٢) طَرنوط : على الشاطئ الغربى لفرع رشيد ، وتسمى الآن الطرانة وتقع على مقربة من كفر داود على خط المناشى فى جهة الخطاطبة وكوم حمادة ، بمركز دمنهور بمديرية البحيرة ؛ محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤، جـ١ ، ص٣١١ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٥ .

(٣) نقيوس : على النيل إلى الشمال من طرنوط بجهة النخيلة مركز كوم حمادة ، مديرية البحيرة ؛ محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، جـ١ ، ص٤٦٤ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٥ .

(٤) سلطيس : على بعد ستة أميال جنوبى دمنهور فى منتصف المسافة بين كوم شريك والكريون ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٥ .

الفيضان من جديد ، وكان الأسطول البيزنطى يحمى المدينة ويزودها بالمؤن والسلاح[1] ، فرأى عمرو أنه من العبث أن يستطيع العرب التغلب على حصونها وأسوارها المنيعة ، فترك قوة مسلحة ترابط جنوب المدينة[2] ، وخرج بفرق من جيشه لإخضاع بعض مدن مصر السفلى ، ثم عاد إلى بابليون وخرج منها إلى الصعيد ، حيث تم له إخضاع مدينة أنتينوس (عاصمة طيبة)[3] .

كانت الأمور فى القسطنطينية تسير بعد موت هرقل من سىء إلى أسوأ، فقد تولى الحكم من بعده ولداه قسطنطين وهرقل الثانى ، تساعدهما الإمبراطورة مارتينا زوجة هرقل ، والتى استدعت المقوقس من منفاه وأعادته إلى مصر مزوداً بالسلطة التامة لعقد الصلح مع العرب وتسليم مدينة الإسكندرية[4] ، فقد صارت الحرب دون جدوى وأصبح من المؤكد أن مصر انفصلت عن جسم الإمبراطورية بعد وقوع أغلب مدنها فى أيدى العرب .

وصل المقوقس بأسطوله إلى الإسكندرية ، ثم غادرها إلى بابليون حيث اجتمع مع عمرو بن العاص فى أكتوبر من عام ٦٤١م/ ٢١هـ، وتم

---

(١) يقال إن البيزنطيين جمعوا فى الإسكندرية ما يقرب من ٥٠ ألف جندى ؛ بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ص٢٥٥ .

(٢) ظلت هذه القوة العسكرية تحاصر الإسكندرية أربعة عشر شهراً ، حتى تم عقد صلح الإسكندرية ودخول العرب ؛ إبراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية ، ص٢٨ .

(٣) محمود عرفة : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص١٨ ؛ مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، ص٢٦ .

(٤) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٢٥ .

الإتفاق بين الطرفين على معاهدة تسليم الإسكندرية ، والتى يسميها بتلر صلح الإسكندرية ، لأنه خاص فى جملته بأهالى الإسكندرية ، وتمييزاً له عن صلح بابليون الذى عقده چورچ عند تسليم الحصن[1]، وكانت أهم شروط صلح الإسكندرية ما يلى :

١ ـ أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

٢ ـ أن تعقد هدنة لمدة أحد عشر شهراً يجلو الروم خلالها عن مصر ويبحرون إلى بلادهم .

٣ ـ أن يبقى العرب فى مواضعهم أثناء هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال الإسكندرية ، وأن يكف الروم كذلك عن القتال .

٤ ـ أن ترحل الحامية البيزنطية ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم .

٥ ـ أن لا يعود جيش الروم إلى مصر أو يسعى لردها .

٦ ـ أن يعد العرب بعدم التعرض لكنائس المسيحيين وعدم التدخل فى شئونهم الدينية .

٧ ـ أن يسمح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية .

٨ ـ أن يبعث الروم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجنود رهائن لتكون ضماناً لتنفيذ شروط هذه المعاهدة[2].

وقد قامت قوات عمرو بن العاص خلال مدة الهدنة باستكمال فتح

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ص٢٧٧ .

(٢) بتلر : المرجع السابق ، جـ١ ، ص٢٧٨ ؛ جمال الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٢٥ .

بعض المدن فى الوجهين البحرى والقبلى ، فاستولت على مدن رشيد والبرلس ودمياط وتنيس[١] .

وفى ١٧ سبتمبر عام ٦٤٢م/ ٢٢هـ، رحلت الحامية البيزنطية عن الإسكندرية طبقًا للمعاهدة ، وفى ٢٩ سبتمبر من نفس العام دخل المسلمون عاصمة مصر الأولى دخول الفاتحين ، وبذلك انتهت تبعية مصر للإمبراطورية الرومانية لتبدأ عهداً جديداً من عهود تاريخها وهو عهد العروبة والإسلام .

وكان أول ما فعله عمرو بن العاص حين دخول الإسكندرية ، تعبيراً عن شكره لمساعدة اليعاقبة المصريين له ، أن أعاد الأب بنيامين مكرمًا لكرسى الأسقفية بالإسكندرية ، بعد أن كتب له أمانا وأقر عودته [٢] .

الفتح الثانى للإسكندرية :

بعد تسليم البيزنطيون الإسكندرية للعرب بنحو أربع سنوات ، أى عام ٦٤٥م/ ٢٥هـ، استغلوا بعض الأحداث والظروف التى مرت بها الدولة الإسلامية، فانتهزوا فرصة اغتيال (عمر بن الخطاب) وتولية عثمان بن عفان، ثم عزله لعمرو بن العاص عن مصر وتولية عبد الله بن سعد بن أبى السرح[٣]، وأعدو حملة كبيرة تتألف من ثلثمائة سفينة كاملة العدة

---

(١) تنيس : جزيرة فى بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط ، والفرما فى شرقيها ، ولما فتحت مصر عام ٢٠هـ كانت تنيس حينئذ أخصاصًا من قصب ، وكانت تعرف بذات الأخصاص إلى صدر أيام أمية ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٤٥٩؛ محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، جـ١ ، ص١٩٧ .

(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٢٣ .

(٣) هو أخ غير شقيق للخليفة عثمان بن عفان ، يقال إن ظلمة لأهل الإسكندرية وإثقاله كاهلهم بالضرائب كان هو السبب فى أنهم أرسلوا إلى الإمبراطور قنسطانز يستنجدون به؛ مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، ص٣٠ .

والعتاد لمهاجمة الإسكندرية من البحر بقيادة مانويل ، وكان العرب قد تركوا بعد فتح الإسكندرية الأول جاليات رومانية كبيرة ، كما أباحوا لليهود أن يقيموا فى المدينة على أن يدفعوا الجزية طبقًا لنصوص المعاهدة ، وهؤلاء الروم واليهود كانوا عدة البيزنطيين فى هذه المحاولة لاستعادة الإسكندرية ، فقد تمكن مانويل بفضل مساعدتهم من الإستيلاء على الإسكندرية ، ولم يكتف بذلك بل توغل فى أراضى الوجه البحرى وأعلمت جنوده أعمال السلب والنهب والتخريب(١) .

هنا استنجد الخليفة (عثمان بن عفان) بعمرو بن العاص كقائد حربى لصد هذا العدوان(٢)، فقام عمرو بن العاص على رأس الجيش الإسلامى بملاقاة البيزنطيين عند نقيوس ، التى شهدت انسحابهم من قبل حيث دارت بين الطرفين معركة عنيفة كان النصر فيها حليف العرب ، ثم قام الجيش الإسلامى بمطاردة فلول المنهزمين حتى أسوار الإسكندرية التى احتموا بها ، وقد أظهر عمرو بن العاص أسفه لأنه لم يهدم هذه الأسوار بعد فتح الإسكندرية الأول ، وحلف لئن أظفره الله بها ليهدمن أسوارها حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان(٣)، ثم بذل العرب جهوداً كبيرة حتى هدموا الأسوار من الجهة الشرقية ، ودخلوا إلى قلب المدينة ، فدارت معارك بين العرب والبيزنطيين سقط خلالها القائد البيزنطى مانويل صريعًا ، وفر من استطاع من جنده إلى بلادهم منهزمين بعد أن ركبوا ما

---

(١) صابر محمد دياب : تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، ص٣٣ ؛ محمود عرفة محمود: الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص٢٠ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٢١٢ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص١٩٩ .

بقى لهم من سفن ، ومن الجدير بالذكر إن مما ساعد على هزيمة البيزنطيين واخفاقهم أن المصريين فى هذه المرة وقفوا مع العرب وقفة صريحة لا شك فيها ، حتى لا يعود حكم عانوا منه من قبل .

بذلك تكون الإسكندرية قد فتحت مرتين ، ولعل هذان الفتحان هما اللذان يشير إليهما ابن عبد الحكم حينما يقول أن الفتح الأول سنة ٦٤١م ، كان صلحاً ، والفتح الثانى ٦٤٥م ، كان عنوة[1] .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص١١٩ .

الفصل الثالث

مصر فى عصر الولاة

(٢٠-٢٥٤هـ/ ٦٤١-٨٦٨م)

الفصل الثالث

مصر فى عهد الولاة (٢٠ ـ ٢٥٤ هـ/ ٦٤١ ـ ٨٦٨م)

بإتمام عمرو بن العاص لفتح مصر عام ٢١هـ/ ٦٤١م ومغادرة القوات البيزنطية لمدينة الإسكندرية فى ١٧ سبتمبر من عام ٦٤٢م، تحولت مصر من كونها ولاية رومانية بيزنطية إلى ولاية عربية إسلامية ، تابعة للخلافة فى عصور الراشدين والأمويين والعباسيين قرابة قرنين ونصف من الزمان ، حتى ولاية أحمد بن طولون ثم استقلاله بحكمها عام ٢٦٦هـ[١] .

ولا شك أن عصر الولاة فى تاريخ مصر الإسلامية كانت له صفاته الخاصة وملامحه المميزة ، التى جعلت منه عصراً فريداً فى تاريخ مصر ، ففى الناحية السياسية : كان عصر تبعية مطلقة لدولة الخلافة فى عاصمتها فى المدينة المنورة أو دمشق أو بغداد ، فكان الخليفة يعين الحاكم على مصر الذى عرف بالوالى أو العامل أو الأمير ، والذى كان مسئولاً أمام الخليفة مسئولية مباشرة ومطلق التصرف فى فترة ولايته الطويلة أو القصيرة فى حدود ترسمها له الخلافة الإسلامية .

وكان على الوالى إمامة الصلاة فى المسجد الجامع فى أيام الجمع والأعياد ، كما كان قائداً للقوات العربية القائمة بمصر للدفاع عنها وتأمين حدودها ، كذلك كان عليه أن يعين الموظفين المحليين اللازمين لإدارة الدواوين ونظم الحكم ويشرف على أعمالهم .

---

(١) سيدة إسماعيل الكاشف : الأرض والفلاح فى مصر الإسلامية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص١٥٩ .

إلى جانب هذا كان إلى جوار الوالى موظف هام هو « عامل الخراج » كانت مهمته تحصيل خراج الأراضى وإرساله إلى عاصمة الخلافة بعد أن يستخلص منه ما يلزم الولاية ، وكانت سلطة عامل الخراج مستقلة عن سلطة الوالى وعلاقته بعاصمة الخلافة والخليفة علاقة مباشرة[1] .

ولاة مصر فى عصر الراشدين :

أ ــ عمرو بن العاص

ارتبط تاريخ مصر فى عصر الولاة بأول وال عليها من قبل الخلافة فى عصر الراشدين ، وهو عمرو بن العاص القائد والفاتح لمصر فى عصر الخليفة عمر بن الخطاب ، وقد تولى عمرو بن العاص ولاية مصر مرتين ، الأولى بعد الفتح مباشرة حتى عزله عن ولايتها الخليفة عثمان بن عفان عام ٢٥هـ، واستبدل به عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، والثانية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان من عام ٣٨هـ حتى وفاته وهو عليها عام ٤٣هـ.

وتعد فترة ولايته الأولى على مصر من أهم الفترات فى تاريخ مصر ، إذ كانت فترة اختبار للحكم الإسلامى الجديد فى مصر ، فقد كان عليه إشعار أهل مصر بحقيقة التغيير الجديد فى حياتهم بعد أن تحولوا من حكم الروم إلى الحكم الإسلامى ، فضلاً عن هذا فإن فترة ولاية عمرو الأولى تعد فترة تطور وتحول فى أحوال مصر السياسية والإدارية والاقتصادية والدينية ، فقد أوجد الحكم الإسلامى نظمًا جديدة تختلف عما كانت عليه مصر فى عهد الرومان ، خاصة فى الإدارة والعمل فى الدواوين ، ذلك لأن الدواوين لم تكن قد عربت بعد ، بل استمر التعامل باللغة اليونانية كما كانت

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٢٩ .

فى العهد البيزنطى ، حتى عربت الدواوين فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان[1].

ومن الناحية الدينية فقد اتبع عمرو والولاة من بعده سياسة التسامح الدينى مع أهل البلاد الأقباط ومع يهود الإسكندرية ، والتزم معهم بعهد الأمان الذى منحه لهم الخليفة عمر بن الخطاب ، وكفل لهم حرية العقيدة والمحافظة على كنائسهم وأديرتهم وحرية العبادة فيها ، ولم يفرض عليهم التحول إلى الإسلام[2].

كذلك عمل عمرو على دعم اقتصاد مصر فى الزراعة والصناعة والتجارة ، فأصلح ما خربته الحروب من أراض زراعية ، واقتصر على تحصيل الجزية والخراج وإرسالها إلى دولة الخلافة ، فقد صولح أهل مصر على أن يدفعوا عن رجالهم ، الذين قدر عددهم آنذاك بنحو ثمانية ملايين رجل ، عن كل رجل قادر عامل دينارين جزية ، ولم تفرض هذه الجزية لا على النساء ولا على الأطفال أو العجزة والرهبان ، وكانت الجزية تدفع مرة كل عام .

كانت هذه الجزية التى فرضت على أهل الذمة (النصارى واليهود) تقابل الزكاة المفروضة على المسلمين ، وذلك حتى يشعر الذميون بمساهمتهم فى الدولة التى يستظلون برايتها والتى كفلت لهم حرية العبادة ووفرت لهم الأمن والحماية[3].

وقد قام عمرو بتحصيل الجزية وإرسالها إلى بيت مال الخلافة بالمدينة

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٣٠ .
(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٦ .
(٣) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٣١ .

بعد حبس ما كانت تحتاج إليه البلاد من نفقات مثل : رواتب الجند ، ورواتب موظفى الدواوين ، والمال اللازم لاحتياجات الزراعة من حفر ترع وقنوات وإقامة جسور وسدود وقناطر .

وقد بلغ مقدار ما كان يجمع من هذه الجزية فى عهد ولاية عمرو الأولى مائة وعشرين ألف دينار فى العام[1] .

وقد تقرر فى الإسلام أن تسقط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، وأخذ الزكاة منهم مساواة لهم مع المسلمين ، تطبيقًا لقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

أما الخراج الذى كان يحصل من أرض مصر فهو أقدم أنواع الضرائب فى تاريخ البشرية لارتباطه بالأرض ، فقد عرفته جميع الشعوب قبل الإسلام ، وما كان من الإسلام إلا أن أقره ووضع له نظاماً يتفق وتعاليمه السمحة فقد فرض الخراج فى الإسلام على نوعين من الأراضى هى :

١ ـ الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة ، إذا عدل الخليفة عن تقسيمها كغنيمة على المحاربين وعوضهم عن نصيبهم فيها ، ويبقى على هذه الأرض أهلها يزرعونها على أن يدفعوا خراجها الذى قدر بنصف ما تغله الأرض من محصول وينتفعوا هم بالنصف الباقى .

٢ ـ الأرض التى يستولى عليها المسلمون صلحًا ويتصالح أهلها على أداء خراجها وتظل فى أيديهم يتوارثونها وليس لأحد أن يأخذها منهم[3] .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص١٠٤ .

(٢) سورة التوبة : آية ٥ .

(٣) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٣١ .

والخراج يظل لاصقًا بالأرض ولا يسقط عنها ، فأرض الخراج تظل أرض خراج حتى ولو أسلم أهلها بعد ذلك أو انتقلت ملكيتها إلى أيدى مسلمين .

وكان الخراج يؤخذ إما مالاً أو غلة (جزء من المحصول) حسب رغبة الخليفة أو حسب حاجة الدولة فى ذلك الوقت ، فقد أخذ الخليفة عمر بن الخطاب الخراج مالاً على أرض السواد بالعراق بعد فتحها ، أما ما يؤخذ غلة فيعرف بالمزارعة أو المعاملة ، وذلك وفق ما عامل به الرسول صلى الله عليه وسلم ، يهود خيبر على نصف ما تغله الأرض قل أو كثر فى كل عام بعد جنى المحصول(١) .

وقد بلغ خراج مصر فى عهد عمرو بن العاص فى أحد الأعوام اثنى عشر مليون دينار(٢)، وبلغ فى عام آخر أربعة عشر مليون دينار فى عهد عبد الله بن سعد بن أبى السرح حين استعمله عثمان بن عفان(٣) .

بناء الفسطاط :

بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح الإسكندرية وإجلاء الروم عنها وطردهم من مصر ، أراد عمرو أن يجعلها مقراً لولايته وإتخاذها عاصمة لمصر لحبه لها وإعجابه بها ، وكان عمرو قد أرسل كتاباً إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يصف فيه الإسكندرية وعمارتها جاء فيه : « أما بعد فإنى

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق محمد خليل هراس ، مكتبة زهران بالقاهرة (د. ت)، جـ٣ ، ص٣٠٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص١١٠ .

(٣) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص١١١ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مكتبة الآداب (د. ت) جـ١ ، ص١٥٩ .

فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير إنى أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك ، واثنى عشر بقال يبيعون البقل الأخضر »[1]، واستأذن عمرو الخليفة عمر أن يتخذها سكناً وعاصمة لمصر ، فسأل عمر رسول عمرو قائلاً : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل »[2]، فكتب عمر إلى عمرو : « إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت»[3].

ويعلق حسن إبراهيم حسن على ذلك قائلاً : « لا شك أن مدينة الإسكندرية لم تعد صالحة لأن تكون حاضرة مصر ، كما كانت أيام الإسكندر ، فلم يكن بد من أن تكون الحاضرة ـ على أثر انتقال مركز السيادة على مصر إلى بلاد العرب ـ إما على البحر الأحمر ، وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية ، ولما لم تكن العرب أمة بحرية ، لم يكن بد من أن يتخذوا حاضرتهم الجديدة على نقطة برية سهلة الاتصال ببلاد العرب »[4]، لذلك تحول عمرو عن الإسكندرية إلى موضع جديد فى السهل الذى يلى الحصن الرومانى عند مدينة منف القديمة عرف بالفسطاط .

وقد اختلف المؤرخون فى الأصل اللغوى لكلمة الفسطاط ، وتعددت

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٦٢ .
(٢) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص٦٨ .
(٣) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص٦٨ .
(٤) تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٤٢٣ .

الآراء حول معنى الكلمة ، فيذهب بتلر إلى أن لفظ فسطاط يرجع إلى اللفظ الرومانى Fussatum أى المدينة ، وأن العـرب نقلوها عن اليـونان عند اتصالهم بهم فى حروب الشام[1]، بينما يجمع جمهور مؤرخى العرب أن أصل التسمية يرجع إلى أسطورة اليمامة المعروفة التى تركها عمرو بن العاص فوق فسطاطه (خيمته) حتى تفرخ وتطير صغارها[2].

ويعلق جمال الدين الشيال على قصة اليمامة وفسطاط عمرو قائلاً : «إنا نرى أن قصة اليمامة مع طرافتها قد تبعد عن الصحة ، وذلك لأنهم يقولون إن عمراً قد أوصى أحد المصريين ـ فى رواية ـ أو صاحب القصر ـ فى رواية أخرى ـ بالمحافظة على الخيمة (الفسطاط) حتى تفرخ اليمامة وتطير صغارها ، وأنه عند رجوعه وجد الفسطاط فى مكانه ، فنزل هو وجنده بجواره ، ونحن نشك فى صحة هذا الخبر لأن عمراً ولو أنه كان قد استولى على حصن بابليون ، فإن مصر لم تكن قد خضعت كلها لأمره ، ولذلك لا يعقل أن ذلك الرجل المكلف بالمحافظة على الفسطاط يبقى على عهده ويحافظ على وعده مع رجل فاتح لم يثق بعد أنه أصبح الحاكم على مصر حتى يخشاه ويحافظ على حراسة فسطاطه من أجل يمامة طول ذلك الوقت الذى استنفده عمرو فى فتح الإسكندرية ، ويدفعنا أيضاً إلى الشك فى هذه القصة ما هو معروف ومشهور عن الطيور وخاصة الحمام واليمام من أنها تتخير لأعشاشها وبيضها وفراخها الأماكن المنعزلة المهجورة صوناً

---

(١) فتح العرب لمصر ، جـ٢ ، ص٢٩٥ .

(٢) يذكر هذه القصة بالتفصيل مؤرخو العرب جميعاً ، انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٦٨ ؛ ابن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ، بيروت (د. ت)، القسم الأول ، ص٢ ـ ٣ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٧٦ .

للأعشاش وحفظاً للبيض ، فهل من المعقول إذن أن تترك هذه اليمامة تلك الأماكن الآمنة لتضع بيضها فى معسكر دائم النشاط دائب الحركة ، وفى خيمة القائد وهى أنشط أماكن المعسكر بالحركة وأعمرها بالوافدين ؟، وإذا كانت هذه القصة صحيحة ففى أى مكان من الخيمة تبنى اليمامة عشها ، والخيمة كما نعرفها جميعاً مصنوعة من قماش أملس وهى منحدرة الجوانب إذا نصبت »[١] ثم يضيف موضحًا الأصل والصحيح فى التسمية قائلاً : «غير أننا نحب أن ندلى برأى يخالف هذين الرأيين وقد يكون أقرب منهما إلى الحقيقة ، وذلك أن كلمة الفسطاط كلمة عربية معناها المدينة ، فإننا إذا رجعنا إلى القاموس المحيط وجدنا أن (الفسطاط) بالضم «مجتمع أهل الكورة» ووجدنا أن الكورة هى «الصقع أو المدينة» وبذلك تكون الفسطاط هى مجتمع أهل المدينة»[٢]، ويؤيد ما سبق المقريزى فى حديثه وشرحه لمعنى الفسطاط قائلاً : « قال ابن قتيبة فى كتابه غريب الحديث فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط ، يرويه سويد بن عبد العزيز عن النعمان بن المنذر عن مكحول عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والفسطاط المدينة وكل مدينة فسطاط ، ولذلك قيل لمصر فسطاط »[٣].

فالأصح عقلاً بعد ذكر كل هذه الأراء جميعاً أن كلمة (فسطاط) كلمة عربية خالصة معناها (المدينة)، يؤكد هذا الرأى أنه كان فى مصر وقت الفتح مدينتان : الإسكندرية وتعتبر العاصمة الأولى وذلك لقربها من الدولة

---

(١) تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٣٥ .

(٢) جمال الدين الشيال : المصدر نفسه ، جـ! ، ص٣٦ .

(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٧٦ .

البيزنطية وإشرافها على البحر المتوسط ، وبابليون أو مصر وتعتبر العاصمة الثانية ، وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلى والبحرى ، ولوقوعها على شاطئ النيل بحيث تكون سهلة الاتصال بكل أطراف القطر المصرى ، والمقريزى نفسه يؤيد هذا الرأى بوجود هذه المدينة إذ يقول : « وكان بجوار هذا الحصن ـ بابليون ـ من بحريه وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم وصار موضعها الجامع العتيق ، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى يعرف اليوم براشدة ، وبجانب الحصن فيما بين الكروم التى بجانبه وبين الجرف الذى يعرف اليوم بجبل يشكر حيث جامع ابن طولون والكبش عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى كان فى أوائل الإسلام بالحمراء »[١] .

ونخرج من هذا كله أن اختيار عمرو لهذا المكان لم يكن اعتباطاً ، بل كان اختياراً طبيعيًا يتمشى مع الواقع الجغرافى الذى كان عليه المكان وقت نزول العرب ، وإنه كان لزامًا على عمرو أن يحول وجهه شطر العاصمة (الثانية) وقتذاك وهى (بابليون) فذهب إليها واتخذ الفضاء المجاور لها مقراً له ولجنوده[٢]، بعيداً القصص والروايات التى يتخذها البعض سببًا فى اختيار عمرو لهذا المكان لبناء العاصمة الجديدة ، وقد وفق عمرو بن العاص فى اختيار موقع العاصمة سواء من الناحية الجغرافية أو الحربية ، فهو موقع عند رأس الدلتا له أهميته من الناحية الحربية والعمرانية ، فبذلك تكون العاصمة فى مأمن من هجمات العدو وهى فى نفس الوقت قريبة من الأراضى الزراعية ، الأمر الذى يسهل معه وصول المؤن والأقوات ، كذلك

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٥٩ ـ ٦٠ .

(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٣٤ .

يحمى العاصمة من جهة الشرق جبل المقطم فهو درعها الواقية ضد العدو وضد فيضان النيل ، كما دل عمرو على بعد نظره عندما راعى فى اختياره لموقع المدينة أن يكون لها جانب يمكن أن يطّرد فيه اتساعها ألا وهو الجهة الشمالية الشرقية ، التى بنيت بها مدن العسكر والقطائع والقاهرة فيما بعد(١).

مسجد عمرو بن العاص :

كان أول ما عنى به عمرو بن العاص بعد أن خضعت له مصر ، وبعد أن اختار موضع العاصمة الجديدة أن يشيد مسجده الجامع وأن يبنى فى شرقى المسجد داراً خاصة لسكنه كانت تعرف بعد ذلك باسم دار عمرو الكبرى . ويعد جامع عمرو بن العاص أول بيت من بيوت الله فى مصر وإفريقيا ، بنى عام ٢١هـ، وهو أول موضع يجتمع فيه من الصحابة رضوان الله عليهم ما لم يجتمع فى غيره من المساجد الجامعة ، وهو رابع مسجد أقيم فى الإسلام ، بعد مساجد قباء ومسجد الرسول بالمدينة ومسجد الكوفة ، وقد عرف هذا الجامع بعدة أسماء منها : الجامع العتيق لأنه أقدم المساجد فى مصر ، مسجد أهل الراية(٢)، تاج الجوامع(٣).

---

(١) سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٧١، جـ١ ، ص٦٢ ، وانظر أيضاً : أحمد محمد عوف : مدينة الفسطاط وعبقرية المكان ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣ ، ص٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) أهل الراية : لأن عمرو اختار موضع المسجد فى المكان الذى كان فيه لواؤه ، وقد عرف بمسجد أهل الراية وهم نخبة من الجند الأنصار والمهاجرين كانوا يؤلفون قوات الجيش وتلتف حولهم كل قبيلة برايتها : ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارها ، ص٨٥ .

(٣) ابن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ، القسم الأول ، ص٥٩ ، عبد الرحمن زكى : الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ ، ص١١ .

بنى جامع عمرو فى الفضاء المجاور لحصن بابليون والواقع إلى الشرق من نهر النيل ، وكانت مساحته فى أول أمره خمسين ذراعًا طولاً فى ثلاثين ذراعًا عرضًا ، وكان الطريق يطيف به من كل جهة ، وقد جعل له عمرو بابين يقابلان داره وبابين فى بحرية وبابين فى غربيه ، وكان سقفه مطأطأ جدًا (منخفض) ولا صحن له ، فإذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كل ناحية[(١)] ، ومن هنا يتضح أن هذا الجامع كان فى مبدأ أمر بسيطًا وأصغر بكثير مما هو عليه الآن ، وقد اشترك فى تحرى قبلته ثمانون من رجال الصحابة ممن حضر الفتح من بينهم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت وأبو ذر الغفارى[(٢)] .

لم يبق جامع عمرو على مساحته الأولى فقد زيد فى مساحته وعمارته أكثر من مرة ، فكانت أول زيادة قام بها والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى عام ٥٣هـ فى خلافة معاوية بن أبى سفيان[(٣)] ، وكانت الزيادة الثانية فى عهد عبد العزيز بن مروان ، فقد هدمه وزاد فيه من ناحية الغرب وادخل فيه الرحبة التى كانت فى بحريه ولم يجد فى شرقيه موضعًا يوسعه به ، كذلك أمر عبد الله بن مروان والى مصر من قبل أخيه الوليد ، برفع سقف الجامع عام ٨٩هـ ، ثم قام الوالى قرة بن شريك العبسى بهدم الجامع فى مستهل عام ٩٢هـ بأمر الوليد بن عبد الملك ، وفرغ من بنائه وزخرفته عام ٩٣هـ ، كما نصب المنبر الجديد ونزع المنبر الذى كان

---

(١) سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ١ ، ص٦٢ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٤٢٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٦٨ ـ ٦٩ .

(٣) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص٩٣ .

فى المسجد من عهد عمرو بن العاص ، كذلك أمر قرة بن شريك بعمل المحراب المجوف (على غرار المحراب المجوف الذى عمله عمر بن عبد العزيز فى المسجد النبوى) وذهب تيجان الأعمدة الأربعة التى تتقدم المحراب[1] .

وتعد أهم الزيادات والإصلاحات التى شهدها المسجد الجامع فى عصر الولاة ، تلك التى قام بها الأمير عبد الله بن صالح ، والى مصر من قبل الخليفة العباسى المأمون عام ٢١٢هـ، وقد أجمع علماء الآثار أن تلك الزيادة التى أحدثها عبد الله بن صالح لم يطرأ عليها تغيير يذكر ، حتى أصبحت مساحته ما هو عليها الآن والتى بلغت ١٦ مرة قدر المساحة التى بنى عليها وقت إنشائه[2] .

وكان لجامع عمرو بن العاص وظائف متعددة إذ لم يقتصر عمله على أداء الفرائض الدينية فحسب ، بل كان جامعة تعقد فيه حلقات الدرس على كبار العلماء الفقهاء من الصحابة والتابعين ، فهو بذلك يكون قد سبق الجامع الأزهر فى وظيفة التدريس بأربعة قرون ، إلا أن هناك فرقاً بيناً بين الجامعين ، فبينما كانت دروس جامع عمرو بن العاص تعطى تطوعاً وتبرعاً حسبة لوجه الله تعالى ، كانت الدروس بالجامع الأزهر بتكليف من الدولة (الفاطمية) ولذلك فهى تؤجر العلماء والمدرسين عليها[3] .

---

(١) سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ١ ، ص٦٥ ـ ٦٦ .

(٢) عطية القوصى : مصر لإسلامية ، ص٣٥ .

(٣) سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ١ ، ص٧١ ـ ٧٢ .

خطط ومساكن الفسطاط :

شرعت القبائل العربية المصاحبة للفتح فى بناء خططها (منازلها) حول الجامع ، وقد اختار عمرو بن العاص أربعة رجال يمثلون القبائل الكبرى لتقسيم الخطط[1] بين القبائل حتى لا ينشب بينها نزاع ، وهؤلاء الأربعة هم : معاوية بن حديج التجيبى ، وشريك بن سمى الغطيفى من مراد ، وعمرو بن مخزوم الخولانى ، وحيويل بن ناشرة المعافرى ، وكانوا هم الذين أنزلوا الناس ، وفصلوا بين القبائل فى عام ٢١هـ[2].

ويذكر ابن عبد الحكم عدداً من أسماء القبائل العربية التى اختطت مساكنها بالفسطاط حول مسجد عمرو فمنها : قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار وثقيف وتجيب ولخم وغافق وخولان ومذحج ويحصب والمعافر وجهينة وبنى سهم وبلى ومهرة وأهل الراية[3].

ويقول ابن عبد الحكم إنه لما اختطت القبائل استحبت قبيلة همدان وما والاها الجيزة ، فكتب عمرو بن العاص يستفتى الخليفة عمر فى ذلك فأرسل إليه عمر يقول : « كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك ، لم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينهم وبينك بحر ، لاتدرى ما يفجأهم فلعلك لا تقدر على غياثهم حتى ينزل بهم ما تكره ،

---

(١) يوضح المقريزى معنى الخطط فى كتابه بقوله : (أعلم أن الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط ، بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة ، فقيل لتلك فى مصر خطة وقيل لها فى القاهرة حارة) ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٧٦ .

(٢) ابن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الإمصار ، القسم الأول ، ص٣ ـ ٤ ؛ عبد الرحمن زكى : الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع ، ص٨ .

(٣) فتوح مصر وأخبارها ، ص٧٣ إلى ٩٠ .

فاجمعهم إليك فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم ، فابن عليهم من فىء المسلمين حصنا ، فعرض عمرو ذلك عليهم فأبوا وأعجبهم موضعهم بالجيزة ومن ولاهم على ذلك من رهط يافع وغيرها ، وأحبوا ما هنالك فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن الذى بالجيزة فى سنة إحدى وعشرين وفرغ من بنائه فى سنة اثنتين وعشرين »[1].

وقد كان يفصل بين خطط (منازل) القبائل أنواع من الطرق المختلفة الإتساع والإمتداد ، فأكبرها كان لا يزيد عرضه عن ستة أمتار ، وأضيقها لا يتجاوز متراً ونصف المتر ، وكان يطلق عليها بنسبة عرضها أو اتساعها أو طولها أو اتصالها اسم : حارة ، أو درب ، أو زقاق ، أو بأسماء الحرف والصناعات أو أنواع التجارة ، كدرب البقالين ودرب العداسين ودرب الصيادين ، وزقاق قرنفل وزقاق القماح وزقاق المسك[2].

وقد كانت المبانى الأولى فى الفسطاط غاية فى البساطة ، وكلها من الطوب اللبن ومن طابق واحد[3]، وكان أول من بنى غرفة فوق الطابق الأول هو خارجة بن حذافة ، فكتب عمر إلى عمرو : « أن أدخل غرفة خارجة ، وانصب فيها سريراً ، وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير ، فإن أطلع من كواها فاهدمها ، ففعل ذلك عمرو فلم يبلغ الكوى فأقرها»[4].

ومن هذه الرواية نستنتج أن العرب لم يجعلوا لمنازلهم الأولى نوافذ ،

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ، ص٩١ .

(٢) ابن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الإمصار ، القسم الأول ، ص٢١ إلى ٢٩ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٤٢٣ ؛ جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٣٩ .

(٤) ابن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الإمصار ، القسم الأول ، ص٦ .

بل اتخذوا فيها كوى[1] مرتفعة تقرب من السقف ، بحيث أن الرجل الواقف على السرير لا يستطيع أن ينظر إلى الخارج ، وهى من الأمور التى تؤكد مراعاة العرب والمسلمين فى الحفاظ على الآداب الشرعية عند البناء ، ومراعاة الحرمة والجوار فى السكن ، ولم تظل مدينة الفسطاط على بساطتها طويلاً ، إذ سرعان ما كثر سكانها وازدادت عمارتها ، وأخذت الدور تتسع وتعلو شيئًا فشيئًا حتى أصبحت بعض المنازل تبلغ الأربع أو الخمس طبقات أو السبع أو الثمانى طبقات فى رواية أخرى[2]، وأصبح يسكنها المائتان من الناس بعد أن كان لا يسكنها إلا أسرة قليلة العدد[3].

وقد اتخذ تسعة وعشرون واليًا من ولاة مصر الفسطاط عاصمة لهم منذ إنشائها حتى عام ١٣٣هـ، أى مدة ١١٣ سنة ، حتى تأسست عاصمة ثانية جديدة لمصر فى العصر العباسى هى مدينة العسكر ، بناها صالح بن على أول والى عباسى فى مصر من قبل الخليفة أبى العباس السفاح ، وكان أول من سكنها من ولاة العباسيين الوالى أبو عون بن عبد الملك[4].

خليج أمير المؤمنين :

بعد بناء الفسطاط أقبل عمرو بن العاص على عمل آخر عظيم وهو

(١) الكوى : ثقب أو فتحة بالبيت والجمع كواء . الرازى : مختار الصحاح ، بيروت ١٩٨٢، ص٥٨٥ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٤٢٣ ؛ متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، بيروت ١٩٦٧ ، جـ٢ ، ص٢٢٧ .

(٣) الإصطخرى : المسالك والممالك ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤ ، ص٣٩ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٤٢٣ .

(٤) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٣٦ .

حفر خليج تراجان ، الذى ساعد على ازدهار الفسطاط وانتعاش حركتها التجارية وزيادة عمرانها ، وكان ذلك الخليج يخرج من النيل إلى الشمال من بابليون فيمر بمدينة عين شمس ، ثم يسير فى وادى الطميلات إلى موضع القنطرة حتى يتصل بالبحر الأحمر عند القلزم (السويس) ، ولما كان هذا الخليج قد طمس فى كثير من أجزائه قبل فتح العرب لمصر ، فقد استأذن عمرو الخليفة عمر فى إعادة شقه فسمح له بذلك ، وسمى بخليج أمير المؤمنين وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز محملة بالغلال وأنواع الطعام، وقد ظل هذا الخليج يؤدى أعمالاً جليلة فى مصر ، حتى أهمل فى زمن عمر بن عبد العزيز وفى أيام من جاء بعده من الولاة ، وبعد إنشاء القاهرة عرف باسم خليج القاهرة فالخليج الحاكمى ، ثم خليج اللؤلؤة ، ثم الخليج المصرى ، وقد ردم الجزء الواقع من هذا الخليج داخل مدينة القاهرة فى سنة ١٨٩٧/١٨٩٩ ، وحل محله شارع الخليج المصرى الذى سمى بشارع بور سعيد عام ١٩٥٧[١] .

جهود عمرو فى تأمين الحدود :

ما كاد عمرو يفرغ من تأسيس العاصمة وبعد أن فتحت الإسكندرية ؛ حتى اتجه بأنظاره غرباً لفتح بلاد المغرب ، لكى يؤمن حدود مصر الغربية من هجمات الروم ، إذ كانت هذه البلاد ما تزال تابعة لدولة الروم ، لذلك انفذ عمرو قواته إلى بلاد برقة أول عام ٢٢هـ ، ولم يقع بين العرب والروم قتال يذكر حتى وصلت قواتهم لبرقة ، التى سلمت لهم صلحاً على أن تدفع للعرب ثلاثة عشر ألف دينار جزية معلومة كل عام[٢] .

---

(١) عبد الرحمن زكى : الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع ، ص٢٩ ـ ٣٠ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٢١٣ ؛ عبادة كحيلة : العقد الثمين فى تاريخ المسلمين ، ص١٢٩ ؛ عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٣٧ .

ثم سار عمرو بعد ذلك إلى طرابلس وكانت أمنع حصوناً وأكثر جيشاً ، إذ كانت بها مسلحة كبيرة من الروم فأغلقت أبوابها وصبرت على القتال والحصار الذى فرضه العرب عليها حوالى شهراً ، ونجحت قوات عمرو فى التسلل إلى المدينة عن طريق البحر وفتحها ، وجاءت له قبيلة لواته البربرية التى كانت تسكنها تدين بالولاء والطاعة ، فلما تم هذا الفتح لعمرو عاد إلى مصر ومعه عدد كبير من الأسرى وقدر كبير من الغنائم فى صيف عام ٢٢هـ(١).

وحتى يؤمن عمرو مصر من ناحية الجنوب ، أرسل قواته لغزو بلاد النوبة لمنع غاراتها الحدودية على مصر ، وقد نجحت قوات عمرو فى مهمتها ، وعقد المسلمون مع النوبة الإتفاق المعروف بالبقط Pactum (٢)، والذى نظم العلاقة بينهما وذلك بعد الحملة الناجحة التى قادها ضدهم والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى السرح عام ٣١هـ(٣).

حريق مكتبة الإسكندرية :

يتهم بعض المؤرخين عمرو بن العاص بأنه أحرق مكتبة الإسكندرية عندما فتحها ، فى حين ينفى مؤرخون آخرون هذه التهمة عنه .

وكان أول من نسج هذه القصة المختلقة المؤرخ الرحالة عبد اللطيف

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٣٧ .

(٢) تعنى كلمة Pactum فى اللاتينية العهد أو الصلح ، عبادة كحيلة ، العقد الثمين فى تاريخ المسلمين ، ص١٢٩ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٢١٤ .

البغدادى (ت٦٢٦هـ/ ١٢٣١م) فى كتابه (الإفادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر)، وكذلك ابن القفطى (ت٦٦٦هـ/ ١٢٤٨م) فى كتابه (أخبار العلماء بأخبار الحكماء)، وأبو الفرج الملطى (ت٦٨٥هـ/ ١٢٧٧م) فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) .

فهؤلاء المؤرخون تناقلوا عن بعضهم البعض أسناد حرق المكتبة إلى عمرو بن العاص ، دون تدقيق أو تمحيص لرواياتهم ، فقد كان كلام البغدادى مجرد إشارة عند حديثه عن الإسكندرية قائلاً : « ورأيت أيضًا حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف ، وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها ، وأرى أنه كان الرواق الذى يدرس فيه أرسطو طاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه »[١] .

وقد زاد فى ذكر هذه القصة ابن العبرى (أبو الفرج بن هارون الملطى) الذى ألف كتابه بالسريانية ثم نقله إلى العربية باسم (تاريخ مختصر الدول) وروى فيه ـ أيضاً ـ الكثير من الأساطير ، فقال عن حريق مكتبة الإسكندرية على يد عمرو بن العاص عند حديثه عن يحيى النحوى : « وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ، ودخل على عمرو ، وقد عرف موضعه من العلوم ، فأكرمه عمرو ، وسمع من الفاظه

---

(١) الإفادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، تحقيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨ ، ص٩٨ .

الفلسفية ، التى لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به ، وكان عمرو عاقلاً حسن الإستماع صحيح الفكر ، فلازمه وكان لايفارقه ، ثم قال له يحيى يومًا : إنك قد احطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا نعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به ، فقال له عمرو : ما الذى تحتاج إليه ؟ قال : كتب الحكمة التى فى الخزائن الملوكية ، فقال له عمرو : هذا ما لا يمكننى أن آمر فيه إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها ، فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الإسكندرية واحراقها فى مواقدها فاستنفدت فى مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى وأعجب »[1] .

وقد انقسم المؤرخون حيال هذه الروايات وهذه التهمة إلى فريقين ، فريق يرى صدق هذه الروايات ويمثله جرجى زيدان ، ويدلل على ذلك بأن العرب عندما فتحوا فارس أحرقرا ما بها من الكتب أو طرحوها فى الماء ، وبأن العرب كانوا شديدى الرغبة فى محو كل كتاب غير القرآن ، وبأن كثيرين من الفاتحين عندما فتحوا بلاد أعدائهم أحرقوا كتبهم مثل هولاكو عند فتح بغداد ، وبأن كثيرين من أصحاب الأديان كانوا يهدمون معابد أعدائهم ويحرقون كتبهم ، بل إن بعض أئمة المسلمين كانوا يحرقون كتبهم بأيديهم ، وبأن هذه التهمة لم يقل بها أبو الفرج وحده حتى يقال إنه

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، مطبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩٠ ، ص١٨٠ .

قالها بداعى تعصبه الدينى ضد الإسلام ، بل قال بها مؤرخون مسلمون منهم البغدادى وابن القفطى(١).

أما الفريق الثانى من المؤرخين فيرى أن رواية أبى الفرج لا يمكن تصديقها لأسباب منطقية كثيرة ، منها أن هذه الرواية بها كثير من الخرافات التى لا يقرها عقل ، إذ كيف يعمل عمرو بن العاص على إحراق الكتب ، ثم يسلمها إلى الحمامات ؟ ألم يكن فى استطاعة أصحاب الحمامات أن يبيعوها وفى استطاعة يوحنا النحوى ـ أيضاً ـ أن يشتريها ؟ ثم كيف يمكن إشعال أفران الحمامات فى الإسكندرية ستة شهور بهذه الكتب ، مع أن الحمامات التى كانت فى الإسكندرية فى ذلك الوقت كانت حوالى أربعة آلاف حمام ؟. أضف إلى ذلك أن يوحنا النحوى وهو حنا فليبونوس على ما يقول بتلر كان قد مات قبل فتح العرب للإسكندرية بحوالى ثلاثين أو أربعين سنة(٢)، كما أن هذه الكتب كانت من الكاغد والرق الذى لا يصلح لإيقاد النار(٣).

وأفراد هذا الفريق لا يكتفون بمناقشة رواية أبى الفرج ، بل يردون على أقوال الفريق الأول ويفندونها ، فيقولون إن القول بأن العرب عندما فتحوا فارس أحرقوا الكتب قول ضعيف لأنه لم يقل به إلا مؤرخ واحد جاء بعد الفتح بزمن طويل جداً وهو حاجى خليفة (ت١٠٥٧هـ ـ ١٦٥٧م) فى كتاب (كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون)(٤)، ويقولون أيضاً إن هولاكو

---

(١) التمدن الإسلامى ، طبعة دار الهلال ١٩٠٣ ، جـ٢ ، ص٤٠ ـ ٤٦ .

(٢) فتح العرب لمصر ، جـ٢ ، ص٣٥٢ .

(٣) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، ص٣٧ ؛ إبراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، ص٣٣ .

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٨ .

وأمثاله إذا كانوا أحرقوا كتبًا أو أغرقوها فى الماء فإن هذا ليس من الضرورى أن ينطبق على العرب ، والمعروف عن العرب أنهم كانوا يعملون على نشر العلم منذ غزوة بدر ، ولذلك كانوا يطلقون سراح الأسير إذا وعد بتعليم عشرة من المسلمين الكتابة ، كما أنهم يحترمون العلماء ويقدسون الكتب المنزلة مثل التوراة والإنجيل ، ولا تسمح لهم عقيدتهم بإحراقها[١] .

وإذا كان عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى قد اتفقا مع أبى الفرج الملطى (ابن العبرى) فى نسبة هذه التهمة إلى عمرو بن العاص مما ينفى تهمة التعصب الدينى عن أبى الفرج الملطى ؛ فإن عبد اللطيف وابن القفطى من مؤرخى القرن السابع الهجرى ، أى متأخرون فى الزمن عن الفتح العربى لمصر بحوالى ستة قرون ، أضف إلى ذلك أن المؤرخين الذين سبقوهم سواء فى ذلك المسلمين منهم وغير المسلمين لم يشيروا إلى هذه التهمة أية إشارة تذكر ، مع أنهم فى كتبهم تكلموا عن الفتح العربى وأحداثه ، ومن أمثال هؤلاء المؤرخين سعيد بن البطريق (أوتيخا) المتوفى عام ٣٢٨هـ، وصاحب كتاب (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) ، ويحيى بن سعيد الإنطاكى صاحب كتاب (صلة تاريخ أوتيخا) ، وكذلك الطبرى واليعقوبى والبلاذرى وابن عبد الحكم والكندى وغيرهم ، كذلك لم ترد فى تاريخ من جاء بعدهم وأخذ منهم كالمقريزى وأبى المحاسن والسيوطى[٢] .

---

(١) محمد عبد الوهاب صقر : عمرو بن العاص ، ص٦٥ ؛ مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، ص٣٨ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص١٩٨ ؛ إبراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، ص٣٠ ـ ٣١ .

والخلاصة أن اسطورة حريق مكتبة الإسكندرية على يد عمرو بن العاص لا نصيب لها من الصحة أو السند التاريخى ، والحقيقة أن المكتبة الملكية التى أشار إليها أبو الفرج فى قصته لم يكن لها وجود أصلاً زمن الفتح الإسلامى للإسكندرية ، ويوضح ذلك بتلر فى كتابه قائلاً : « إن المكتبة قد أحرقت سنة ٤٨ق. م عند مجئ يوليوس قيصر إلى الإسكندرية ، كما كانت قد أحرقت فى عهد تيودوسيوس (٣٨٧ـ٣٩٥م) ، فقد كان يوليوس قيصر محصوراً سنة ٤٨ ق. م فى حى البروكيون يحيط به المصريون من كل جانب وعليهم قائدهم أخيلاس ، فأحرق السفن التى كانت فى الميناء وقيل إن النار أمتدت من هناك وأحرقت المكتبة فأفنتها)[1]، وهو بذلك ـ بتلر ـ يقصد مكتبة المتحف أو المكتبة الأم التى لم يتم تجهيزها ويكمل نظامها إلا على يد الملك البطلمى بطليموس فلادلفوس[2]، فقد قال عنها بعد ذلك إنها كانت فى القرن الرابع الميلادى وقد فنيت[3]، أما المكتبة الوليدة التى أرسلها مارك أنطونيو كهدية إلى الملكة كليوباترا والتى كانت تحتوى على مأتين ألف لفة من مكتبة ملوك برجاموس[4]، فهى المكتبة الصغرى التى عرفت بمكتبة السرابيوم، وهذه المكتبة الصغرى قد قضى عليها ـ أيضاً ـ أثناء نضال المسيحيين مع عبدة الأوثان عام ٣٩١م، حين هدم معبد السرابيوم وخرب ولحق المكتبة نفسها الخراب[5].

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ٢ ، ص٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٣٨ .

(٣) بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ٢ ، ص٣٥٨ .

(٤) بتلر : فتح العرب لمصر ، جـ٢ ، ص٣٥٦ .

(٥) إبراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، ص٣١؛ عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٣٩ .

وإذا سلمنا ـ جدلاً ـ برأى من يقول أن مكتبة السرابيوم هذه قد ظلت باقية على عهدها حتى فتح العرب الإسكندرية ، يكون من أبعد الأمور أن يقوم العرب بتدميرها أو إحراقها ، فالعرب لم يدخلوا المدينة إلا بعد أحد عشر شهراً من الفتح ، وقد جاء فى شروط الصلح (معاهدة الإسكندرية) أن الروم فى مدة الهدنة لهم أن يخرجوا من البلد إذا شاءوا وأن يحملوا معهم كل ما استطاعوا نقله من متاعهم وأموالهم[١]، وكان البحر فى كل هذه المدة خالياً من العدو لا يقف شئ فيه بين الروم وبين القسطنطينية أو سواها من ثغور البحر ، فلو كانت مكتبة السرابيوم عند ذلك باقية لطمع الناس فى ثمن كتبها وأغراهم ذلك بنقلها إن لم يغرهم شئ آخر ، فقد كانت كتبًا عظيمة القدر يقبل على شرائها كثير من الناس الذين لهم شغف بالعلوم ، وكان لا بد للروم أن يسعوا إلى نقل تلك الكنوز العلمية فى وقت الهدنة إذ كانت الفرصة ممكنة ، ولا أن يتركوها تقع فى يد محاربى الصحراء الذين لا علم لهم بقيمتها وهم على وشك دخول المدينة[٢] .

من كل هذا نستطيع أن نقول ونحن مطمئنين بأن عمرو بن العاص لم يحرق مكتبة الإسكندرية ، وأن إتهامه بهذا محض إفتراء عليه وعلى العرب ، ولا يبعد أن يكون عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى وأبو الفرج الملطى قد أخذوا جميعًا هذه الأساطير والأخبار الملفقة عن مصدر واحد يعادى العرب ، خاصة وأنهم جميعًا عاشوا فى القرن السابع الهجرى ، وأن الروايتين اللتين ذكرهما ابن القفطى وأبو الفرج تكادان تكونان رواية واحدة لاشتراكهما فى كثير من العبارات والتراكيب[٣] .

---

(١) إبراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، ص٣٢ .
(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٤٠ .
(٣) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، ص٤٠ :

ب ــ عبد الله بن سعد بن أبى السرح :

ولى عبد الله بن سعد بن أبى السرح ولاية مصر بعد عزل عمرو بن العاص عام ٢٥هـ، وكان عمرو أول ولاة مصر من قبل الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتحها ، وقد دامت ولايته الأولى أربع سنوات إلى أن عزله الخليفة عثمان بن عفان عنها عام ٢٥هـ، وأحل مكانه فى ولايتها أخاه لأمه عبد الله بن سعد ، وقد قيل فى سبب عزل عمرو أن الخليفة عمر قد ولى عبد الله بن سعد على صعيد مصر ، وأن عمراً قدم على الخليفة عثمان بعد أن تولى الخلافة وسأله أن يعزل عبد الله بن سعد عن الصعيد ، فقال له عثمان : « ولاه عمر بن الخطاب الصعيد ، وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة ، وقد علمت أنه أخى من الرضاعة فكيف أعزله عما ولاه غيرى »[1]، فغضب عمرو من رفض الخليفة عثمان وقال : « لست راجعًا إلا على ذلك ، فكتب عثمان بن عفان إلى عبد الله بن سعد يؤمره على مصر كلها »[2].

مكث عبد الله بن سعد بن أبى السرح واليًا على مصر مدة خلافة عثمان كلها ، واتخذ من الفسطاط سكنا له ، ولما ولى مصر أحسن السيرة فى الرعية وكان جواداً كريماً ، وأمره عثمان أن يغزو إفريقية (تونس) فسار فى عشرة آلاف جندى وغزاها ، واجتمع أهلها على الطاعة والإسلام وحسن إسلامهم ، ثم غزاها ثانية عام ٣٤هـ حين نقض أهلها العهد حتى أقرهم على الإسلام والجزية[3]، وقد قام عبد الله بن سعد بن أبى السرح

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص١١٨ .

(٢) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص١١٨ .

(٣) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٤٨ .

بجهود كثيرة أثناء ولايته على مصر ، كان أهمها بناء أول أسطول حربى إسلامى فى مصر ، استطاع بواسطته أن يهزم أسطول البيزنطيين فى المعركة البحرية الشهيرة ذات الصوارى ٣٤هـ/ ٦٥٥م، والتى سميت بذلك لكثرة صوارى المراكب والسفن التى شاركت فيها فى عهد الإمبراطور قنسطنطين بن هرقل ، وكان عدد سفن المسلمين مائتى سفينة ، بينما كانت سفن الروم ألف سفينة(١)، ويقال أن سفن المسلمين على قلتها استطاعت أن تلتحم بالأسطول البيزنطى ، وبعد تلاحم بالسهام والحجارة أقتربت السفن بعضها من بعض ودارت بين الطرفين معركة حامية بالسيوف أضطر البيزنطيون بعدها إلى الفرار(٢).

وبفضل هذا الإنتصار فى معركة ذات الصوارى صارت السيطرة فى البحر المتوسط للعرب المسلمين ، وبدأ هذا البحر يتحول إلى بحيرة إسلامية وانتهاء السيادة البحرية البيزنطية ، لأن المسلمين استطاعوا بعد هذا النصر أن يستولوا على جميع الجزر المتناثرة فى حوض البحر المتوسط ، بل استطاعوا بعد ذلك أن يهاجموا القسطنطينية عاصمة البلاد ويحاصروها(٣).

ومن أهم أعمال ابن أبى السرح ـ أيضًا ـ غزو بلاد النوبة حتى بلغ دنقلة عاصمة مملكتها مقرة المسيحية عام ٣١هـ، وعقدا مع ـ على بابا ـ

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص١٢٩ ؛ صابر محمد دياب : تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، ص٣٥ .

(٢) حازت هذه المعركة إعجاب المحللين لتميز العرب فيها بأسلوب القتال المتطور ، فقد اقتربت السفن العربية من سفن البيزنطيين وشدتها بالسلاسل الحديدية . سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص٦٤ ؛ محمود عرفة محمود : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص٢٧ .

(٣) إبراهيم أحمد العدوى : مصر والشرق العربى درع الإسلام ، ص٥٢ .

ملك النوبة معاهدة عرفت بالبقط Pactum[1]، تعهدت فيها النوبة بتأمين حدود مصر الجنوبية وعدم القيام بمهاجمتها وأرسال عدد من أبناء النوبة سنوياً ضريبة لمصر تسلم عند بلدة القصر بالقرب من أسوان[2]، كذلك قام ابن أبى السرح بمحاربة قبائل البجة الوثنية المنتشرة فى الصحراء الشرقية، وفى وادى العلاقى ، وعقد معهم إتفاق مصالحة مثل إتفاق البقط الذى عقده مع ملك النوبة[3].

وفى سنة ٣٥هـ توجه ابن أبى السرح إلى المدينة المنورة عندما اشتعلت الفتنة ضد الخليفة عثمان ، وقام الثوار بحصاره فى داره ومنع الطعام عنه مستخلفاً مكانه على ولاية مصر عقبة بن عامر الجهنى ، فوثب محمد بن أبى حذيفة على مصر وخلع عقبة بن عامر عن الولاية وأخرجه من الفسطاط[4]، ودعا إلى خلع عثمان وحرض البلاد على الفتنة[5]، فاعتزله شيعة عثمان بمصر ونابذوه، وكان منهم معاوية بن حديج ، وخارجة بن حذافة ، وبسر بن أرطأة ، ومسلمة بن مخلد فى جمع كثير ، وبعثوا إلى عثمان بأمرهم وبصنيع ابن أبى حذافة ، فبعث إليهم سعد بن أبى وقاص ليصلح أمرهم ، فخرج إليه جماعة فقلبوا عليه خيمته وسبوه وأصابوه بجراح فعاد راجعاً .

وعندما عاد عبد الله بن سعد بن أبى السرح من المدينة إلى الفسطاط منعوه من دخولها فعاد إلى عسقلان ، وقتل عثمان بن عفان وابن أبى

---

(١) محمود عرفة محمود : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٤٩ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص١٢٩ .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، دار الفكر ١٩٧٩ ، جـ٥ ، ص١٤٨ .

(٥) الطبرى : المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص٢٢٦ .

السرح فى عسقلان ، وما لبث بعد ذلك أن قتل ابن أبى السرح فى فلسطين وقيل فى الرملة[1]، وقتل أيضًا محمد بن أبى حذيفة عام ٣٦هـ بفلسطين ، فلما بلغ الخبر الخليفة على بن أبى طالب ، وكان قد تولى الخلافة آنذاك ، جعل ولاية مصر لقيس بن سعد بن عبادة الأنصارى[2].

وصل قيس بن سعد لمصر فى مستهل شهر ربيع الأول من عام ٣٦هـ، فدخلها ومهد أمورها وكانت ولايته عليها مدة قصيرة لم تتجاوز الأربعة أشهر ، وكان سبب عزله أن كاد له كل من معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص عند الخليفة على بن أبى طالب ؛ باتهامه بالموالاة لقبيلة قيس من شيعته وحزبه[3]، فقد كانت قبيلة قيس معادية لعلى ، كذلك اتهموه بالتآمر مع هذه القبيلة ومكاتبتها سراً ضد الخليفة ، فكتب على لقيس ابن سعد يأمره بالقدوم إليه وعزله عن مصر وولى مكانه عليها الأشتر النخعى[4].

كان الأشتر النخعى (مالك بن الحارث) من الأبطال الأشداء المشهورين ، وكان من أصحاب على وكان معه يوم الجمل ، وقد تهيأ الأشتر للذهاب إلى مصر للقيام بأمر ولايتها ، فلما قدم القلزم (السويس) شرب شربة من عسل مسموم فمات قبل أن يصل إلى الفسطاط ، ولما بلغ خبره عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان ، قال عمرو بن العاص كلمته الشهيرة : « إن لله جنوداً من عسل »[5].

ولما علم على بن أبى طالب بموت الأشتر جعل ولاية مصر لمحمد بن

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، بيروت ٢٠٠٣ ، جـ٣ ، ص٥٤ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٥ ، ص٢٢٦ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٢٢٠ .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٥ ، ص٢٣٠ .

(٥) الطبرى : المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص٢٣٠ .

أبى بكر الصديق الذى دخل مصر فى منتصف شهر رمضان من عام ٣٧هـ.

أظهر محمد بن أبى بكر الخيلاء وأساء إلى شيعة عثمان ، وبعث إلى زعيمهم معاوية بن حديج يدعوه إلى بيعة على ، فلم يجبه إلى طلبه ، فهدم دورهم ونهب أموالهم وسجن ذراريهم فصمموا على حربه ، ولكن ابن أبى بكر رأى أن يتلافى ما قد يجره الاشتباك معهم فى حرب ، فصالحهم ثم سيرهم إلى معاوية فلحقوا به بالشام ، وظلوا هناك حتى انتهت موقعة صفين وعقد التحكيم(١).

ولم يكن معاوية بن أبى سفيان بالذى يفتر عن استخلاص مصر وانتزاعها من على ابن أبى طالب ، فقد بعث معاوية عمرو بن العاص فى جيوش أهل الشام إلى الفسطاط ، فحاربت قوات ابن أبى بكر وانتصرت عليه، فهرب ابن أبى بكر وآوى إلى إحدى الخرابات ، وجاء عمرو بن العاص ودخل الفسطاط ، وخرج معاوية بن حديج فى طلب محمد بن أبى بكر إلى أن عثر عليه وقام بقتله ووضع جثته فى جيفة حمار ميت وأحرقه بالنار فى شهر صفر من عام ٣٨هـ وكانت ولايته خمسة أشهر(٢).

وبذلك يكون قد تولى خمسة من الولاة حكم مصر فى عهد الراشدين ، بينما تولى ستة وعشرين واليًا حكم مصر بعد ذلك فى عهد الأمويين ، ويرجع ذلك إلى قصر فترة عصر الراشدين (٢١ ـ ٣٨هـ) من ناحية ، وتولى بعض الولاة فى عصر الأمويين ولاية مصر لأكثر من مرة من ناحية أخرى.

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٢٢١ ، عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٥٠ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٦ ، ص٦٣ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٣، ص٢٢٦ .

الفصل الرابع

ولاة مصر فى العصرين الأموى والعباسى

(٤٠ ـ ٢٥٤ هـ)



الفصل الرابع

ولاة مصر فى العصرين الأموى والعباسى ٤٠ ـ ٢٥٤ هـ)

(أ) ولاة مصر فى العصر الأموى :

كان أول ولاة مصر فى العصر الأموى هو عمرو بن العاص ، وهى ولايته الثانية من قبل معاوية بن أبى سفيان (٣٨ـ٤٣هـ) حيث ولاه معاوية مصر ولاية مطلقة ، وجعلها له طعمة بعد النفقة على جندها ، وما تحتاج إليه من ضروب الإصلاح وما تبقى يكون له ، وذلك أن عمراً كان قد صالح معاوية على قتال على بن أبى طالب بصفين ، على أن تكون مصر له طعمة ما بقى(١) .

وقد ظل عمرو بن العاص صاحب السلطان الأعلى فى البلاد طيلة ولايته ، وقام بإصلاحها وتمهيد أمورها بما عرف عنه من خبرة عميقة وسابقة بشئون البلاد ، فبعد دخوله مصر فى شهر ربيع الأول فى عام ٣٨هـ، وفد على معاوية بالشام واستخلف على مصر ابنه عبد الله بن عمرو ، وحضر أمر الحكمين ثم رجع إلى مصر على ولايته التى دام بها حتى وفاته(٢) .

وقد تعرض عمرو بن العاص أثناء ولايته على مصر لمحاولة قتل دبرها الخوارج لقتله وقتل كل من معاوية بن أبى سفيان وعلى بن أبى طالب ، فخرج عبد الرحمن بن ملجم لقتل على ، والبرك بن عبد الله لقتل

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ، ص٢٢٨ .

(٢) هكذا أصبحت مصر تابعة للخلافة الأموية منذ عام ٣٨هـ، بالرغم من أن عليا ظل خليفة حتى عام ٤٠هـ. سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص١٢٧ .

معاوية ، وعمرو بن بكر اللخمى لقتل عمرو بن العاص . فأما عبد الرحمن ابن ملجم فإنه وثب على عليّ بن أبى طالب وقتله ، وأما البرك بن عبد الله فوثب على معاوية وضربه فى فخذه فلم تؤثر فيه الضربة غير أنه جرح ، وأما عمرو بن بكر فإنه توجه إلى عمرو بن العاص فعرضت لعمرو فى تلك الليلة عله فى بطنه ، منعته من الخروج للصلاة ، فصلى بالناس رئيس شرطته خارجة بن حذافة ، فوثب عليه عمرو بن بكر يظنه عمراً وقتله ، فأخذ وأدخل على عمرو بن العاص فقال : « أما والله ما أردت غيرك ، فقال عمرو : ولكن الله أراد خارجة »[1]، ثم صارت كلمة عمرو بعد ذلك مثلاً (أردت عمراً وأراد الله خارجة) .

وقد عمل عمرو بن العاص على مد نفوذ الأمويين إلى بلاد المغرب ، واستكمل فتح ما بقى من بلدانه ، فعقد لشريك بن سمى على غزو عليغزو قبيلة لواته من البربر فغزاهم عام ٤٠هـ وصالحهم ، ولكنهم نقضوا الصلح بعد ذلك ، فأرسل لهم عام ٤١هـ، عقبة بن نافع الفهرى ، فغزاهم وهزمهم وأجبرهم على قبول الصلح ، وفى عام ٤٣هـ عقد عمرو ـ أيضًا ـ لشريك فغزا قبيلة لبدة ، ولعقبة فغزا قبيلة هوارة ببلاد المغرب[2]، وقدعادا بعد غزوهما ليجدا عمرو بن العاص مريضاً يغالب الموت .

توفى عمرو بن العاص فى ليلة عيد الفطر من عام ٤٣هـ فصلى عليه ابنه عبد الله ، ودفنه بسفح المقطم[3]. ثم صلى بالناس صلاة العيد ، وقد

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص١٢٤ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ، ص٢٥٩ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٢٢٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص١٢٣ ؛ ابن الأثير : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٢٨٢ .

(٣) دفن بالمقطم من ناحية الفج ، وكان طريق الناس يومئذ إلى الحجاز ، فاحب أن يدعو له من مر به . ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص١٢٤ .

قيل إن عمرو بن العاص عند وفاته كان قد بلغ من العمر ما بين تسعين ومائة عام[1].

تولى مصر بعد وفاة عمرو بن العاص ، عتبة بن أبى سفيان أخو معاوية بن أبى سفيان فى شوال عام ٤٣هـ ، ودخل مصر فى ذى القعدة من نفس العام وأقام بها شهراً ، ثم خرج وافداً على أخيه معاوية بدمشق ، مستخلفاً على مصر عبد الله بن قيس بن الحارث .

وكانت فى عبد الله بن قيس بن الحارثة شدة وغلظة فكرهه أهل مصر ، فبلغ ذلك عتبة فرجع إلى مصر وأقام العدل بها ، وتوفى عتبة بالإسكندرية فى نفس العام ودفن بها ، وكانت ولايته عام واحد[2] .

بعد وفاة عتبة بن أبى سفيان ، جعل معاوية ولاية مصر للصحابى الجليل الذى كان يقود بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأسفار[3] ، عقبة بن عامر الجهنى (٤٤ ـ ٤٦هـ) ، وكان عقبة قد شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وكان قارئاً عالماً بالفرائض والفقه وهو آخر من جمع القرآن ، وشهد الفتوح وصفين مع معاوية ، وقد جمع له معاوية إمرة مصر بين الخراج والصلاة ، ثم وفد مسلمة بن أم مخلد الأنصارى على معاوية ، فولاه مصر وأمره أن يكتم ذلك عن عقبة ، وجعل عقبة على رئاسة أسطول وأمره أن يسير به إلى جزيرة رودس ويفتحها ، وقدم مسلمة ولم يعلم عقبة

---

(١) ابن الجوزى : تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير ، مكتبة الآداب (د. ت) ص١٥٠ ؛ عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٥١ .

(٢) إبراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، ص٧٧ .

(٣) ابن الجوزى : المصدر نفسه ، ص٣٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ، ص٣١٣ .

بإمارته ، وخرج عقبة إلى الإسكندرية ، فلما توجه إليها استولى مسلمة على إمارة مصر فبلغ ذلك عقبة وعلم أنه خلع عن إمارة مصر وأنها صارت لمسلمة بن محمد وذلك فى ٢٠ من ربيع الأول عام ٤٧هـ، فكانت ولاية عقبة بذلك سنتين وثلاثة أشهر ، وقد توفى عقبة عام ٥٨هـ بمصر ودفن بها ، وقبره يجاور قبر عمرو بن العاص(١).

تولى بعد عقبة ولاية مصر مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصارى(٢)، من قبل معاوية ، وهو صاحبى جليل ، شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وجمع له معاوية الصلاة والخراج وبلاد المغرب .

ولما ولى مسلمة مصر انتظمت غزواته فى البر والبحر ، وفى أيامه نزلت الروم البرلس عام ٥٣هـ فاستشهد فى هذه المعركة وردان ، مولى عمرو بن العاص فى جمع من المسلمين ، وقد أمر مسلمة ببناء منارة لمسجد عمرو ، وهو أول من أحدث المنار بالمساجد والجوامع(٣).

خرج مسلمة إلى الإسكندرية فى عام ٦٠هـ واستخلف على مصر عابس بن سعيد ، فجاءه الخبر بموت الخليفة معاوية بن أبى سفيان فى شهر رجب ، وإستخلاف ابنه يزيد بن معاوية ، وقد كتب إليه يزيد وأقره على ولاية مصر بعد أن طلب منه أخذ البيعة له ، فكتب إلى عباس بن سعيد بذلك ، فطلب عباس ذلك من أهل مصر فبايعوا وبايع الناس ليزيد(٤).

وقد استمر مسلمة بن مخلد والياً على مصر حتى وفاته بها فى ٢٥ من

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٥٢ .
(٢) ابن الجوزى : تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير ، ص٢٥٤ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٩٣ .
(٤) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٥٣ .

رجب عام ٦٢هـ، وكانت ولايته عليها خمس عشرة سنة وأربعة أشهر[١]، وهى فترة طويلة إن دلت فإنما تدل على حسن سياسته فى مصر ورضا الخلافة عنه .

تولى ولاية مصر بعد وفاة مسلمة ، سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدى من قبل يزيد بن معاوية ، وقد دخلها فى مستهل شهر رمضان من عام ٦٢هـ، لكن ولايته لم تلق قبولاً من المصريين وظلوا على خلاف معه وإعراض عنه حتى توفى يزيد بن معاوية ودعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه ، فقام أهل مصر بدعوته وسار منهم جماعة كبيرة إليه ، فبعث عبد الله بن الزبير أميراً من قبله على مصر هو عبد الرحمن بن جحدم ، وعزل سعيد نفسه عن الإمارة ، فكانت ولايته حوالى عامين[٢].

ولى مصر عبد الرحمن بن جحدم من قبل عبد الله بن الزبير لما بويع له بالخلافة فى مكة وبايعه المصريون ، فدخل مصر فى شعبان عام ٦٤هـ، ودخل معه جماعة كثيرة من الخارجين على حكم الأمويين ، وأظهروا دعوة ابن الزبير فى مصر ودعوا الناس لمبايعته بالخلافة[٣]، ولما وصل الخبر من الشام ببيعة مروان بن الحكم بالخلافة وأن أمره قد تم ، صارت مصر معه فى الباطن وفى الظاهر لابن الزبير ، حتى جهز مروان ابن الحكم جيشاً مع ابنه عبد العزيز بن مروان إلى أيله[٤] ليدخل مصر من

---

(١) إبراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، ص٨٢ ، صابر محمد دياب : تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، ص٦٤ .

(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٥٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ، ص٤٧٧ .

(٤) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم (السويس) مما يلى الشام ، وقيل هى آخر الحجاز وأول الشام ، وقال أبو عبيدة أيلة مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ بحر القلزم ، تعد فى بلاد الشام . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ١ ، ص١٣٢ .

هناك ، ثم ركب مروان بن الحكم فى جيوشه وجموعه وقصد مصر[1]، فلما بلغ ابن جحدم ذلك استعد لحربه وحفر خندقًا عند القرافة خلال شهر ، وسار مروان حتى نزل عين شمس ، فخرج ابن جحدم واقتتلا لمدة يومين، ثم اتفقا بعد ذلك على الصلح مقابل أن يقر مروان بن الحكم ، عبد الرحمن ابن جحدم على ولاية مصر وأن تدخل مصر فى طاعة مروان .

ودخل مروان مصر فى أول جمادى الأولى عام ٦٥هـ، إلا إنه نقض عهده واتفاقه مع ابن جحدم وقام بعزله عن ولاية مصر وجعلها لابنه عبد العزيز بن مروان ، وقد كانت ولاية ابن جحدم على مصر تسعة أشهر وأيامًا[2].

توفى مروان بن الحكم فى أول شهر رمضان عام ٦٥هـ، بعد أن عهد بالخلافة من بعده إلى ابنه عبد الملك بن مروان ، ثم من بعده إلى ابنه عبد العزيز بن مروان أمير مصر[4].

ولما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة أقر أخاه عبد العزيز بن مروان على إمارة مصر ، فحكم عبد العزيز مصر وأحسن السياسة وأقام العدل مدة واحد وعشرين سنة . ولم تطل مدة ولاية والٍ بمصر فى الإسلام مثله ، وكان عبد العزيز قد تخوف من ولاية مصر قبل أن يتركها أبوه مروان بن الحكم فقال : « يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ فقال له أبوه مروان : يا بنى عمهم بإحسانك إحسانك يكونوا كلهم بنى

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ، ص٤٨٣ .

-(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٢٣٧ .

(٣) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٥٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ، ص١٣ .

أبيك، وأجعل وجهك طلقًا تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن لك عيناً على غيره وينقاد قومه إليك »[1] .

وعندما أقام عبد العزيز بمصر وقع بها الطاعون عام ٧٠هـ، فخرج من الفسطاط ونزل حلوان فأعجبته واتخذها سكناً وجعل بها الحرس والأعوان وبنى بها الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وغرس نخلها وكرمها ، حتى قيل إنه أنفق فى بنائها مليون دينار[2] .

وقد ظل عبد العزيز بن مروان واليًا على مصر حتى توفى فى ١٣ جمادى الأولى عام ٨٥هـ قبل أخيه عبد الملك بن مروان بسنة واحدة ، فى الطاعون الذى كان ـ أيضاً ـ فى هذه السنة بمصر[3] .

وكان عبد العزيز بن مروان هو الذى أشار على أخيه عبد الملك بضرب الدراهم والدنانير فضربها فى عام ٧٦هـ وعربها[4] .

وولى مصر بعد عبد العزيز بن مروان ، عبد الله بن الخليفة عبد الملك عام ٨٥هـ، وهو ابن سبع وعشرين سنة ، وما كاد يتولى الإمارة عدة أشهر حتى توفى أبوه الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٨٦هـ[5]، وتولى الخلافة بعده أخوه الوليد بن عبد الملك ، فأقره الوليد على إمرة مصر .

وقد أمر عبد الله بن عبد الملك أن تنسخ دواوين مصر كلها بالعربية ،

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٨٠ ، ص٤٧ ، سيدة إسماعيل كاشف : عبد العزيز بن مروان ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٥ ، ص٣٦ .

(٢) سيدة إسماعيل كاشف : المرجع نفسه ، ص١٨٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ، ص٢٣٤ .

(٤) ابن الأثير : المصدر نفسه ، جـ٤ ، ص١٦٧ .

(٥) ابن الأثير : المصدر نفسه ، جـ٤ ، ص٢٣٧ .

بعد أن كانت تكتب بالقبطية ، فجاء هذا العمل فى عهده وعهد الوليد بن عبد الملك تتمة لما بدأه الخليفة عبد الملك بن مروان فى سياسة التعريب[1] .

وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك وقع بمصر الجفاف وغلت الأسعار ، حتى قيل إن أهل مصر لم يروا فى عمرهم مثل تلك الأيام ، وقاسى أهل مصر الشدائد بسبب الغلاء ، فتشاءم الناس به ، هذا مع ما كان عليه من الشدة والجور وأخذه مال الخراج وأخذه الرشوة ، فلما شاع ذلك عنه طلبه أخوه الوليد من مصر ، فخرج عبد الله من مصر إليه بدمشق فى صفر عام ٨٨هـ، وأقام عند الوليد مدة يسيرة ثم عاد لمصر وعزله أخوه عن إمرتها عام ٩٠هـ، وولى مكانه قرة بن شريك[2]، فكانت ولاية عبد الله ابن عبد الملك على مصر ثلاث سنين وعشرة أشهر[3] .

تولى قرة بن شريك إمارة مصر للوليد بن عبد الملك بن مروان بعد عزل أخيه عبد الله عن إمارتها ، فدخلها فى يوم الاثنين من شهر ربيع الأول من عام ٩٠هـ[4] .

وكان قرة سيئ التدبير خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً[5]، إذ تذكر الروايات إن عمر بن عبد العزيز ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : الوليد بن عبد الملك ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٥ ، ص١٩٠ .

(٢) كان أكثر الخلفاء الأمويين يُقيلون العامل إذا اتضح لهم ظلمه ، أو اشتطاطه فى تقاضى الخراج والجزية والصدقات ؛ سيدة إسماعيل كاشف : الوليد بن عبد الملك ، ص٦٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ، ص٢٥٨ .

(٤) ابن الأثير : المصدر نفسه ، جـ٤ ، ص٢٥٨ .

(٥) سيدة إسماعيل كاشف : الوليد بن عبد الملك ، ص٩٠ .

أيام الوليد بن عبد الملك فقال : « الحجاج بالعراق ! والوليد بالشام ! وقرة بن شريك بمصر ! وعثمان بالمدينة ! وخالد بمكة ! اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجوراً ، فأرح الناس »[1]، فلم يمض غير قليل حتى توفى الحجاج وقرة بن شريك فى شهر واحد ، ثم تبعهم الوليد وخالد واستجاب الله لدعوة عمر .

وقد توفى قرة بن شريك وهو على إمارة مصر عام ٩٥هـ وكنت ولايته عليها ست سنوات إلا أياماً[2] .

وولى إمارة مصر عبد الملك بن رفاعة الفهمى بعد وفاة قرة بن شريك من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان فى شهر ربيع الآخر عام ٩٦هـ، فلم يكن بعد ولايته إلا أيام ومات الوليد وخلفه فى الخلافة أخوه سليمان بن عبد الملك ، وقد أقر الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ابن رفاعة على ولاية مصر فدام على ذلك وحسنت سيرته ، وكان عفيفًا عن الأموال متديناً عادلاً على الرعية ، ولما مات سليمان بن عبد الملك عام ٩٩هـ، وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أقر ابن رفاعة على عمله بمصر ثم عزله ، وأحل مكانه أيوب بن شرحبيل فى شهر ربيع الأول عام ٩٩هـ، وكانت ولاية ابن رفاعة على مصر ثلاث سنين[3] .

تولى أيوب بن شرحبيل إمارة مصر من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز فى شهر ربيع الأول عام ٩٩هـ[4]، وعند توليته الإمارة ورد كتاب

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ، ص٢٨٣ ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، مكتبة الثقافة الدينية (د. ت)، ص١٤٩ .

(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٥٦ .

(٣) عطية القوصى : المرجع نفسه ، ص٥٦ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤، جـ٣، ص٤٢٤ .

الخليفة بالزيادة فى أعطيات الناس عامة وتحريم الخمر ، وكسر آنيتها وتعطيل حاناتها ، وحسنت مصر فى أيامه فقد أخذ أيوب فى إصلاح الأمور بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبينما هو فى ذلك جاءه الخبر بموت الخليفة عمر بن عبد العزيز فى رجب عام ١٠١هـ[١]، وتولية يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة ، وقد أقر يزيد أيوب بن شرحبيل على إمارة مصر، لكن حياة أيوب لم تطل بعد ذلك ، إذ توفى فى ١٧ رمضان من نفس العام الذى توفى فيه الخليفة عمرو بن عبد العزيز ، فكانت ولايته على مصر سنتين وستة أشهر[٢].

ثم ولى إمارة مصر بشر بن صفوان بن حنظلة الكلبى من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك ، فقدم إليها فى ١٧ رمضان عام ١٠١هـ، وفى أيامه نزل الروم تنيس[٣] ، ثم ولاه الخليفة يزيد على إفريقية (تونس) فخرج إليها فى شوال عام ١٠٢هـ، مستخلفًا أخاه حنظلة بن صفوان ، فأقره يزيد بن عبد الملك على إمرة مصر بدل أخيه برغبة من أخيه ، وخرج حنظلة إلى الإسكندرية عام ١٠٣هـ، واستخلف على مصر عقبة بن مسلمة التجيبى ، وتوفى الخليفة يزيد بن عبد الملك وبويع أخوه هشام بن عبد الملك بالخلافة من بعده ، فقام هشام بصرف حنظلة عن إمارة مصر فى شوال عام ١٠٥هـ، فكانت ولايته ثلاث سنين[٤].

ثم قام هشام بتولية إمرة مصر لأخيه محمد بن عبد الملك بن مروان ، فدخلها يوم الأحد ١١ شوال عام١٠٥[٥]، وحين وصوله إليها وقع بها وباء

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، بيروت (د. ت) ص١٣٠ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص٤٢٤ .
(٣) تنيس : كانت جزيرة فى بحر مصر قريبة من البر ، ما بين الفرما ودمياط .
ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٤٥٩ .
(٤) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٥٧ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص٤٢٤ .

شديد فهرب محمد من الوباء إلى الصعيد ، فلم تطل مدته بالصعيد وعاد بعد أيام إلى مصر ، ثم خرج منها مسرعًا إلى الأردن ، وطلب من أخيه إعفائه من إمارة مصر فصرفه عنها بالحر بن يوسف فكانت إمارته شهراً واحداً[1] .

تولى إمارة مصر الحر بن يوسف بن الحكم بن أبى العاص من قبل هشام بن عبد الملك ، وكان المتولى على خراج مصر فى ذلك الوقت عبيد الله بن الحبحاب ، فدخل الحر مصر فى الثالث من ذى الحجة عام ١٠٥هـ وباشر أمورها .

وفى إمرة الحر بن يوسف حدثت أول ثورة للقبط ضد الحكم الإسلامى فى مصر عام ١٠٧هـ، ووقع له معهم أمور طويلة ، ثم خرج إلى دمياط وأقام بها ثلاثة أشهر ، ثم عاد إلى مصر وأقام بها أيامًا ، ثم خرج منها وافداً على الخليفة هشام بالشام مستخلفًا مكانه حفص بن الوليد على الصلاة، فأقام عند الخليفة مدة يسيرة وعاد إلى مصر بعد أن انحسرت مياه الفيضان عن الأرض ، فقام بإصلاحها وتدبير أمورها ودام بها إلى ذى القعدة عام ١٠٨، ثم صرف عن إمارة مصر فى هذا الشهر باستعفائه لمغاضبة وقعت بينه وبين متولى الخراج عبيد الله بن الحبحاب[2]، فكانت ولاية الحر بن يوسف على مصر ثلاث سنوات والبعض يذكر أربع سنوات وستة أشهر[3].

وتولى بعد الحر بن يوسف حفص بن الوليد الذى كان الحر قد استخلفه على الصلاة عندما وفد على الخليفة هشام ، والذى أقره الخليفة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص٤٢٤ .

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٨٦ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص٤٢٤ .

ـ أيضًا ـ على الصلاة مكرها على ذلك ، ولكن ولايته في هذه المرة لم تزد عن أسبوعين فعزل بشكوى من ابن الحبحاب يوم عيد الأضحى عام ١٠٨هـ، فتولى إمارة مصر عبد الملك بن رفاعة للمرة الثانية ، وكان بالشام وقدم منها مريضًا في ١٨ من المحرم عام ١٠٩ ، وكان أخوه الوليد ابن رفاعة ينوب عنه ، ولكن ما لبث أن توفي عبد الملك بعد أسبوعين من قدومه إلى مصر ، فخلفه في إمارتها بعهد من الخليفة هشام أخوه الوليد بن رفاعة(١).

وقد استمر الوليد بن رفاعة على إمرة مصر وطالت أيامه ، ووقع له بها أمور ووقعت في أيامه أحداث ، ففي أيامه نقلت قبائل قيسية إلى مصر ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك ، كذلك خرج عبيد الله بن الحبحاب متولي الخراج من مصر بأمر الخليفة هشام واستعمل على إفريقية(٢).

وقد مرض الوليد بن رفاعة ولزم الفراش حتى مات يوم الثلاثاء أول جمادى الآخرة من عام ١١٧هـ، وكانت إمرته على مصر تسع سنين وخمسة أشهر(٣).

تولى إمارة مصر بعد الوليد بن رفاعة ، عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ، وكان الوليد قد استخلفه قبل موته على صلاة مصر ، وكان قبل ذلك ـ أيضًا ـ قد ولي شرطتها عدة سنين .

وفي ولايته على مصر نزلت الروم بنواحي مصر وأسروا منها عدداً

---

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٨٦ .
(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٤ ، ص٤١٦ .
(٣) المقريزي : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٨٦ .

كبيراً ، فلما بلغ ذلك هشام عزله عن إمرة مصر وأعاد حنظلة بن صفوان ثانيًا على مصر عام ١١٨هـ، وكانت ولاية ابن مسافر على مصر سبعة أشهر[١]، تولى حنظلة بن صفوان إمرة مصر ودام بها إلى عام ١٢١هـ، وفى هذه الولاية الثانية ثار ضده أقباط مصر فحاربهم وهزمهم ، واستمر فى ولايته حتى عزله عنها الخليفة هشام وولاه إفريقية فى ٧ ربيع الآخر عام ١٢٤هـ، فكانت ولايته الثانية على مصر خمس سنين وثلاثة أشهر[٢] .

وتولى إمارة مصر بعد حنظلة بن صفوان ، حفص بن الوليد للمرة الثانية فى ١٣ شعبان عام ١٢٤هـ لمدة ثلاث سنوات توفى خلالها الخليفة هشام بن عبد الملك ، وخلفه فى الخلافة الوليد بن يزيد فى شهر ربيع الآخر عام ١٢٥هـ[٣]، ثم قتل الوليد وخلفه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فى الخلافة ، ثم توفى يزيد فى عام ١٢٦هـ، وبويع لإبراهيم بن الوليد الذى خلعه مروان بن محمد وصارت له الخلافة ، وهو آخر الخلفاء فى عصر بنى أمية ، وكان حفص قد كتب للخليفة مروان بن محمد ليعفيه عن إمارة مصر فأعفاه وولى مكانه عليها حسان بن عتاهية .

تولى إمرة مصر حسان بن عتاهية التجيبى لمدة ستة عشر يوماً، بعد أن ثار عليه الجند وحاصروه فى داره وعزلوه ، بعد أن أسقط بعض الفروض التى كان حفص قد فرضها للجند[٤]، ثم تولى إمرة مصر حفص ابن الوليد للمرة الثالثة واستمر فى إمارته شهرى رجب وشعبان ، وقدم

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٨٦ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٨٧ .

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٥ ، ص٢٨٨ .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٨٧ .

عليه حنظلة بن صفوان من إفريقية (تونس) وقد أخرجه أهلها منها فنزل بالجيزة وظل هنالك إلى أن جاء خطاب الخليفة مروان بن محمد بولايته على مصر ، فاعترض أهل مصر على ولايته ومنعوه من دخول مصر والمقام بالفسطاط وحاربوه وهزموه ، واستمر حفص فى الإمارة بقية عام ١٢٧هـ، إلى أن عزله الخليفة عام ١٢٨هـ، وولى مكانه الحوثره بن سهيل الباهلى ، فسار إليها فى آلاف وقام بمحاربة حفص وقتله فى الثانى من شهر شوال عام ١٢٨هـ، وكان عندما وصل الحوثرة مصر قد أجمع جندها وأهلها على منعه الدخول إلا إنه دخلها رغماً عنهم ، وبعث فى طلب رؤساء مصر فجمعوا له فضرب أعناقهم ، ثم قتل حفص بن الوليد كما ذكرنا ، وقد أخذ الحوثرة فى تمهيد أمور مصر حتى عام ١٣١هـ حين عزله الخليفة مروان بن محمد عن إمرة مصر وبعثه إلى العراق لقتال الخراسانية دعاة بنى العباس فقتل هناك ، وكانت ولايته على مصر ثلاث سنين وستة أشهر(١).

تولى الإمارة بعد الحوثرة ، المغيرة بن عبد الله من قبل مروان بن محمد ، فقدم إلى مصر فى ١٦ رجب عام ١٣١هـ، ولم تطل مدة إمارته إذ توفى فى ١٢ جمادى الأولى ١٣٢هـ، فكانت إمارته عشرة أشهر(٢)، وقد استخلف المغيرة ابنه الوليد لكن الخليفة مروان بن محمد لم يقره على ذلك وولى مصر عبد الملك بن مروان بن موسى اللخمى ، وكان عبد الملك قد ولى خراج مصر قبل أن يلى إمرتها ، وفى عهده ثار القبط واجتمعوا على قتاله فحاربهم وقتل منهم أعداداً كبيرة ، ثم قدم عليه الخليفة مروان بن محمد من الشام ، بعد أن انهزم فى معركة الزاب ، ولما دخل مروان مصر

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٨٨ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص٤٢٥ .

وجد أهل الحوف الشرقى من بلاد مصر وأهل الإسكندرية والصعيد قد لبسوا السواد (شعار العباسيين) وصاروا من أعوان بنى العباس ، وقدم القائد العباسى صالح بن على فى طلب مروان بن محمد ، فهرب إلى بوصير بالجيزة ومعه الوالى عبد الملك وأمرائه وأقاربه من بنى أمية ، فلحق به صالح بن على وقاتله وهزم قواته وقتله يوم الجمعة السابع من ذى الحجة ١٣٢هـ، ثم عاد صالح بن على ودخل الفسطاط يوم الأحد الثامن المحرم عام ١٣٣هـ، وبعث برأس مروان بن محمد إلى العراق وزالت دولة بنى أمية[١] .

(ب) ولاة مصر فى العصر العباسى : ـ

كان صالح بن على بن عبد الله العباسى ، أول من ولى إمارة مصر من قبل ابن أخيه الخليفة عبد الله السفاح بعد قتل مروان بن محمد ، ولما وليها بعث ببيعة أهل مصر للسفاح ، ثم أخذ فى إصلاح أمر مصر وقام بالقبض على جمع كبير من المصريين الموالين لبنى أمية ، ومنهم عبد الملك بن مروان بن موسى اللخمى أمير مصر السابق وأخيه ، وقتل كثيراً من شيعة بنى أمية وحمل طائفة منهم إلى العراق ليقتلوا .

ولم تطل مدة ولاية صالح بن على الأولى على مصر إذ ورد عليه كتاب السفاح بإمارته على فلسطين والإستخلاف على مصر ، فاستخلف على مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد من أهل جرجان وخرج منها فى شعبان عام١٣٣هـ، فكانت ولايته فى هذه المرة سبعة أشهر[٢]، وخلفه فى

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٨٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص٤٢٥ .

إمارة مصر أبو عون بن يزيد فى أول شعبان عام ١٣٣هـ، واستمر بمصر إلى أن وقع الوباء بها فخرج منها ، ثم عاد بعد الوباء وأقام بها إلى أن خرج منها ثانياً إلى دمياط عام ١٣٥هـ، وفى هذه السنة ثار القبط فى بلدة سمنود فبعث إليهم أبو عون جيشاً فحاربهم وقاتلهم[١] .

بنــاء العسكــر : ــ

ظلت الفسطاط بعد نموها السريع العاصمة الوحيدة لمصر الإسلامية ومقر قضاتها وجنودها مدة مائة وثلاثة عشر عامًا وسبعة أشهر ، حتى بنيت العاصمة الجديدة العسكر ، وأصبحت كضاحية عسكرية للفسطاط ينزل بها الولاة من قبل الخلفاء العباسيين .

فكما انتقلت الخلافة العباسية من دمشق إلى بغداد فاتخذتها حاضرة لها ، كذلك كره ولاة العباسيين فى مصر أن ينزلوا بالعاصمة القديمة الفسطاط ، وقد يكون ذلك لأن الحريق الذى أشعله صالح بن على بالفسطاط أثناء مطاردته لمروان بن محمد ، قد ضرب دار الإمارة بالفسطاط وشطراً كبيراً من المدينة ، أو لأن الفسطاط قد ضاقت بعساكر العباسيين ، أو لأن الدولة الجديدة أرادت أن تتخذ لها عاصمة جديدة[٢]، أياً كانت الأسباب ، فقد قام القائدان العباسيان صالح بن على وأبو عون بن يزيد فى بناء المدينة الجديدة ، حيث نزلا بعساكرهما فى الشمال الشرقى للفسطاط ، ولذلك سميت المدينة بالعسكر أو (المعسكر)، وكان هذا المكان

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٦٠ ؛ مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، ص٩٦ .

(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٤٢ .

يعرف عند تأسيس الفسطاط باسم الحمراء القصوى[1]، وكانت قد نزلت به ثلاث قبائل من العرب هم : بنو يشكر بن جزيلة من لخم ، وبنو الأزرق وهم من الروم ، وبنو روبيل (وكان يهودياً فأسلم)[2].

وعن سبب تسمية الحمراء القصوى يذكر القلقشندى : « سميت هذه المنطقة بالحمراء بسبب نزول الروم بها وهم حُمر الألوان »[3]. وكانت هذه الخطط قد اندثرت بمرور الزمن حتى صارت صحراء، وفيها نزل صالح ابن على بجنوده حتى ملأوا الفضاء . فأمر أبو عون بن يزيد والى مصر بالبناء فيها فبنوا وبنى هو دار الإمارة ومسجداً عرف بجامع العسكر ، وسمى من يومئذ ذلك الفضاء باسم العسكر ، وصار منزلاً لأمراء مصر بعد أبى عون ، فسكنه خمسة وستون واليًا حكموا مصر نيابة عن خلفاء بنى العباس لمدة ١١٨ سنة[4] .

وقد صارت العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة[5]، وزادت العمائر بها إلى أن ولى أحمد بن طولون مصر وقدم إليها من العراق ونزل بدار الإمارة بالعسكر على عادة الأمراء ، فما زال ابن طولون بها إلى أن بنى القصر والميدان بالقطائع وتحول إليها[6].

ودام ابن طولون بالقطائع إلى أن مات وتولى ابنه خمارويه ، فجعل

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٨٩ .
(٢) ابن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ، القسم الأول ، ص٣٤ .
(٣) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص٣٣٣ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية ١٩٦٩ ، جـ١ ، ص٣٢٦ ؛ عبد الرحمن زكى : الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع، ص٨٤.
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ١ ، ص٣٢٧ .
(٦) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٤٣ ؛ عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٦١ .

دار الإمارة بالعسكر ديواناً للخراج ، فما زالت دولة بنى طولون ثم تولى محمد بن سليمان الكاتب فسكن بدار فى العسكر ، فما زالت الأمراء بعد ذلك تنزل بالعسكر إلى أن قدم جوهر الصقلى من المغرب إلى مصر وبنى القاهرة المعزية عام ٣٥٨هـ[١].

وقد تولى من ولاة العباسيين بعد أبى عون صالح بن على العباسى للمرة الثانية ، فبعد أن حارب أبى عون القبط بسمنود ، ورد عليه كتاب الخليفة أبى العباس عبد الله السفاح بالعزل عن ولاية مصر وتوليتها لصالح ابن على ، فكانت مدة أبى عون فى هذه المرة الأولى ثلاث سنوات إلا أربعة أشهر .

وقد ولى صالح بن على أبا عون قيادة جيش المغرب ووجهه نحو إفريقية ، ثم ما لبث أن جاء الخبر بوفاة السفاح وخلافة أبى جعفر المنصور، فأقر أبو جعفر عمه صالح بن على ، على ولاية مصر فكتب إلى أبى عون بالرجوع من غزو إفريقية ، فأقام أبو عون ببرقة أحد عشر شهراً ، ثم عاد إلى مصر بجيشه ، فجهزه صالح إلى فلسطين لحرب الخوارج بها ، فسار أبو عون وحاربهم وهزمهم وقتل منهم أعداداً كبيرة ، ثم خرج صالح بعد ذلك من مصر إلى فلسطين واستخلف ابنه الفضل مكانه فسافر حتى بلغ بلبيس ، ثم رجع إلى مصر وأقام بها إلى أن خرج منها ثانية فى الرابع من رمضان عام ١٣٧هـ[٢]، فلقى أبا عون فكلفه بإمارة مصر وخراجها معًا ومضى إلى فلسطين .

ودخل أبو عون الفسطاط فى ٢٦ رمضان عام ١٣٧هـ، وسكن

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٩١ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٩٢ .

العسكر ودام على إمرة مصر ، واستمر صالح بفلسطين إلى أن أمره المنصور بالتوجه لغزو الروم عام ١٣٧هـ ، فحاربهم عند مرج دابق وانتصر عليهم ، وفى عام ١٤١هـ قام بغزو الروم فى صائفة ذلك العام ومات بقنسرين ، وقد استمر أبو عون والياً على مصر فى ولايته الثانية حتى شهر ربيع الأول عام ١٤١هـ ، حين عزله المنصور وولى عليها موسى بن كعب ، فكانت ولايته على مصر ثلاث سنوات ونصف(١) .

تولى إمارة مصر بعد أبى عون ، موسى بن كعب بن عيينة لمدة سبعة أشهر ، ثم عزله المنصور وولى مكانه إمرة مصر وخراجها لمحمد بن الأشعث ، فقدمها يوم الاثنين ٥ ذى الحجة عام ١٤١هـ ، واستمر فى الإمارة لمدة سنتين إلى أن عزله المنصور فى أوائل عام ١٤٣هـ ، وولى مكانه حميد بن قحطبة ، الذى وصل إلى مصر فى ٥ من رمضان عام ١٤٣هـ ، ولم تدم إمارته سوى عام واحد وشهرين ، إذ عزله المنصور وأحل مكانه يزيد بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ، فقدم يزيد فى النصف من ذى القعدة ، وقد دامت إمارة يزيد بن قبيصة على مصر لمدة سبع سنوات ونصف ، وخلفه فى الإمارة عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج من قبل المنصور لمدة سنتين وشهرين ، ثم خلفه من بعده أخوه محمد بن عبد الرحمن لمدة ثمانية أشهر وتوفى بعدها ، وكان قد استخلف موسى بن على بن رباح الذى أقره المنصور على الولاية(١) .

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٩٢ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٩٢ .

وفى عهد ولاية موسى بن على بن رباح ثار القبط بمنطقة بهبيب[١] عام ١٥٦هـ فأرسل قواته إليهم وقام بهزيمتهم ، وفى أيامه توفى أبو جعفر المنصور يوم ٦ من ذى الحجة عام ١٥٨هـ، وبويع بالخلافة لابنه محمد المهدى الذى أقر موسى على إمارته فى مصر حتى ١٧ ذى الحجة عام ١٦١هـ، فكانت ولايته عليها ست سنين وشهرين[٢].

وقد ولى الخليفة المهدى إمارة مصر من بعده لعيسى بن لقمان الجمحى لمدة أربعة أشهر فقط ، ثم ولاها لمنصور بن يزيد الرعينى ، ابن خال الخليفة المهدى لمدة شهرين ، ثم صرف عنها فى منتصف ذى الحجة من نفس العام ، ثم قام المهدى بتولية مصر ليحيى بن داود من أهل خراسان ، وكان من أشد الناس وأعظمهم هيبة وأقدمهم على الدم ، فكان شديداً على الناس مكثراً للعقوبة ، وقد استمرت ولايته إلى المحرم من عام ١٦٥هـ، إلى أن صرف عنها وولى مكانه إبراهيم بن صالح بن على العباسى من قبل المهدى لمدة ثلاث سنين ، ثم عزله المهدى آخر عام ١٦٧هـ[٣].

ثم ولى إمرة مصر موسى بن مصعب عام ١٦٧هـ، لمدة عشرة أشهر، وقد ثار عليه أهل مصر لظلمه وقسوته وارتشائه فى الأحكام ، فقتلوه فى الثامن من شوال عام ١٦٨هـ، ثم ولى بعده عسامة بن عمرو لمدة ثلاثة أشهر ، ثم خلفه الفضل بن صالح فى أول المحرم عام ١٦٩هـ لمدة عام ،

---

(١) بهبيب : هى من القرى القديمة من أعمال الجيزية ، وتتبع مركز العياط . محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الثانى ، جـ٣ ، ص٤٢ .
(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٩٣ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٩٤ .

ثم خلفه على بن سليمان حتى وفاته عام ١٧٢هـ، ثم خلفه مسلمة بن يحيى لمدة عام ، ثم محمد بن زهير لمدة خمسة أشهر ، ثم داود بن يزيد لمدة عام ، ثم موسى بن عيسى لمدة عام ، ثم إبراهيم بن صالح للمرة الثانية لمدة عام حتى وفاته عام ١٧٦هـ[١].

ثم ولى مصر عبد الله بن المسيب من قبل الرشيد لمدة ثمانية أشهر ثم صرف عنها فى رجب عام ١٧٧هـ، ثم وليها إسحاق بن سليمان بن على الذى اشتد على المزارعين وزاد فى خراجهم مما أدى إلى ثورة أهل الحوف عليه فقام بمقاتلتهم وقتل منهم عدداً كثيراً ، فصرفه الرشيد عن ولاية مصر بسبب ذلك عام ١٧٨هـ، وولى مكانه هرثمة بن أعين لمدة شهرين ونصف ، ثم أحل مكانه عبد الملك بن صالح لمدة تسعة أشهر ، ثم صرفه عنها وأعاد موسى بن عيسى للمرة الثالثة حتى عام ١٨٠هـ[٢].

ونلاحظ أنه فى خلافة الرشيد تولى إمارة مصر عدة أمراء لمدة قصيرة لم تقع بها أحداث تذكر ، وتكرر الأمر فى عهد ابنه الأمين إلى أن تولى السرى ابن الحكم وأبناؤه إمارة مصر فى خلافة المأمون .

تولى إمرة مصر من قبل المأمون ، عبد الله بن طاهر بن الحسين ، ثم عيسى بن يزيد الجلودى وسكن العسكر على عادة الأمراء ، ودام عيسى الجلودى على إمرة مصر حتى ١٧ من ذى القعدة عام ٢١٣هـ، وصرف المأمون عبد الله بن طاهر عن إمرة مصر وولاها لأخيه المعتصم محمد بن هارون الرشيد ، فلما ولى المعتصم أقر عيسى الجلودى على الصلاة فقط

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٩٦ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٩٦ .

وجعل خراج مصر لصالح بن شيرزاد ، فلما ولى صالح بن شيرزاد الخراج ظلم الناس وزاد عليهم فى خراجهم وتعسف ؛ فثار عليه أهل الحوف وعزموا على قتاله فحاربوه فانهزم وقتل أصحابه وقتل هو أيضاً فى صفر من عام ٢١٤هـ، فعظم الأمر على المعتصم وقام بعزل عيسى عن إمرة مصر وولى مكانه عمير بن الوليد التميمى[١].

تولى عمير بن الوليد التميمى إمارة مصر وخرج معه عيسى الجلودى فى ١٧ من صفر لقتال أهل الحوف ، فدخل معهم فى معارك إنتهت بقتل عمير ، فكانت مدة إمارته على مصر شهرين فقط ، وتولى عيسى الجلودى إمارة مصر للمرة الثالثة فواصل محاربة أهل الحوف حتى انهزم ، فأقبل المعتصم بنفسه إلى مصر على رأس جيش يتكون من أربعة آلاف وقاتل أهل الحوف فى شعبان ودخل الفسطاط فى ٢٢ من شعبان، وقتل أكابر الحوف ثم خرج إلى الشام بعد أن ولى على مصر عبدويه بن جبلة فخرج الناس بالحوف عليه فحاربهم حتى ظفر بهم ، ثم قدم الأفشين (حيدر بن كاوس الأشروسنى) إلى مصر فى الثالث من ذى الحجة فصرف عبدويه عن إمارة مصر وأحل محله عيسى بن منصور الرافعى أوائل عام ٢١٦هـ، فقام أهل الدلتا عربها وقبطها بالثورة فى جمادى الأولى وأخرجوا العمال لسوء سيرتهم وتدبيرهم وخلعوا الطاعة ، فقدم الأفشين من برقة ثم خرج هو وعيسى وحاربا القوم وأسرا منهم وقتلا ، ومضى الأفشين ورجع عيسى فسار الأفشين إلى الحوف وقتل جماعتهم ووقعت عدة معارك بينهما إلى أن قدم المأمون بنفسه إلى مصر فى العاشر من المحرم عام ٢١٧هـ[٢].

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص١٠٠ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠٠ .

سخط المأمون على عيسى وقام بعزله من ولاية مصر ، ثم سار عسكره لمقاتلة أهل الغربية بالدلتا والحوف وأوقعوا بهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، ثم ارتحل الخليفة المأمون عن مصر في ١٨ صفر بعد إقامته بها مدة خمسين يومًا وولى على إمرة مصر كيدر (نصر بن عبد الله الصفدى)[١] .

تولى كيدر إمارة مصر ودام بها إلى أن ورد عليه كتاب المأمون فى جمادى الآخرة عام ٢١٧هـ، بإمتحان الناس فى مسألة خلق القرآن ، وقام كيدر بإمتحان القضاة وأهل الحديث وغيرهم ، وأثناء ذلك ورد الخبر بموت المأمون فى شهر رجب ومبايعة المعتصم بالخلافة ، وقد أمر المعتصم كيدر بإسقاط العرب من الديوان وقطع العطاء ففعل ، فخرج يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام عن الطاعة فتجهز كيدر لحربهم ، لكن الأجل وافاه فتوفى فى شهر ربيع الآخر عام ٢١٩هـ، واستخلف ابنه المظفر بعده على ولاية مصر[٢].

أقر المعتصم المظفر بن كيدر على إمارة مصر ، فسكن العسكر ثم خرج عليه الجروى ووقعت بينهما معركة كبيرة انتهت بانتصار المظفر فى جمادى الآخرة عام ٢١٩هـ، لكن ولاية المظفر على مصر لم تدم لأكثر من أربعة أشهر ، وذلك لأن المعتصم جعل إمارة مصر لقائده أبى جعفر أشناس التركى فقام أشناس بصرف المظفر عن إمارتها فى شهر شعبان من نفس العام[٣].

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص١٠٠ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠٠ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠٠ .

وقد أناب أشناس (على عادة القادة الترك) عنه موسى بن أبى العباس ثابت فى إمارة مصر فى مستهل شهر رمضان عام ٢١٩هـ، فاستمرت نيابته على مصر أربع سنين وسبعة أشهر ، حارب خلالها أهل الحوف وقام بإمتحان الناس فى مسألة خلق القرآن وقتل بسبب ذلك أعداداً كبيرة من علماء مصر وفقهائها وأجبرهم على القول بخلق القرآن[1].

وتولى إمرة مصر بعد عزل موسى ، مالك بن كيدر من قبل القائد التركى أشناس ، فقدم إليها فى ٢٣ من ربيع الآخر عام ٢٢٤هـ وسكن العسكر ، وساس الناس إلى أن صرف عن الإمارة فى الثالث من ربيع الآخر عام ٢٢٦هـ، فكانت إمارته سنتين وأحد عشر يومًا ، وتوفى فى العاشر من شعبان عام ٢٣٣هـ[2].

تولى الإمارة بعد مالك بن كيدر ، على بن يحيى الأرمنى لمدة سنتين وثمانية أشهر ، توفى خلالها الخليفة المعتصم وخلفه أخوه الواثق الذى أقر على بن يحيى على إمارته ثم عزله بعد ذلك وولى الإمارة لعيسى بن منصور للمرة الثالثة من قبل أشناس فى السابع من المحرم عام ٢٢٩هـ.

ثم توفى أشناس عام ٢٣٠هـ وحل مكانه قائد آخر تركى يدعى إيتاخ ، الذى أقر إمارة عيسى ، وبعد وفاة الخليفة الواثق ومبايعة المتوكل بالخلافة ، قام المتوكل بصرف عيسى عن إمارة مصر فى منتصف ربيع الأول عام ٢٣٣هـ[3].

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٦٥ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص١٠١ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠١ .

ثم تولى إمر مصر هرثمة بن نصر الجبلى لمدة عام وتوفى ، فخلفه ابنه حاتم بن هرثمة فى ٢٣ من رجب عام ٢٣٤هـ، إلا أن إيتاخ صرفه عن إمرة مصر وأحل مكانه على بن يحيى للمرة الثانية على مصر بعد شهر ونصف فقط من إمارته ، واستمر على فى إمارته إلى أن قبض الخليفة المتوكل على إيتاخ فى المحرم من عام ٢٣٥هـ، وقام بتصفية أمواله بمصر[١].

ثم قام المتوكل بتولية أبنه وولى عهده محمد المنتصر إمارة مصر ، فدعى للمنتصر من على منابرها ، ولما ولى المنتصر إمرة مصر أقر على بن يحيى على عمل مصر ، ثم عزله عنها وأحل مكانه إسحاق بن يحيى بن معاذ فى ذى الحجة عام ٢٣٥هـ، فكانت ولاية على بن يحيى الثانية سنة واحدة وثلاثة أشهر ، ولم تزد إمارة إسحاق عن عامين ، إذ قام المنتصر بعزله منها فى أول ربيع الأول ام ٢٣٧هـ، وولى مكانه عبد الواحد ابن يحيى إلى أن عزله المنتصر فى ٧ من شهر صفر فى نفس العام[٢].

وتولى بعد عبد الواحد بن يحيى ، عنبسة بن إسحاق الضبى ، وهو من أهل هراة [٣]، ولاة المنتصر مصر فقدمها فى مستهل ربيع الأول عام ٢٣٨هـ، وسكن العسكر على عادة الأمراء ، وأمر العمال برد المظالم وتخليص الحقوق وإنصاف الناس ، وأظهر الرفق والعدل والإحسان إلى

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص١٠١ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠١ .

(٣) هراة : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٨ ، ص٤٧١ .

الرعية ، وكان يتوجه ماشيًا إلى المسجد الجامع من مسكنه بالعسكر بدار الإمارة ، وكان ينادى فى شهر رمضان السحور[1] .

وفى ولاية عنبسة بن إسحاق نزل الروم على دمياط يوم عرفة واستولوا عليها وأخذوا ما فيها بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من المسلمين وسبوا النساء والأطفال ، فلما بلغه ذلك خرج من وقته بجيوش مصر يوم النحر عام ٢٣٨هـ ، فوجد الروم قد هربوا وأخلوا المدينة ، فقام بإصلاح شأنها وعاد إلى مصر[2] .

وعنبسة هو آخر من ولى مصر من العرب وآخر من صلى بالناس فى المسجد الجامع ، وقد صرف عن إمارة مصر بعد ولاية دامت أربع سنين وأربعة أشهر وخرج إلى العراق عام ٢٤٤هـ[3] .

وتولى إمارة مصر بعد عنبسة ، يزيد بن عبد الله بن دينار ، وكان من الموالى فى شهر رجب عام ٢٤٢هـ ، من قبل المنتصر ، وقد توجه يزيد لمحاربة الروم لما نزلوا دمياط ، لكنه لم يلحق بهم ، وفى أيامه عام ٢٤٧هـ بنى مقياس النيل بجزيرة الروضة ، وجرت فى ولايته على العلويين شدائد كثيرة ، وتوفى المتوكل فى شوال وبويع بالخلافة لابنه محمد المنتصر[4] .

أقر المنتصر يزيد على إمارة مصر ، ثم مات المنتصر فى ربيع الأول عام ٢٤٨هـ ، وبويع للمستعين بالخلافة الذى خلع فى المحرم من عام ٢٥٣هـ ، وبويع المعتز بالخلافة ، فخرج جابر بن الوليد على الدولة

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص١٠٢ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠٢ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠٢ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠٢ .

بالإسكندرية ، ووقعت هنالك حروب جاء بسببها القائد مزاحم بن خاقان من العراق لمعاونة يزيد بن دينار فى جيش كبير فحاربهم حتى هزمهم ، ثم قام مزاحم بن خاقان بصرف يزيد عن إمارة مصر بعد أن وليها لمدة عشر سنين وسبعة أشهر وعشرة أيام[١] .

قام المعتز بتولية إمارة مصر لمزاحم بن خاقان التركى ، أخى الفتح ابن خاقان فى الثالث من شهر ربيع الأول عام ٢٥٣هـ، فسكن العسكر ، وقد ثار مزاحم بن خاقان ضد أهل الحوف وقام بمقاتلتهم وأوقع بهم وقتل منهم وأسر، كما قاتل أهل تروجة[٢] لما ثاروا ضده ، كذلك قاتل أهل الفيوم وقام بالتضييق على أهل مصر فى أمور كثيرة ، فمنع النساء من الحمامات والمقابر وسجن المؤنثين والنوائح ومنع الجهر بالبسملة فى الصلاة بالجامع، وأخذ المصلين بتمام الصفوف ، ووكل بذلك رجلاً من العجم يقوم بالسوط فى مؤخرة المسجد[٣]، ولم يزل فى تشدده مع أهل مصر إلى أن مرض وتوفى يوم الاثنين ٥ من المحرم عام ٢٥٤هـ، فاستخلف من بعده ابنه أحمد ابن مزاحم الذى تولى إمارة مصر لمدة عام وعشرة أشهر فقط ، وتوفى بمصر فى ٧ ربيع الآخر عام ٢٥٤هـ، وتولى من بعده ياركوج بن أولوغ طراخان التركى ، فأقره الخليفة المعتز على ذلك ، وكانت ولايته خمسة أشهر ونصف ، وخرج أول ذى القعدة عام ٢٥٤هـ، بعد أن صرف عنها وحل مكانه فى شهر رمضان من نفس العام القائد أحمد بن طولون[٤] .

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص١٠٢ .

(٢) تروجة : قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٤٤١ .

(٣) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص١٠٢ .

(٤) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠٣ .



الفصل الخامس

التكوين الاجتماعى والثقافى لمصر
فى عصر الولاة



الفصل الخامس

التكوين الإجتماعى والثقافى لمصر فى عصر الولاة

اختلط الشعب المصرى بالقبائل العربية الوافدة إليه مع الفتح وبعده ، ونشأ من هذا الإختلاط شعب جديد ، يجمع بين الدم العربى والمصرى ، وبين التقاليد العربية والمصرية .

وإذا أردنا أن نقسم المجتمع المصرى إلى فئات أو طبقات ، على الأساس الاقتصادى نجد أن هناك طبقة الأغنياء ، والطبقة الوسطى ، والطبقة الفقيرة ، لكن هذا التقسيم لا يصلح فى تقسيم طبقات المجتمع فى مصر فى عصر الولاة ، لأنه لا بد من توافر وحدة الجنس والعنصر ، لذلك سنتتبع الأساس الجنسى فى التقسيم الاجتماعى ، وهو على ما نظن أصلح الأسس لتقسيم الطبقات فى مصر فى هذا العصر ، فعن طريقه نستطيع أن نقول أن مصر فى عصر الولاة كان بها طبقتان : طبقة العرب ، وطبقة غير العرب من المصريين .

(أ) العـــرب :

لم تكن هجرات العرب إلى مصر قاصرة على زمن الفتح ، إنما عرف العرب وادى النيل كمهاجرين قبل الفتح بنحو قرنين ، حين خرجت جماعات عربية من قبيلتى لخم وراشدة إلى جنوب فلسطين ، ثم شبه جزيرة سيناء ، ثم إلى شرق النيل والصحراء الشرقية حتى أسوان ، وقد سمح الروم لهذه الهجرات تحقيقاً لسياسة محددة ، فهم مثلاً كانوا يقومون بحراسة القوافل ، ونقل المتاجرين إلى أسواق مصر ، وبلاد الشام ، وكانت الدولة البيزنطية بعد ذلك تكلفهم بحراسة الحدود ، وكانت هذه الهجرات

العربيـة مـشروطة بقيـامـهم فى أطراف الصـحـارى ، وعـدم اخـتـلاطهم بالمصريين[1]، أما الهجرات العربية الصحيحة والمنظمة فستكون فى زمن الفتح العربى وما أعقبه من سنوات ، إذ كان لها أثر كبير فى امتزاج العرب بالمصـريين ، وظهور الشـخصيـة العربية الإسـلامية لمصر ، ولا شك أن جيش الفتح العربى لمصر كان ـ أيضًا ـ هجرة عربية ، إذ صحب الجند المسلمـون العـرب معهم أسرهم وأبناءهم أثناء الفتح ، لأنهم يدركـون أنهم ينوون الإقامة فى البلاد المفتوحة بعد تمام فتحها ، كما هو المتبع فى أغلب الفتوح .

وقد كان عدد الجند العرب الذين صحبوا عمرو بن العاص إذا نظرنا إليهم كـهجرة عربيـة ـ مسلمة ـ أول الأمر نحـو ٤ آلاف ، ثم زيد إلى ١٦ ألف ، خاصة بعد سقوط حصن بابليون ، أما بعد سقوط الإسكندرية فقد صار عددهم لا يقل عن عشرين ألف مقاتل .

وكـان العرب الذين استـقروا عقب الفتح ينتسبـون إلى قبـائل مـختلفة قحطانية وعدنانية ، وكان كل والٍ على مصر يصطحب معه عدداً من أهل قبيلته ليقيموا معه بمصر ، ويكونوا عوناً وعزوة له فى هذه البلاد[2].

ويصعب معرفة أسماء كل القبائل العربية التى ينتسب إليها الجند الذين شاركوا فى فتح مصر أو الذين قدموا بعد ذلك مع الولاة ، لاختلاف روايات المؤرخين المعاصرين للفتح أو المتأخرين ، غير أننا يمكن أن نخرج من هذا الإختلاف فى الروايات بحقيقة هامة ، وهى أن غالبية القبائل التى شاركت

---

(١) صابر محمود دياب : تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، ص١٣٧ .

(٢) هويدا عبد العظيم رمضان : المجتمع فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى العصر الفاطمى ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٦ ، جـ٢ ، ص١٣ .

فى الفتح أو هاجرت إلى مصر عقب الفتح ، كانت قبائل يمنية قحطانية من عرب جنوب الجزيرة العربية[١] .

وتأتى قبيلة « بلى » التى جاءت إلى مصر مع الفتح بأمر الخليفة عمر ابن الخطاب ، واستقرت فى منطقة عيذاب على البحر الأحمر[٢] ، على رأس هذه القبائل ، كذلك قبيلة « جهينة » التى استقرت فى أعالى الصعيد بمصر ، وقبيلة « عك » وبلادهم فى تهامة اليمن على البحر الأحمر ، وكانوا يمثلون جزءاً كبيراً من جيش عمرو بن العاص أثناء الفتح[٣] ، كذلك قبيلة « همدان » التى شاركت رجالها فى فتح حصن بابليون والتى يقول فيها عمرو بن العاص ممتدحاً :

يوم لهمدان ويوم للصدف

والمنجنيق فى بلَى تختلف[٤]

بالإضافة إلى هذه القبائل كانت هناك قبائل أخرى مثل : « كندة » و «الأزد» و « جذام » و«خولان» و « تنوخ » و « مذحج » وغيرهم .

ومن الجدير بالذكر أن خطط (منازل) معظم هذه القبائل كانت أولاً بالفسطاط والجيزة ، ثم وزعت بعضها لتسكن بعض القرى والأقاليم

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٦٩ .

(٢) يرى محمد عزة دروزة ، أن أرسال الخليفة عمر بن الخطاب لهذه القبيلة إلى مصر كان بقصد الإستيطان . عروبة مصر قبل الإسلام وبعده ، صيدا ، بيروت ١٩٦٣ ، ص١٢٠ .

(٣) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٢م ، ص١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٥١ .

المصرية فيما بعد ، ذلك لأن العرب المقيمين فى الفسطاط أو الجيزة ، كانوا يخرجون إلى الريف المصرى ، خاصة أواخر الخريف وأوائل الشتاء بعد انتهاء الفيضان وأثناء موسم الزراعة الشتوى ، فكان العرب ينزلون إلى الريف فى هذا الموسم بناء على خطة تعدها الدولة تخصص فيها لكل قبيلة كورة أو ناحية معينة ، وهو ما كان يسمى بالإرتباع[١] ، وقد تركز استقرار القبائل القحطانية فى منطقة الحوف الشرقى (حول بلبيس بمحافظة الشرقية) فى بلاد : أهناس ، وطما ، ووسيم ، وبنا ، وبوصير ، وأتريب وفربيط ، هذا فضلاً عن استقرار البعض منها فى بلاد أخرى مثل : منف ، ومنوف ، وعين شمس ، وسخا ، والفيوم[٢] .

وتشير الروايات إلى أن أعداداً قليلة من القبائل العدنانية شاركت فى الفتح الإسلامى لمصر ، وكانت من قريش ، أهم بطون كنانة ، ومن قبائل بنى مخزوم وبنى أمية ، وفَهم ، وعدوان[٣]، وقد ازدادت أعداد القبائل العدنانية التى قدمت إلى مصر فيما بعد فى العهد الأموى ، إبتداءً من عهد ولاية عبد العزيز بن مروان ، الذى استقدم أعداداً كبيرة منها فى عام ٦٥هـ ، كذلك نقلت أعداد من القبائل القيسية إلى مصر فى عهد ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى على مصر (١٠٩ ـ ١١٧هـ) بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك ، وكان ذلك حين وفد عبيد الله بن الحبحاب (متولى

---

(١) عبد الله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ، ص٥٦ ـ ٥٧ ؛ محمد صابر دياب : تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، ص١٤٠ ؛ هويدا عبد العظيم رمضان ، المجتمع فى مصر الإسلامية ، ص١٤ .

(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٦٩ .

(٣) عطية القوصى : المرجع نفسه ، ص٦٩ .

خراج مصر) على هشام وسأله أن ينقل إلى مصر أبياتا منها ، فأذن له الخليفة فى إلحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر على ألا ينزلهم الفسطاط ، فقدم ابن الحبحاب بألف وخمسمائة بيت وأنزلهم بلبيس بالحوف الشرقى وفرقهم فيها ما بين سنوات ١٠٩ ـ ١١٤هـ، وفى سنة ١٣١هـ اكتمل العدد إلى ثلاثة آلاف أسرة من قيس سكنوا الحوف الشرقى ، وكانت غالبيتهم من فزارة وبنى هلال وبنى سليم وهوازن[١] .

وقبيلة ربيعة واحدة من هذه القبائل العدنانية التى هاجرت إلى مصر وشقت طريقها إلى وادى حوف بالصحراء الشرقية ، ثم اتجهت بعد ذلك إلى وادى العلاقى جنوب هذه الصحراء[٢] .

ولم يستمر استقرار هذه القبائل فى الحوف الشرقى ، فقد تحركت أعداد منها فاتجهت إلى الصعيد ، كما جاوز بعضها الصعيد إلى بلاد النوبة ، كذلك واصل بعضها المسير إلى السودان ، وكان ذلك نتيجة لعدم قدرتهم على دفع خراج الأراضى الزراعية التى سمح لهم ـ فى العهد الأموى ـ بتملكها وزراعتها ، فضلاً عن تعنت بعض الولاة فى تحصيل هذا الخراج[٣] .

وقد ازداد انتشار القبائل العربية فى صعيد مصر وازداد اختلاطها بأهالى البلاد المصريين الأقباط ، خاصة فى العصر العباسى ابتداءً من عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) بسبب قراره بإسقاط العرب من

---

(١) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص١٣٤ ـ ١٣٧ ؛ عطية القوصى: مصر الإسلامية ، ص٧٠ .

(٢) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص١٣٩ ـ ١٤٠ .

(٣) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٧٠ .

الديوان وحرمانهم من العطاء المقدر لهم منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وذلك بعد أن حل الأتراك وأسرهم مكانهم فى الجيش ، وعندما قام الوالى كيدر بن نصر الصفدى (٢١٧ـ٢١٩هـ) بتنفيذ هذا القرار ، لم يجد العرب بداً من العمل سعيًا وراء الرزق عن طريق آخر غير الجهاد والحرب ، فاحترفوا الزراعة والتعدين والرعى وغيرها من الحرف التى كان العربى يترفع عن العمل بها من قبل ، وقد أدى ذلك إلى ازدياد اختلاطهم بالمصريين ومصاهرتهم ونشر الإسلام بينهم .

من هذا يتضح أن الهجرات العربية الأولى استقرت فى جهات أسفل الأرض (الوجه البحرى) ، فلما ضاقت هذه البلاد بسكانها نزلت القبائل العربية الوافدة ببلاد الصعيد وانتشرت فى جميع نواحيه حول أسوان وجنوبها ، ومنذ القرن الثالث الهجرى أصبح العرب لا يتميزون عن أهل البلاد ، بل أصبح العربى ينتسب ـ بعد ذلك ـ إلى مقره أو بلدته أو وطنه مصر ، فيقال فلان المصرى أو الأسيوطى أو البلبيسى أو القليوبى وهكذا ، ومعنى هذا أن العرب استوطنوا البلاد ، وأصبحت مستقراً لهم ، وبدأ يظهر الشعب المصرى العربى الذى يجمع بين الدم العربى والمصرى ، وقد تم هذا كله فى أواخر عصر الولاة ، وظهر الشعب الجديد جامعًا بين التقاليد العربية والمصرية معًا ، وأصبح العرب جزءاً من نسيج مصر الاجتماعى[١].

---

(١) هويدا عبد العظيم رمضان : المجتمع فى مصر الإسلامية ، ص٢٧ .

ب ــ المصريون " الأقباط " :

أما الطبقة الثانية فهم المصريون الأقباط من أهل البلاد ، وهذه الطبقة احتفظت بمقوماتها الفكرية والاجتماعية ، فظهرت القومية المصرية من خلالها بشكل واضح منذ القرن الرابع الميلادى ، خاصة بعد انتشار المسيحية ، إذ يعتبر انتشار المسيحية فى مصر ، بداية مرحلة جديدة فى تاريخ المصريين كطبقة اجتماعية ، يذكر المقريزى « اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى ، وهم على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم : أحدهما أهل الدولة ، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية ... والقسم الآخر عامة أهل مصر ، ويقال لهم القبط ، وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الإسرائيلى الأصل ، من غيره ، وكلهم يعاقبة ، فمنهم كتاب المملكة ، ومنهم أهل الفلاحة والزرع ، ومنهم أهل الخدمة والمهنة ، وبينهم وبين الملكية ــ أهل الدولة ــ من العداوة ما يمنع مناكحتهم ، ويوجب قتل بعضهم بعضاً »(١).

إذاً فقد عرف المصريون باسم القبط أو الأقباط ، والمعروف أن كلمة قبط أو أقباط كانت لا تعنى وقت الفتح العربى مذهباً دينياً ولا ترادف كلمة مسيحيى مصر ، وأنما تعنى أهل مصر ، وإن كانت بمرور الزمن وإلى الآن أصبحت تعنى المصريين المسيحيين ، فقد عرفت مصر منذ العصر اليونانى باسم (ايجوبتوس) وربما كانت كلمة ايجوبتوس التى أشير بها إلى مصر كلها ، مشتقة من (حت ـ كا ـ بتاح) أى من اسم معبد الإله بتاح ،

---

(١) المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٤ ، ص٣٩٣ .

وربما تكون مشتقة من كلمة مصرية هى (آجبى) التى تشير إلى الماء الأزلى الذى برزت منه الأرض أو فيضان النيل ، وقد ظهرت كلمة إيجوبتوس قبل مولد المسيح بعدة قرون مما يرجح أن كلمة القبط اشتقت لغويا من ايجوبتوس[(١)].

على كل حال كان القبط أو الأقباط هم أهل مصر وأصحاب البلاد الأصليين وقت الفتح العربى لمصر ، وقد كان القبط عوناً لعمرو بن العاص وللجيش العربى وقت الفتح ، وقد اتخذت المساعدات التى قدمها القبط المصريون للعرب صوراً عديدة حفلت بها الكثير من المصادر العربية والأوروبية التى أرخت للفتح[(٢)]، خاصة بعد ما لاقاه القبط من اضطهاد وتعسف من حكام الدولة البيزنطية .

فقد نظر القبط إلى العرب الفاتحين على أنهم منقذون ومحررون لهم من اضطهاد واستبداد الحكام البيزنطيين ، وقد وجد بجانب الأقباط اليهود الذين اتخذوا من مصر سكناً وكانوا بالنسبة للقبط أقلية سكنت معظمها الإسكندرية والفسطاط على شكل جاليات من بلدان مختلفة[(٣)].

وقد عرف الأقباط واليهود بعد الفتح الإسلامى لمصر بأهل الذمة[(٤)]، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم فى البلاد الإسلامية ، فقد فرض عليهم طبقًا لمعاهدة الصلح التى عقدت فى بابليون دفع الجزية ، والتى كانت لا تجب

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر الإسلامية وأهل الذمة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣ ، ص٢٨ .

(٢) فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٨٩ .

(٣) فاطمة مصطفى عامر : المرجع نفسه ، جـ١ ، ص١٠٦ .

(٤) الذمة : الذمة والذمام ، الحرمة ، وأهل الذمة أهل العقد ،؛الرازى : مختار الصحاح ، ص٢٢٣ .

إلا على الرجال العقلاء القادرين على العمل والكسب وكانت دينارين[1]، واستثنى من دفعها النساء والشيوخ والأطفال والرهبان والمقعدين ، وقد راعت الدولة الإسلامية فى تحصيل الجزية من أهل الذمة ، تغير الأحوال من غنى إلى فقر ، وكذلك اسقطتها عمن أسلم قبل تمام السنة ، كما اسقطتها عن الذمى المتوفى ، فلا يؤخذ من ورثته لأنهم غير ضامنين له ، ولا نؤخذ من تركته لأن ذلك ليس ديناً عليه[2].

وقد كانت الجزية مقابل الدفاع عن أهل الذمة وتأمينهم على أنفسهم ، وعلى مصالحهم وممتلكاتهم وحماية كنائس القبط ومعابد اليهود ، وعدم التدخل فى شئونهم الدينية[3].

وقد أحسن العرب معاملة القبط وغيرهم من أهل الذمة ، بل كان الخليفة عمر بن الخطاب يوصى دائماً ولاته بحسن معاملة أهل الذمة ويمنع الإساءة إليهم ، حتى ولو أقتضى الأمر ، الاقتصاص لهم من عماله ومن أولادهم ، كما حدث عندما اقتص لأحد قبط مصر من واليها عمرو بن العاص وابنه عبد الله على مرأى من الناس[4].

والحقيقة أن أهل الذمة فى مصر قد نعموا بالهدوء والأمن طوال عصر الخلفاء الراشدين الذين كانوا يوصون دائمًا ولاتهم بأهل الذمة خيراً منذ عهد عمر بن الخطاب وحتى على بن أبى طالب .

---

(١) نريمان عبد الكريم : معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية ، الهيئة العامة للكتاب١٩٩٦م ، ص٤٤ .

(٢) نريمان عبد الكريم : المرجع نفسه ، ص٤٤ .

(٣) فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٩٦ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص١٤٤ ـ ١١٥ .

وتبدو حسن معاملة العرب للقبط بوضوح فى استعانتهم بهم فى إدارة شئون مصر وإسناد المناصب الإدارية المختلفة إليهم ، وقد بلغ من تسامح العرب أنهم مع احتفاظهم لأنفسهم بالجيش ألفوا من القبط فرقًا من المتطوعة كانت بمثابة قوات مساعدة تستخدم فى أوقات الضرورة القصوى وتقيم على الحدود بصفة حراس مع بعض العرب ، وتأخذ مرتبات من الصدقات[1]، كذلك أحل العرب القبط محل الروم الذين غادروا مصر وكانوا يشغلون كثيراً من الأعمال فيها ، فمن أهم المناصب التى أسندت إليهم منصب الكاتبين اللذين كانا يقيمان فى دار الإمارة مع الوالى ، ويعاونانه فى تصريف شئون البلاد ، ومناصب رؤساء الكور ورؤساء المالية وجباة الضرائب[2].

وقد بدأ الأقباط يدخلون فى الإسلام ويتعلمون اللغة العربية رويداً رويداً، وخاصة بعد صدور الأمر بتدوين الدواوين فى مصر باللغة العربية ، وكان الدافع الأكبر لإقبالهم على اعتناق الإسلام وتعلم العربية رغبتهم فى الأحتفاظ بالوظائف التى يلونها ، خاصة بعد أن أمر الخليفة الأموى عمر ابن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) عماله بالتخلى عن الأقباط فى بعض الوظائف ما داموا على دينهم : (فلا تولين أمور المسلمين أحداً من أهل الذمة ، فتبسط أيديهم وألسنتهم وتذل أمور المسلمين بعد أن أعزهم الله »[3]، ومع ذلك فإنه يبدو أن تنفيذ هذا الأمر لم يكن عامًا ، أو أنه لم يلتزم فيما تلا عصر عمر بن عبد العزيز ، بدليل أن الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من وظائف الدولة[4].

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص٧٨ ـ ٧٩ .

(٢) سيدة إسماعيل كاشف : المرجع نفسه ، ص١٨٩ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص٦٨ .

(٤) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٦٤ .

بل ظل بعض الموازيت[1] يختارون من الأقباط حتى عام ١٧١هـ[2].

وخلاصة القول إن معاملة القبط من قبل العرب كانت معاملة حسنة عند الفتح وبعده وطيلة عصر الولاة باستثناء بعض الفترات التى تشدد فيها بعض الخلفاء والولاة ، والتى كانت استثناءاً شاذاً عن القاعدة العامة للسياسة الإسلامية ، لذلك لا نندهش عندما نسمع عن قيام ثورات للقبط فى عصر الولاة كرد فعل طبيعى لبعض الإجراءات التى اتخذت من قبل بعض الخلفاء والولاة ، والتى كانت معظمها تتعلق بالأمور المالية .

ثورات الأقباط :

برغم تحرير الفتح العربى للأقباط المصريين من ظلم واستبداد الروم لهم ، وبرغم حصولهم على الحرية والمساواة فى ظل الدولة الإسلامية ، إلا إننا نسمع من بعض المصادر عن نشوب عدة ثورات قام بها القبط فى عهد الولاة ، وذلك لأن السياسة التى اتبعها بعض الولاة مع أهالى البلاد المصريين كانت لا تتفق مع تعاليم الإسلام ، خاصة فيما تعلق بالجزية والخراج[3].

---

(١) الموازيت : جمع مازوت وهى كلمة يونانية أو لاتينية الأصل معناها قاضى وقضاة ، وقد فسرها جروهمان وكارل بيكر بأنها تعنى رئيس القرية . سعيد مغاورى محمد : الألقاب وأسماء الحرف والوظائف فى ضوء البرديات العربية ، دار الكتب المصرية ٢٠٠٠ ، جـ٢ ، ص٧٩٧ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص٦٩ ، سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص٢٠٠ .

(٣) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٩٥ ، عطية القوصى : مصر الإسلامية، ص٧١ .

فقد أمر المشرع المسلم أن تسقط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، لكن بعض الولاة أخذوا الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ، وكان أول من أخذها الحجاج بن يوسف الثقفى فى العصر الأموى ، لكن الخليفة عمر بن عبد العزيز وضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة من أهل مصر ، وكتب بذلك إلى حيان بن شريح[1] قائلاً : « أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، فإن الله تبارك وتعالى قال : فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبلهم إن الله غفور رحيم ، وقال : قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[2] .

ويبدو أن ثورات الأقباط كان الدافع الأول والأهم لها هو زيادة الخراج لا الجزية ، إذ يخلط البعض أحيانا بين الجزية والخراج ، فيذكر جمال الدين الشيال عن الجزية « وقد ظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة دون أى شكوى نحو قرن من الزمان »[3] .

كانت أولى ثورات القبط فى عهد ولاية الحر بن يوسف بن الحكم (١٠٥ـ١٠٨هـ) ففى عام ١٠٧هـ انتفض أهل الصعيد وقبط الحوف الشرقى، وكان صاحب خراج مصر هو عبيد الله بن الحبحاب فى ولاية الحر ، فكتب للخليفة هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل زيادة

---

(١) حيان بن شريح : كان من أصحاب الخراج المشهورين زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز فى الفترة من ٩٩ حتى ١٠١هـ، وهو صاحب اقتراح ابقاء الجزية على من أسلم ، وذلك بهدف زيادة موارد بيت مال المسلمين ، المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ١ ، ص٧٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص١٠٧ .

(٣) تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٥٩ .

الخراج ، فزاد على كل دينار قيراطاً ، فثار أهل كورة (تنو ـ تمى وفربيط ـ طرابية) وعامة الحوف الشرقى[1]، فبعث إليهم الحر بن يوسف بالجند فحاربوهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، ورابط الحر بقواته بدمياط ثلاثة أشهر[2].

ثم ثار القبط بالصعيد مرة أخرى عام ١٢١هـ فى ولاية حنظلة بن صفوان (١١٩ـ١٢٤هـ) بسبب سياسة عبيد الله بن الحبحاب المالية أيضاً ، فأرسل إليهم حنظلة جيشاً لمحاربتهم فانتصر عليهم بعد أن قتل منهم عدداً كبيراً أيضاً[3].

وفى عام ١٣٢هـ فى أواخر عهد الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، ثار القبط أيضًا فى كل من سمنود[4] ورشيد والبشرود[5]، وقاد ثورتهم رجل يسمى (بخنس) فبعث إليه بعبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، أمير مصر آنذاك فقتل بخنس فى كثير من أصحابه[6]، كذلك أعلن القبط التمرد فى مدينة رشيد ، فأرسل لهم الخليفة مروان بن محمد لما دخل مصر هاربا من بنى العباس بعثمان بن أبى قسعة فهزمهم[7].

وفى عام ١٥٠هـ ثار القبط فى سخا وشبرا على واليهم يزيد بن حاتم

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص٧٩ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص٧٣ ؛ المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص٨٦ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٨٧ .

(٤) سمَنّود : بلد من نواحى مصر جهة دمياط ، على ضفة النيل بينها وبين المحلة ميلان ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٧٢ .

(٥) البشرود : كانت تقع ناحية سيدى غازى بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الأول ، ص٣١ .

(٦) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص٨٨ .

(٧) المقريزى : المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص٨٨ .

ابن المهلب بن أبى صفرة ، وصاروا إلى شبرا سنباط وانضم إليهم أهل البشرود والأريسية والنجوم ، فأتى الخبر ليزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان (الجند) ووجوه مصر فخرجوا إليهم فباغتهم القبط وقتلوا من المسلمين ، فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط وانصرف المسلمون إلى فسطاط مصر منهزمين[1]، وفى عام ١٥٦هـ ثار القبط فى عهد ولاية موسى بن على بن رباح ببلدة بلهيب[2]، فخرج إليهم العسكر وهزمهم[3]، ثم ثار القبط عام ٢١٦هـ فى خلافة المأمون ، فأرسل إليهم قائده (الأفشين) فأوقع بهم فى ناحية البشرود وأخمد ثورتهم[4].

ومن الملاحظ أن جميع الثورات التى قام بها القبط ، كانت لأسباب تتعلق بتعنت بعض الولاة فيما يختص بالخراج ، فلم تكن ثوراتهم لاضطهاد دينى وقع لهم[5]، لذلك وعندما استقرت أوضاع مصر المالية والإدارية لم نعد نسمع فى المصادر عن ذكر ثورات قام بها القبط ، خاصة بعد أن اندمج القبط مع العرب وأصبح أغلبيتهم مسلمين ، وأصبحت لغتهم هى اللغة العربية .

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص٩٣ .

(٢) بلهيب : تقع فى البحيرة ومحلها اليوم فزارة التى بمركز المحمودية ؛ محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الأول ، ص١٦٩ .

(٣) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص٩٣ .

(٤) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٩٤ .

(٥) صابر محمد دياب : تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، ص٥١ .

إنتشار الإسلام واللغة العربية :

(أ) إنتشار الإسلام :

لا شك أن تعاليم الإسلام التى كان يتمسك بها المسلمون الأوائل ، والذين كانوا يمثلون قادة الفتح حتمت عليهم ألا يكرهوا أحداً على اعتناق دينه ، وإنما أمروا بالدعوة إلى الدين بالحكمة والموعظة الحسنة ، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[2]. وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾[3] .

إذا فقد كانت سماحة الإسلام وسماحة الفاتحين هى المنطلق الأول لدخول أعداد كبيرة من الأقباط فى الدين الإسلامى ، ومن ثم انتشار الإسلام فى مصر خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة ، وتوضح وقائع التاريخ إن هناك عدة عوامل أدت إلى تحول الأقباط من المسيحية إلى الإسلام ، بعضها يتعلق كما ذكرنا بطبيعة الإسلام السمحة ، وبعضها يتعلق بأوضاع الأقباط أنفسهم ، وبعضها يتعلق بطبيعة التحولات السياسية والاقتصادية والإدارية التى صاحبت الحكم الإسلامى فى مصر ، وأدت إلى صبغ المجتمع المصرى بالصبغة العربية الإسلامية .

ولا شك أن أحد العوامل التى ساهمت فى نشر الإسلام ، هى هجرة القبائل العربية إلى مصر ، واختلاط العرب بالمصريين فى الريف ، فقد

---

(١) سورة النحل: آية ١٢٥ .

(٢) سورة آل عمران : آية ٢٠ .

(٣) سورة النحل : آية ٣٥ .

ساعد ذلك على سرعة الإندماج بين الطرفين ، وتعرف المصريين (الأقباط) عن قرب على طبيعة الإسلام وجوهره ، فقد كان الدين الإسلامى ببساطته وبساطة تعاليمه وعقائده قد جذب الأقباط إليه ، يقول بهذا الرأى شاهد من الديانة المسيحية ، هو المؤرخ والمستشرق الإنجليزى (سيرتوماس أرنولد) فى كتابه الدعوة إلى الإسلام ، فيقول : « الحق أن كثيراً من مسيحى مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التى اعتنقوا بها النصرانية فى مستهل القرن الرابع الميلادى ... كما أن سرعة انتشار الإسلام فى الأيام الأولى من الاحتلال العربى قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحة وعدم صلاحيتها للبقاء ، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الاهلين إلى الإسلام »[١].

ويضيف أيضاً : « إن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين حزباً منفصلاً، والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الإحتفاظ بها وقتا طويلاً ، ودفعوا ثمناً غالياً فى هذا السبيل ، قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضاً وإبهاماً من الناحية الميتافيزيقية ، ولا شك أن كثيراً من هؤلاء قد تحولوا ـ وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ ، واستولى على نفوسهم الضجر والأعيان من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم حولهم ـ إلى عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد »[٢].

على الجانب الآخر كانت رغبة القبط فى التخلص من دفع الجزية أحد العوامل الأخرى الدافعة لإعتناق الإسلام ، وهو عامل بالغ بعض المؤرخين

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٧٠ ، ص٩٣ .

(٢) توماس أرنولد : المرجع نفسه ، ص٩٤ .

فى ذكر أهميته والتعويل عليه ، فيذكر بتلر : « وأصبح عبء الجزية ثقيلاً لا ترضاه النفوس وأصبح أصحاب الجزية من اليهود والنصارى بعد حين ، وقد صاروا فى قلة ظاهرة بسبب من كان يسلم منهم عاماً بعد عام ، فكان هذا الأمر فاسداً إذ هو بمثابة رشوة لتحريض النصارى على الخروج من ملتهم»[(١)] ، ونحن نعجب من أن يكون دخول الأقباط فى الإسلام تخلصاً من مبلغ الجزية الضئيل ، الذى كان يعفى منه قطاع كبير من الأقباط من النساء والشيوخ والأطفال والرهبان كما نعلم ، لذلك لا نستطيع أن نبالغ فى أثر هذا العامل كما بالغ بتلر ، لأن هذا المبلغ (الجزية) لم يكن ليؤثر فى الأقباط إذا كانوا متمسكين بدينهم أقوياء فى عقيدتهم[(٢)] ، والدليل على ذلك بقاء عدد كبير من الأقباط على دينهم حتى أوائل القرن الثانى الهجرى .

من العوامل الأخرى التى ساهمت فى انتشار الإسلام ، أن الأقباط كانوا يتولون وظائف الدولة الصغرى والكبرى فى المدن والقرى ، فكان صدور الأمر بتدوين الدواوين فى مصر باللغة العربية ، دافعاً لإقبالهم على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية لرغبتهم فى الإحتفاظ بوظائفهم ، خاصة بعد أن أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن وظائفهم ما داموا على دينهم[(٣)] .

وفضلاً عن ذلك كله فإن فشل الإقباط فى ثوراتهم أضعف من روحهم المعنوية وجعلهم يتجهون نحو الإسلام ؛ والمؤرخون يذكرون أن عدداً كبيراً من القبط أسلموا على أثر إخماد ثورتهم بعد مجئ الخليفة المأمون بنفسه إلى مصر[(٤)] .

---

(١) الفتح العربى لمصر ، جـ٢ ، ص٤٠٣ .

(٢) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٩٩ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص٦٩ .

(٤) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٠٠ .

ونخلص من ذلك إلى أن انتشار الإسلام وتحول المصريين إليه ، لم يأتى نتيجة ضغط أو أضطهاد كما يروج البعض ، وإنما كان أمراً طبيعياً حتمته عدة عوامل متداخلة يصعب الفصل بينها بدقة ، وأن انتشار الإسلام وتحول كل المصريين إليه لم يتم فى سنوات قليلة أو معدودة ، بل استغرق ثلاثة قرون كاملة ، تفاعلت خلالها كل العوامل السابق ذكرها ، لتظهر الشخصية العربية الإسلامية لمصر .

(ب) إنتشار اللغة العربية :

كان من الطبيعى أن تنتشر اللغة العربية بانتشار الإسلام ، إذ كانت اللغة تسير فى ركابه ولا تنفصل عنه إينما حل واستقر ، ذلك لأن اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم ، كتاب الله المنزل على نبيه .

وعندما فتح العرب مصر كانت اللغة السائدة هى اللغة القبطية لغة العامة، واللغة اليونانية لغة الخاصة من العلماء والمفكرين ورجال الكنيسة، وتعتبر هجرة القبائل العربية واختلاطها بالمصريين فى الريف ، من أهم العوامل التى ساعدت على انتشار اللغة العربية ، ذلك أن أحد الفروق الهامة بين هذه القبائل واليونانيين الذين عاشوا فى مصر ، هو أن هذه القبائل أتت للإستيطان والمعيشة فى مصر ، فكان عليها أن تنتشر فى الريف المصرى ، أما اليونانيون فقد عاشوا فى مصر كطبقة حاكمة ، فاقتصر نزولهم على المدن وصبغوها بحضارتهم كالإسكندرية ، ولم يمتد نفوذهم الثقافى فى الريف كثيراً ، فلم تنتشر اللغة اليونانية إلا فى بيئات خاصة ، أما العرب فقد عاشوا وسط المصريين واختلطوا بهم اختلاطاً كاملاً ، وتزوجوا منهم ، الأمر الذى أدى ـ بالضرورة ـ إلى انتقال اللغة العربية إليهم[1]، كذلك

---

(١) هويدا عبد العظيم رمضان : المجتمع فى مصر الإسلامية ، جـ٢ ، ص٣٩ .

كانت حركة التعريب التى قامت بها الدولة سواء لتعريب الدواوين أو لتعريب النقود ، عاملاً آخر ساعد على انتشار اللغة العربية . وبالنسبة لتعريب الدواوين فى مصر ، فقد حدث فى عام ٨٧هـ/ ٧٠٥م فى ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، الذى نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية[١]، وبالتالى شكل ذلك خطراً كبيراً على مناصب الأقباط فى الدولة ـ كما ذكرنا ـ مما دفعهم دفعًا إلى تعلم اللغة العربية ، حتى يتسنى لهم الإحتفاظ بوظائفهم ، وهكذا أصبحت اللغة العربية هى اللغة الرسمية للبلاد، بدلاً من اليونانية التى كانت حتى ذلك الحين لغة الدواوين .

ولم تقتصر حركة التعريب على النظام الإدارى للدولة ، وإنما تعددت إلى تعريب النظام الاقتصادى المتمثل فى عملة البلاد ، فمن المعروف أن العرب ظلوا يتعاملون بنقوذ كسرى وقيصر ، أى الدراهم والدنانير الفارسية والرومية حتى تولى عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ـ٨٦هـ/ ٦٨٤ـ٧٠٥م) فكان أول من ضرب النقود العربية ، وأوجب التعامل بها ، وأبطل استعمال النقود الفارسية والرومية .

وقد أثر هذا التحول فى انتشار اللغة العربية ، حتى إذا كان القرن الرابع الهجرى كانت غالبية الشعب المصرى يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية ، بدليل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا فى هذا القرن أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية ، وأن يترجموا بعض الصلوات الكنيسة من اللغتين اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية[٢].

وبدخول اللغة العربية فى صلوات الكنيسة المصرية أصبحت هذه اللغة

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص٥٨ .

(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٦٢ ا عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٧١ .

هى اللغة القومية للمسلمين والمسيحيين على السواء ، من أبناء مصر ، وبانتشار العروبة والإسلام فى مصر ، أصطبغت مصر بالصبغة العربية الإسلامية ، حتى أن البطريرك الملكانى سعيد بن البطريق كتب كتابه فى التاريخ (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) باللغة العربية ، وكتب ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين كتابه (سير الأباء البطاركة) بالعربية أيضًا ، وقام بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمها إلى العربية ، مما يؤكد أن اللغة العربية أصبحت فى القرن الرابع الهجرى هى لغة الكلام والتخاطب بين المصريين ولغة الكتابة أيضاً[1] .

---

(١) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٠١ ؛ هويدا عبد العظيم رمضان : المجتمع فى مصر الإسلامية ، جـ٢ ، ص٤١ .

الفصل السادس

الدولة الطولونية

(٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ/ ٨٧٩ ـ ٩٠٤م)

الفصل السادس

الدولـة الطولونيـة

(٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ/ ٨٧٩ ـ ٩٠٤م)

كان عنبسة بن إسحاق الضبى ، آخر من ولى مصر من الولاة العرب، ذلك لأن الخليفة العباسى (المعتصم) تعصب للعنصر التركى بإعتبارهم أخواله (كانت أمه تركية) وبدأ حكمه باستبدال الأتراك فى الجيش والقيادة بالعرب ، وأسقط العرب من ديوان العطاء وأحل مكانهم الترك ، وأحل الولاة الأتراك محل الولاة العرب على الولايات وجعل ولاياتهم إقطاعًا خاصاً لهم[١]، وبطبيعة الأمر كانت مصر أحد هذه الاقطاعات الخاصة التى تولى أمرها أمراء من الترك .

وكان شرط إقطاع هؤلاء الولاة الأتراك أن يدفعوا مبلغًا معلومًا لدار الخلافة فى كل عام ، على أن يستخلصوا ذلك المبلغ وما يزيد عنه من خراج الولايات التى يملكونها ومن مواردها المالية المختلفة ، ليعوضوا بذلك ما يقومون بدفعه لدار الخلافة ، وقد كان هذا النظام مجحفًا وظالماً لشعوب هذه الولايات ، لأن هؤلاء المقطعين الأتراك كانوا يبذلون كل ما فى وسعهم للضغط على هذه الشعوب ، واستنزافهم لأكبر قدر ممكن حتى يتمكنوا من الحصول على المال اللازم لهم ، وكان هذا المال المطلوب ـ بالطبع ـ يفوق فى قيمته قدر ما دفعوه لدار الخلافة بأضعاف مضاعفة .

وقد آثر هؤلاء الولاة الأتراك البقاء فى سامراء أو بغداد ، إلى جوار الخليفة ليكونوا قريبين من مركز الأحداث فى العاصمة ، وأنابوا عنهم

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٣٣ .

حكاماً يديرون شئون ولاياتهم ويحكمونها نيابة عنهم ، وكان هؤلاء النواب يدعون لهم فوق منابر ولاياتهم فى خطبة الجمعة بعد الدعاء للخليفة ، ويلتزمون بتحصيل الخراج المقرر على ولاياتهم .

وقد استمرت مصر إقطاعاً للولاة الأتراك ، إلى أن تولى إمرتها أحمد ابن طولون عام ٢٥٤هـ ، نائباً عن أحد هؤلاء الولاة الأتراك ، وكان يدعى (باكباك) واستمر ابن طولون تابعاً لدولة الخلافة ونائباً لسيده على مصر ، إلى أن أتيحت له الفرصة بالإستقلال بمصر عن دولة الخلافة بعد اثنتى عشرة عاماً من إنابته ، فأعلن إستقلاله عام ٢٦٦هـ وأنشأ بها دولة مستقلة عرفت بالدولة الطولونية ، حكمت لمدة ستة وعشرين عامًا حكمًا مستقلاً عن الخلافة العباسية[١] .

أحمد بن طولون واليًا على مصر ٢٥٤هـ :

تنسب الدولة الطولونية إلى طولون والد أحمد ، وكان طولون مملوكًا تركيًا أهداه مع جماعة من الأتراك ، الأمير نوح بن أسد السامانى عامل بخارى إلى المأمون عام ٢٠٠هـ ، ويقال إلى الرشيد عام ١٩٠هـ[٢] .

وقد نشأ طولون فى البلاط العباسى وتدرج فيه وولد له أحمد عام ٢١٤هـ ، وقيل عام ٢٢٠هـ ، من جارية تركية اسمها قاسم ، وقد نشأ أحمد وتربى كما كان يتربى أولاد الأتراك فى ذلك الوقت ، فتعلم علوم اللغة العربية وحفظ القرآن وأتقنه وتفقه فى الدين على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، كما تعلم العلوم العسكرية فى سامراء ، ثم بعد ذلك تردد

---

(١) عطيةالقوصى : مصر الإسلامية ، ص٧٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، جـ٢ ، ص٩ .

على علماء طرسوس وأخذ عنهم العلوم والمعارف وبخاصة الحديث ، ثم تنقلت به الأحوال إلى أن ولى إمرة الثغور وإمرة دمشق خاصة بعد وفاة أبيه طولون عام ٢٤٠هـ[١] .

لما علم أحمد بن طولون بمقتل الخليفة المتوكل وخلافة المستعين ، قرر العودة إلى حاضرة الخلافة وأثناء عودته تمكن من حماية قافلة تحمل الأموال والمتاع للخليفة العباسى قرب الرها ، مما جعل الخليفة يعجب به[٢]، فوهبه جارية أسمها (مياس) هى أم ابنه خمارويه ، ولما خلع المستعين من الخلافة وبويع للمعتز ، أخرج المستعين إلى واسط واختار قواد الأتراك أحمد ابن طولون ليكون على حراسته ، فسلم إليه ومضى به فأحسن عشرته وأطلق له حرية الخروج للتنزه والصيد ، إلا أن أم المعتز (قبيحة) كتبت إلى أحمد بن طولون تأمره بقتل المستعين وقلدته مدينة واسط ، فامتنع عن ذلك وكتب إلى قواد الأتراك يخبرهم بأنه لا يقتل خليفة له فى رقبته بيعة ، فزادت مكانته عند الأتراك ، ووجهوا سعيد الحاجب لهذه المهمة وكتبوا إلى ابن طولون بتسليم المستعين له ، فتسلمه منه سعيد وقتله[٣]، وقام ابن طولون بمواراته ودفنه وعاد إلى سامراء[٤] .

ظهرت قوة باكباك أحد رؤساء الأتراك وسطوته على مقدرات أمور الخلافة ، لذلك حاول الخليفة المعتز أن يستميل جانبه بأن منحه مصر إقطاعًا ، ولما كانت سياسة المقطعين قد جرت على إرسال مندوبين عنهم

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٣ ، ص٤ .
(٢) محمد صابر دياب : تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، ص١٤٩ .
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٦ ، ص١٨٥ .
(٤) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٧٦ .

إلى مقار اقطاعاتهم لكى يديرونها من قبلهم ، فقد اختار باكباك ابن زوجته أحمد بن طولون لإدارة إقطاع مصر وذلك عام ٢٥٤هـ[١] .

كانت مصر تنقسم وقتذاك إلى منطقة الفسطاط ومنطقة الإسكندرية ، وكان يعين على كل منطقة وال من قبل الخلافة ، فكان على الإسكندرية إسحق بن دينار ، وكان على برقة التابعة لمصر أحمد بن عيسى ، أما منطقة الفسطاط الرئيسية فكانت تخضع خضوعًا مباشرًا لصاحب الإقطاع .

لذلك يلاحظ أن نفوذ أحمد بن طولون فى مصر عند مجيئه لم يكن شاملاً لخروج الإسكندرية من سيطرته ، كما أنه يوجد بمصر عامل للخراج هو أحمد بن المدبر وليها قبل مجئ ابن طولون بعدة سنوات ، وكان له نفوذ كبير فيها حتى يقال إنه كان له حرس خاص يتألف من مائة فارس يتبعونه حيثما ذهب مرتدين الملابس الفاخرة والمزركشة ، وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة نصل من فضة ، فصار له بهم هيبة عظيمة فى صدور الناس[٢] ، وقد حاول ابن المدبر أن يستميل أحمد بن طولون فبعث إليه بهدية قيمتها عشرة آلاف دينار ردها عليه ابن طولون ، عندئذ قال ابن المدبر : (إن هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الأطراف»[٣] فخافه وكره مقامه بمصر معه ، بالإضافة إلى شخصية ابن المدبر كان ـ أيضًا ـ بمصر عامل للبريد يدعى شقير ، وهو

---

(١) محمود عرفة محمود : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص٣٥ .
(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٠٥ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٠٥ .

غلام السيدة قبيحة أم الخليفة المعتز ، وكان لا يخضع لسلطان الوالى وإنما يكون اتصاله المباشر بعاصمة الخلافة ، فكان شقير رقيبًا على ابن طولون ومهمته الأولى هى التجسس عليه وكتابة تقارير لدار الخلافة أولاً بأول ، وقد أدرك شقير هو الآخر خطورة تولى ابن طولون لمصر فأرسل يحذر دولة الخلافة منه ومن خطره ، وقد التقت أهداف ابن المدبر وشقير فى ضرورة التخلص من ابن طولون فاتفقا على مكاتبة الخليفة بعزل ابن طولون .

كانت مهمة أحمد بن طولون فى السيطرة على ولايته شاقه فى وسط هذا التربص المحيط به ، فإن حرمانه من مباشرة شئون الولاية المالية كان يسلبه معظم السلطة والنفوذ ، فضلاً عن وجود رقيب يحصى عليه سكناته وحركاته ، لذلك فكر ابن طولون وبذكاء فى مواجهة هذه الصعاب والتخلص منها ، فبعد أيام قليلة أرسل ابن طولون إلى ابن المدبر يطلب منه أن يهاديه بغلمانه بدل المال الذى كان قد رده ابن طولون قائلاً: « كنت أعزك الله أهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ولم يجز أن يغتنم مالك كثرة الله ، فرددتها توفيراً عليك ونحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيتهم بين أيديك ، فأنا إليهم أحوج منك »[1] فأرسلهم ابن المدبر إليه فتحولت بذلك هيبة ابن المدبر إلى ابن طولون ، أما شقير فقد نجح ابن طولون فى كشف دوره فى التجسس عليه ومراقبته ، بعد أن حصل على نصوص المكاتبات التى كان يرسلها عنه إلى عاصمة الخلافة ، على أن سلطان شقير هذا انتهى من مصر بعد عزله من منصبه عقب مقتل المعتز

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٠٥ .

وزوال سلطان والدته[1]، فصار أمر البريد بيد أحمد بن طولون ، الذى ضمن كتمان أسراره وأخباره ونواياه عن دار الخلافة .

اتفق موت المعتز فى رجب عام ٢٥٥هـ وقيام المهتدى بن الواثق بأمر الخلافة ، كذلك قتل باكباك ورد جميع ما كان بيده إلى ياركوج صهر أحمد بن طولون ، فكتب ياركوج إلى أحمد بن طولون يقول له « تسلم من نفسك لنفسك »[2]، وزاده الأعمال الخارجة عن اقطاعه وكتب إلى إسحق ابن دينار متولى الإسكندرية أن يسلمها لأحمد بن طولون فعظمت لذلك مكانته ، وكثر قلق ابن المدبر وغمه ودعته ضرورة الخوف من ابن طولون إلى التقرب إليه ، وقد اضطر ابن المدبر إزاء هذه التطورات أن يفكر فى ترك مصر ، وعندما عرضت عليه ولاية الخراج بالشام اعتبر الفرصة مواتية للخلاص وقبل هذا العرض[3].

لقد كانت ولاية ياركوج تؤذن بتحقيق رغبة أحمد بن طولون ليس فى الحصول على سلطان مطلق فى مصر ، بل فى تولى أمور البلاد رسميًا ، فقد أطلقت يد ابن طولون منذ عام ٢٥٧هـ فى جميع شئون البلاد ، ولما تولى الخليفة المعتمد الخلافة (٢٥٦-٢٧٩هـ) تخوف من نفوذ ابن طولون المتزايد ، وأراد التخلص منه بطريقة ذكية ، فكتب إليه يطلب منه الرحيل

---

(١) يقال أن أحمد بن طولون استدعى شقيراً ليسأله عما فعله من إرسال الكتب للخلافة التى يقول فيها أن ابن طولون يعمل للاستقلال بمصر ، وعندما وصل إليه ضربه رجال الشرطة حتى مات بعد ذلك من أثر الضرب .
مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١١٧ ؛ محمود عرفة : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص٣٦ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٠٥ .

(٣) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١١٧ .

من مصر ليتسلم منصباً هاماً فى عاصمة الخلافة بغداد ، لكن ابن طولون أدرك على الفور نوايا الخليفة الحقيقة وهى أبعاده عن مصر ، لذلك بعث كاتبه محمد الواسطى إلى بغداد محملاً بالهدايا للخليفة الجديد ، واستطاع بفضل صهره ياركوج وأصدقائه فى بلاط الخليفة الجديد تثبيت أمره فى مصر وموافقة الخليفة المعتمد على ذلك[١] .

لم يفقد أحمد بن طولون نفوذه بعد وفاة صهره ياركوج ، لأن نفوذه لم يعد يعتمد بعد ذلك على باكباك أو ياركوج أو غيرهما من قواد الأتراك ، وإنما اعتمد على قوة شخصيته وقوة جيشه وعسكره ووفرة ماله ، وأصبح ابن طولون بذلك أميراً على مصر ولم يعد مجرد نائب لقائد تركى .

وما كاد الأمر يستقيم لابن طولون فى حكم مصر حتى واجهته فتن داخلية ، بعضها كان يمثل ثورات قام بها العلويين ضد الخلافة العباسية ، وكان على ابن طولون أن يتصدى لها ليثبت مركزه فى البلاد ويدافع عن دولة الخلافة والظهور بمظهر رجلها المخلص القوى ، وقد أخمد ابن طولون ثورتين قام بها أنصار العلويين (الشيعة) ، كانت إحداهما فى مكان يسمى الكنائس (بين الإسكندرية وبرقة) ، وكان على رأسها القائد التركى (بغا الصغير) وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا[٢] ، الذى إدعى لنفسه هذا النسب العلوى حتى يكسب إلى جانبه أنصاراً علويين ، وقد قام بثورته فى جمادى الأولى من عام ٢٥٥هـ ، فسار بقواته إلى الصعيد فتصدت له قوات أحمد بن طولون وتمكنت من القضاء عليه ، فقتل هناك وحمل رأسه إلى مصر فى شعبان من السنة نفسها[٣] .

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٧٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٢ ، ص٦ .

(٣) ابن تغرى بردى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٦ .

أما الثورة الثانية التى واجهها أحمد بن طولون فى مصر ، فقد قادها رجل يعرف بابن الصوفى ، وهو إبراهيم بن محمد يحيى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ، فى منطقة إسنا فى شهر ذى القعدة عام ٢٥٥ هـ ، إذ استولى على المدينة وقتل أهلها ، وقيل أن ابن طولون أرسل إليه جيشًا بقيادة ابن يزداد قائد جيشه ، إلا أن ابن الصوفى نجح فى الانتصار عليه فى ربيع الأول عام ٢٥٦ هـ ، فأرسل إليه ابن طولون جيشًا آخر بقيادة القائدين ابن الحسين وابن عجيف ، فى إخميم استطاعا هزيمة ابن الصوفى الذى فر إلى الواحات ، والتى اختفى بها لمدة سنتين ثم هرب إلى أسوان ثم إلى عيذاب على البحر الأحمر ثم إلى مكة ، وهناك قبض عليه واليها وأرسله إلى ابن طولون فحبسه مدة ثم اطلقه فذهب إلى المدينة وأقام بها حتى مات[١] .

كذلك قضى ابن طولون على ثورة قام بها رجل فى الصعيد الأقصى يدعى عبد الرحمن العمرى ، ويدعى انتسابه للخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ويبدو أن هذا الرجل لم يرد الخروج على ابن طولون ، وإنه كان يتخذ من حربه لقبائل البجة ، التى كانت تسكن الصحراء الشرقية ، نوعاً من الجهاد فى سبيل الله ومحاولة نشر الإسلام بينهم ، وقد نجح العمرى فى ذلك ، بعد أن قدم من القيروان إلى تلك البلاد ، واستقر عند ثغر عيذاب على البحر الأحمر ، واستطاع أن يستميل إليه قبائل تلك المنطقة ويمنع خطر عدوانها على حدود مصر ، ويمنع سلبهم ونهبهم للناس ، فدان له البجه وأهل منطقة الصحراء وإقليم العلاقى بالطاعة ودفعوا

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص٢١٣ ؛ المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٣ .

له الجزية ، وكون العمرى لنفسه فى تلك المنطقة ما هو أشبه بولاية مستقلة[١].

ولم يرتح ابن طولون لذلك النفوذ الذى حققه العمرى فى جنوب البلاد، وخشى أن يمتد ويشمل سائر الصعيد ، لذلك أرسل ابن طولون إليه بعض القوات ، ولكنه هزمها ، فتكررت الحروب والمعارك بينهما ، إلى أن نجح بعض غلمان ابن طولون فى التمكن من العمرى وقتله وإرسال رأسه إلى أحمد بن طولون[٢].

لم تكن ثورة العمرى هى آخر الثورات التى تعرض لها حكم ابن طولون فى مصر ، فقد قامت ثورة أخرى استمرت ثلاث سنوات (٢٦٥ ـ ٢٦٨هـ) وكانت من أقرب الناس إليه وهو ابنه الأكبر العباس .

وقد حدثت هذه الثورة عندما كان أحمد بن طولون بالشام عام ٢٦٥هـ، وأقلقته قلقًا عظيمًا ، واضطرته إلى العودة إلى مصر ، يذكر ابن تغرى بردى : « خرج العباس بن أحمد بن طولون إلى برقة مخالفًا لأبيه ، وكان أبوه قد استخلفه على مصر لما توجه إلى حصار سيما الطويل فى أنطاكية ...»[٣]. ويذكر المؤرخون أن من أسباب هذه الثورة غيرة العباس من الواسطى كاتب أبيه الذى كان له حظوة كبيرة عند أبيه ، كذلك تقريب العباس لكثير من الأدباء والعلماء فى غيبة أبيه ورغبته فى إسناد بعض الأعمال الإدارية والحربية إليهم ومعارضة الواسطى فى ذلك ووقوف ابن

---

(١) إبراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية، ص٢٦٨ ؛ عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٨٠ .

(٢) ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون . برلين ١٨٩٤ ، ص٢٧ .

(٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٣ ، ص٤٠ .

طولون فى صف الواسطى ، ومن تلك الأسباب ـ أيضًا ـ إحاطة بعض الناس بالعباس وتحريضهم له ضد أبيه لطمعهم أو لرغبتهم فى التخلص من أحمد بن طولون ، وربما كان من هؤلاء المحرضين من كان يعمل لمصلحة أبى أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة المعتمد وعدو الطولونيين ، وقد كان خروج العباس من مصر عند اقتراب عودة أبيه من الشام ، وقد أخذ معه ثمانمائة فارس وعشرة آلاف من مشاة أبيه من السودانيين الأقوياء ، كما أخذ مليونى دينار كانت فى بيت المال واقترض من كبار التجار مائتى ألف دينار[١]، ثم سار مع أتباعه إلى الجيزة ومنها سار إلى الإسكندرية ، ثم إلى برقة وأخذ معه الواسطى مكبلاً بالحديد ، وقد أخذ العباس يحلم بتكوين إمبراطورية بشمال إفريقية وحاصر طرابلس ونهب (لبدة)[٢]، ولكنه لم يوفق فى النهاية لأنه اصطدم بإبراهيم بن الأغلب أمير الأغالبة بشمال إفريقية ، ويقال إن قوة من قوات إلياس بن منصور زعيم البربر فى جبل نفوسة وأخرى من قوات إبراهيم بن الأغلب هزمته واضطرته إلى الوقوف[٣].

وقد رجع أحمد بن طولون من الشام وسار إلى الإسكندرية وفكر فى متابعة السير خلف ابنه العباس ، ولكن الواسطى كان قد هرب من سجن العباس وقابل أحمد بن طولون فى الإسكندرية وأخبره بخبر العباس وأقنعه بعدم السير بنفسه ضده ، وقد حاول أحمد بن طولون استمالة ابنه

---

(١) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١١٩ .

(٢) لبدة : مدينة بين برقة وإفريقية ، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٧ ، ص١٧٢ .

(٣) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٤ .

العبـاس وإقناعـه بالعـودة ، وتبـودلت بين الاثنين عـدة رسـائل ولكن دون جدوى[1]، وأخيـراً سير أحـمد بن طولون قـوة صغيـرة قضت على جيش العباس وقبضت عليه وعلى أتباعه المقربين واقتادتهم إلى الفسطاط ، وقد أمر أحمد بن طولون بمعاقبة أتباع العباس أمام عينيه ، ثم انتهى الأمر بضربه مائة سوط وزجه فى السجن[2]، حيث بقى حتى قتل عند تولى أخيه خمارويه العرش بعد أبيه عام ٢٧٠هـ، إذ قتله حراسه ، حتى يضمنوا عدم وقوع خلاف بين الأخوين ، أو لأن العباس امتنع عن مبايعة خمارويه على قول ابن تغرى بردى[3].

بناء القطائع :

حين تمت السيادة الداخلية لابن طولون ، وتخلص من الصعاب التى واجهته ، وأصبح له الإشراف على الخراج والسيطرة على كل بلاد مصر ، استأذن الخليفة فى اتخاذ الجند والإكثار من الموالى والغلمان ، فسمح له الخليفة بذلك فكثر جنده وعبيده ورجاله من السودانيين والروم والأتراك ، فضاقت بهم الفسطاط والعسكر ، فأراد ابن طولون أن يبنى لهم عاصمة جديدة ، يقول المقريزى : « وصار أحمد بن طولون من كثرة العبيد والرجال والآلات بحال يضيق به داره ولا يتسع له فركب إلى سفح الجبل فى شعبان عام ٢٥٥هـ، وأمر أن تحرث قبور اليهود والنصارى واختط موضعها فبنى القصر والميدان ، وتقدم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء لعمارة الفسطاط ،

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٣ ، ص٢٢٣ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٥ .

(٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٣ ، ص٤٠ .

ثم قطعت القطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها ، فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم وكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم ، وبنى القواد مواضع متفرقة فعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران وسميت أسواقها ، فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين ، وسوق الفاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين ... فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام ... وبنى أحمد ابن طولون قصره ووسعه وحسنه وجعل له ميداناً كبيراً يضرب فيه بالصوالجة فسمى القصر كله الميدان »[1] .

وقد شرع ابن طولون فى بناء القطائع عام ٢٦٣هـ واختار موقع هذه المدينة فى مكان يقع إلى الشرق من مدينة العسكر وإلى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط ، حيث يوجد الآن ميدان صلاح الدين .

وتعد القطائع امتداداً للعاصمتين القديمتين الفسطاط والعسكر ، صوب الشرق فى المنطقة ما بين قبة الهواء (القلعة الحالية) إلى جامع ابن طولون طولاً ، ومن قبة الهواء إلى حى زين العابدين الحالى عرضًا ، وكانت مساحتها وقت التأسيس ، ميلاً فى ميل[2] .

وقد سميت المدينة بالقطائع لأنها ــ كما ذكرنا ــ قطعت وقسمت على الجند ، وسميت كل قطيعة باسم من سكنها . وتشبه القطائع مدينة سامراء

(١) المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٠٦ .

(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٤٤ .

بالعراق فى أوجه كثيرة ، حيث أن الخليفة العباسى المعتصم كان قد رأى بعد أن صعب عليه التوفيق بين سكان بغداد وجنده من الأتراك أن يبنى مدينة جديدة ، فأمر قائده التركى أشناس ، فبنى له مدينة سامراء ، وأسكنها الجند الأتراك ، وكذلك فعل أحمد بن طولون ، فقد كان جيشه كبيراً ويتكون من عناصر أجنبية مختلفة كالروم والأتراك والسودانيين ، فضاقت بهم الفسطاط والعسكر ، فأسرع ابن طولون وبنى لهم العاصمة الجديدة ، كذلك كان طراز العمارة والزخرفة فى القطائع يشبه تماماً الطراز الذى اتبع فى بناء وزخرفة دور سامراء ، وكذلك نلاحظ أن مئذنة الجامع الطولونى الذى بناه أحمد بن طولون بنيت على نمط مئذنة جامع سامراء ، وهكذا جاءت القطائع متشابهة تمام الشبه لعاصمة الخلافة العباسية الجديدة سامراء ، ولم يكن قد مضى على تأسيسها وقتذاك أكثر من أربع وثلاثين سنة(١) .

القصـــــر :

كان قصر ابن طولون أول ما بنى فى القطائع ، وقد جعله يشرف على ميدان كبير أمامه ، يلعب فيه بالكرة (الصولجانة) فسمى القصر والميدان بالميدان ، وقد جعل ابن طولون لقصره عدة أبواب ونوافذ تفتح على سائر النواحى ، وكانت هذه الأبواب لا تفتح كلها إلا فى يوم العيد ويوم عرض الجيش أو يوم صدقة ، وما كانت تفتح الأبواب إلا بترتيب فى أوقات معروفة ، وقد الحق ابن طولون بالقصر حديقة واسعة حمل إليها

---

(١) سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ١ ، ص١٥١ ؛ عبد الرحمن زكى : الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع ، ص٩٠ .

الماء من عين الصحراء الجنوبية بواسطة قناة معلقة أقامها له مهندس قبطى ، وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون على عروض الجنود والخيل[1] .

جامع ابن طولون :

كان أهم المبانى التى أنشأها أحمد بن طولون فى القطائع هو جامعه العظيم ، الذى كان يعرف أيامه بالجامع الجديد ، تمييزاً له عن المسجد العتيق بالفسطاط (جامع عمرو بن العاص) ، وقد اختار ابن طولون موقع هذا الجامع بين مدينة الفسطاط وقبة الهواء (مكان القلعة الآن) على جبل يشكر ، وقد بدئ فى بنائه عام ٢٦٣هـ وانتهى منه عام ٢٦٥هـ ، ويذكر المؤرخون أن ابن طولون أراد أن يكون المسجد مصلى لجنده بعد أن ضاق مسجد العسكر بالمصلين ، وأن يكون مكاناً تذاع منه قرارات الدولة وملجأ وحصناً منيعاً يلجأ إليه إذا دهمه خطر فى الداخل أو من الخارج ، ويقال إن الذى بناه ـ أيضاً ـ مهندس قبطى وإنه كوفئ على عمله بعشرة آلاف دينار ومعاش له مدى الحياة[2] ، وقيل أنه صرف على البناء ما يزيد على المائة وعشرين ألف دينار وقيل مائة وأربعين ألف دينار[3] ، ويقال إن أحمد بن طولون قال أريد بناءاً إذا احترقت مصر بقى وإن غرقت بقى ، فأشاروا عليه باستعمال الآجر الأحمر والجير والرماد ، ولذلك بنى جامعه من هذه

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٠٧ ؛ مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٦٦ ؛ حسن الرزاز : عواصم مصر الإسلامية ، دار الشعب ١٩٩٦م ، جـ٢ ، ص٧٦ .

(٢) حسن الرزاز : عواصم مصر الإسلامية ، جـ٢ ، ص٨٠ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٣ ، ص٨ .

المواد، كما يقال أيضًا إن أعمدته أتخذت من الطوب الأحمر ، وكان هذا لأول مرة بعد أن كانت أعمدة المساجد تؤخذ من قبل من أعمدة الآثار القديمة ومن الكنائس ، وقد استعملت فى بنائه طريقة الأقواس المدببة Pointed Arches (الكمرات)[1] . وكان للمسجد منارة (مئذنة) تخالف فى مظهرها منارات المساجد جميعها فى مصر ، ويقال فى شأنها إن الصناع قالوا لأحمد بن طولون : « على أى مثال نصنع المنارة ؟ وما كان يعبث قط فى مجلسه فأخذ درجًا من الكاغد وجعل يعبث به فخرج بعضه وبقى بعضه فى يده ، فعجب الحاضرون ، فقال أحمد صنعوا المنارة على هذا المثال فصنعوها»[2] .

وقد أقيم المسجد على مساحة فدانين ونصف ، وهو بذلك يعتبر ثالث أكبر المساجد فى العالم ، وهو على هيئة مربع ومقاييسه ٥ر١٦٢×٥ر١٦١ مترا أى حوالى ٢٦١٤٣ متراً مربعًا تقريبًا ، وفى وسطه صحن مكشوف مربع يبلغ ٥ر٩٢×٨ر٩١مترًا ، وجدران المسجد الداخلية محلاة بشبابيك ذات عقود مدببة عددها (١٢٩) مغطاة بالجص المزين بالنقوش من كل نوع ، وهو متعدد المحاريب كما هو الحال فى الكثير من المساجد مثل الجامع الأموى والجامع الأزهر ، ومحاريب جامع ابن طولون خمسة[3]، وقد بنيت خلف هذا الجامع ميضاة كما الحقت به خزانة للأدوية بها خدم ، وعين للإشراف عليها طبيب كانت مهمته السهر على راحة المصلين وعلاج ما ينتابهم أثناء وجودهم فى الجامع[4] .

---

(١) زكى حسن : الفن الإسلامى فى مصر ، القاهرة ١٩٣٥ ، ص٤١ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٣ ، ص٨ .

(٣) سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ١ ، ص١٤٨ ؛ حسن الرزاز : عواصم مصر الإسلامية ، جـ٢ ، ص٨١ .

(٤) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٦٨ .

أما ما أثير حول بعض القصص التى قيلت عن المال أو الكنز الذى عثر عليه ابن طولون ، ومكنته من إقامة مثل هذا الجامع الكبير ، فتشير سعاد ماهر : « فى اعتقادى أن قصة المال هذه إنما هى من قبيل الأساطير التى يميل جمهور مؤرخى العصور الوسطى إلى تكرارها فى مثل هذه المجالات ، بقصد التنويه إلى أن مثل هذه النفقة البالغة لا يستطيع الخليفة أو السلطان تدبيرها إلا إذا أمده الله سبحانه وتعالى برزق غيبى غير معلوم، وذلك لا يكون إلا فى الكنوز المخبأة »[1]، ويضيف البعض أن أحمد بن طولون كان يلجأ إلى الناحية الدينية إذا أراد أن يقنع شعب مصر بأمر يريده وليس هناك ما يحول دون القول بأنه أشاع مسألة الكنز حتى يقبل الناس على الصلاة فى مسجده[2].

البيمارستان :

لم تقتصر منشآت أحمد بن طولون على القطائع والقصر والجامع ، بل قام ببناء بيمارستان عام ٢٥٩هـ لعلاج مختلف الأمراض ، وقد ألحق به حمامين شعبيين يستعملهما الناس على أختلاف أديانهم ومذاهبهم ، وقد أعد ابن طولون هذا البيمارستان على ما تُعد به الآن المستشفيات الحديثة ، إذ خصص له الأطباء والصيادلة والعمال والممرضين ، كما جعل صرف الدواء فيه بالمجان لعامة الناس ، ومن طريف ما يروى أن علامة شفاء المريض لكى يخرج من البيمارستان كانت تقديم دجاجة ورغيف ، فإذا

---

(١) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ١ ، ص١٤٢ .

(٢) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٦٥ ، حسن الرزاز : عواصم مصر الإسلامية ، جـ٢ ، ص٧٩ .

استطاع أن يأكلهما عد علاجه منتهياً ويخرج من البيمارستان ، وقد تكلف بناء هذا البيمارستان وإعداده ستين ألف دينار[1].

استقلال ابن طولون بمصر (٢٦٦ ــ ٢٧٠هـ) :

لم يكد أحمد بن طولون يتخلص من الصعاب التى اعترضت طريق ولايته على مصر ، حتى إعترضته صعاب أخرى كانت أكبر وأخطر ، فقد كان أبو أحمد الموفق طلحة ، أخو الخليفة المعتمد على الله العباسى هو مصدر هذه الصعوبة ، إذ كان الموفق قد إستبد بأمر الخلافة بعد تصديه لثورة الزنج ضد الخلافة العباسية ، ونجاحه فى معالجتها والقضاء عليها بعد أن عجز الخليفة عن ذلك ، وكان العداء قد بدأ بين الموفق وابن طولون حين طلب الموفق من ابن طولون أن يمده بالمال اللازم للقضاء على ثورة الزنج ، بعد أن انقطعت عن الدولة موارد ولايتها الشرقية بسبب تقاعس أهلها عن دفع الخراج ، وعلى الرغم من أن مصر لا تقع فى القسم الشرقى الخاضع للموفق ، إلا أن أحمد بن طولون أرسل إلى الموفق مع رسوله نحرير مليونا ومائتى ألف دينار وودع الرسول بنفسه حتى العريش[2]، لكن الموفق استقل هذا المبلغ وأرسل إلى ابن طولون يؤنبه ويقول له إن الحساب يوجب إضعافه ، عندئذ كتب إليه ابن طولون يقول : (على أنى لا أعرف السبب الذى يتيح الوحشة ويوقعها ولا الأمر الذى يدعو إليها ويوجبها ، إذ لم يكن بينى وبينه معاملة توجب مشاجرة أو تحدث منافرة ، وكان العمل

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٣ ، ص١٢ ؛ المقريزى: المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٠٧ .

(٢) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٣٦ .

أنا سبيله ليس له والمكاتبة فى أموره ليست إليه وتقليدى ليس من قبله ولا أنا من ولاته »[1].

وقد أمر الموفق قائده موسى بن بغا بقيادة حملة عسكرية من بلاد الجزيرة للذهاب إلى مصر والقضاء على ابن طولون ، وقد ثار جنود موسى ابن بغا لتأخر أعطياتهم ، واضطر موسى بن بغا إلى العودة قبل أن يتجاوز الرقة ، وفشلت محاولة الموفق الأولى ضد أحمد بن طولون ، ولكن الموفق لم يكتف بهذا ، بل إنه اتصل برئيس الحامية المصرية فى الرقة المسمى (لؤلؤ) واستطاع أن يستميله إليه ويقنعه بالذهاب بالحامية المصرية التى معه والإنضمام إليه ، كما طرد ابن صفوان نائب ابن طولون فى قرقيسياء[2]، أما ابن طولون فقد أظهر من جانبه ، مدى قوته فى مصر فأرسل قواته لتستولى على الشام بعد وفاة واليها واضطرب الأمور فيها ، فنجح فى ذلك ودعى له من فوق منابرها[3]، وبينما هو فى دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسى المعتمد ينبئه فيه عن رغبته فى اللجوء إليه فى مصر والاحتماء به ضد استبداد أخيه الموفق ، فرحب ابن طولون بذلك وأرسل إليه كتاباً يرجوه فيه بتنفيذ هذه الرغبة[4]، إذ رأى ابن طولون فى ذلك تقوية لمركزه فى مصر وفى وجه الموفق ، لكن الأمر لم يتم بسبب تصدى

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٥ .

(٢) قرقيسياء : بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق ، على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور فى الفرات ، فهى مثلث بين الخابور والفرات .
ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٧ ، ص٣٥ .

(٣) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٠٣ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٣ ، ص٤٥ .

الموفق للخليفة وتصدى والى الموصل والجزيرة إسحاق بن كنداج ونجاحه فى العودة بالخليفة إلى سامراء .

كانت مكافأة ابن كنداج من الموفق لنجاحه فى إعادة الخليفة ، أن خلع عليه ولقب بذى السيفين ، وعقد له الموفق على مصر مكان ابن طولون . وقد أغضب هذا كله أحمد بن طولون فحاول أن يستولى على مكة ولكنه فشل وطرد جنوده ، لذلك أعلن ابن طولون استقلاله بمصر عن دولة الخلافة عام ٢٦٦هـ ، وإلغاء التبعية السياسية لها مع بقاء التبعية الروحية فقط ، والتى تتمثل فى الدعاء للخليفة المعتمد من فوق منابر بلاده يوم الجمعة مع الدعاء له ، كما دعا ابن طولون إلى خلع الموفق من ولاية العهد ولعنه من فوق المنابر لمخالفته أخيه الخليفة المعتمد وتضييقه عليه ، وذلك فى اجتماع دينى عقده فى دمشق ، وقد رد الموفق طلحة على ابن طولون بالأمر بلعنه من فوق منابر ولايات الدولة العباسية ، بعد أن أخذ على ذلك الموافقة ـ كرهاً ـ من أخيه الخليفة المعتمد ، وإعلان خلعه عما فى يده من البلاد وتوليه وال غيره ، وكان لعن أحمد بن طولون من فوق منابر ولايات الخلافة بصيغة : « اللهم إلعنه لعناً يفل حده ، ويتعس جده ، واجعله مثلاً للغابرين ، إنك لا تصلح عمل المفسدين »[1].

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسى كان يميل إلى ابن طولون ، إلا إنه أرغم على عزله من ولاية الثغور الشامية ، ولكنه لم يلبث أن ردها إليه بعد ذلك .

وقد فعلت سياسة الموفق فعلها فى الناس ، فقد كان من أثر لعن الخليفة

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص٢٢٩ ؛ المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٥ .

ولعن ابنه المفوض وأخيه الموفق لابن طولون ، وانضمام لؤلؤ ومن معه من القواد ومنافسه ابن كنداج له وتوليته على مصر والشام ، أن ضعف نفوذه الأدبى فى البلاد التى دانت له ولسلطانه من قبل ، فحلت الهزيمة بجيشه فى مكة ولعن فى المسجد الحرام[1]، كما كان من أثر هذه الدعاية الواسعة التى نشرها الموفق ضد ابن طولون ، أن حلت الهزيمة به لأول مرة فى طرسوس ومات أكثر جنده من البرد بسبب غرق امتعتهم[2]، كما ثار ضده والى المصيصة وهزم قواته فى الشام ، وهناك نزلت به علة الموت ، فأعد السير يريد مصر حتى بلغ الفرما فركب النيل إلى الفسطاط فدخلها فى ٢٠ جمادى الآخرة عام ٢٧٠هـ، وتزايدت به العلة حتى مات يوم الاثنين الثامن عشر من ذى القعدة من نفس العام ، وكان له من العمر خمسون سنة، بعد حكم لمصر استمر سبع عشرة سنة[3].

وكان ابن طولون قد مرض بمعدته وازداد عليه الإسهال ، وعلل الأطباء ذلك بكثرة شربه للبن الجاموس وحبه له ، ولما اشتدت عليه العلة نصحه طبيبه بالإمتناع مدة يومين عن الطعام تماماً ، ولكنه لم يتحمل الجوع فأمر بالطعام فاستدعى له خروفاً وفراريج فأكل منها فعاوده الإسهال وكانت فيه نهايته[4].

انجب ابن طولون ٢٢ مولوداً من بينهم ١٧ من الذكور ، وخلف فى خزائنه من الذهب النقد عشرة مليون دينار ، ومن المماليك سبعة آلاف

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ١١ ، ص٣٢٠ .
(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٣٦ .
(٣) حسن إبراهيم حسن : المرجع نفسه ، جـ٣ ، ص١٣٦ .
(٤) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٨٥ .

مملوك ، ومن الغلمان ٢٤ ألف غلام ، ومن الخيل الميدانية سبعة آلاف رأس ، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس ، ومن الدواب الخاصة ٣٠٠ ومن مراكبه الجياد مائة ، وكان ما يدخل إلى خزائنه فى كل سنة بعد مصاريفه مليون دينار[١] .

شخصية ابن طولون :

كان ابن طولون بعيد النظر عالى الهمة قوى البأس ، اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى برقة ومن النوبة إلى آسيا الصغرى ، وخشى إمبراطور الروم بأسه ، على الرغم من بُعد بلاديهما ، فأهدى إليه عدة مصاحف للقرآن الكريم ، وأرسل إليه من تحت يده من المسلمين .

وكان ابن طولون سياسيًا محنكًا ، وقائداً ماهراً ، خبيراً بأساليب الحروب وتعبئة الجيوش ، كما كان إدارياً حازمًا وقف على موارد الثروة على اختلافها ، وعرف كيف يستغلها لمصلحة دولته من غير أن يرهق الرعية بالضرائب والمكوس ، بل عمل على ترفيههم ونشر العدل بينهم ، فاستتب الأمن واستقرت الأمور وسادت الطمأنينة بين الناس[٢] .

وقد لجأ ابن طولون فى سبيل تثبيت قواعد حكمه إلى تأليف القلوب بالأموال والصدقات ، حتى أثر عنه أنه قال : « ينبغى للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكًا لا يزول به قلوبهم »[٣] ، كما ذكر أنه انفق (الكنز) الذى قيل إنه عثر

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٨٦ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٣٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٣ ، ص٨ .

عليه ، وكان يبلغ مليون دينار فى أبواب البر والصدقات ، فكان ينفق على مطبخه فى اليوم ألف دينار ، وكان يبعث بالصدقات إلى دمشق والعراق والجزيرة والثغور وبغداد وسامراء والكوفة والبصرة والحرمين وغيرها[١]، يذكر المقريزى : « وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة ، وكان راتبه لذلك فى كل شهر ألفي دينار سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم وسوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس فى القدور الفخار والقصاع على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة ، فى اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران على القدر ، وكانت تعمل فى داره وينادى من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر وتفتح الأبواب ويدخل الناس الميدان وابن طولون فى المجلس الذى تقدم ذكره ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته »[٢].

وكان ابن طولون من أهل القرآن إذا جرت منه إساءة استغفر وتضرع ، كذلك كان أكثر الولاة احتراماً لحفاظه[٣].

استغل موارد البلاد لصالح شعب مصر ، وعمل على رفع المعاناة عنهم حين أسقط المكوس والضرائب غير الشرعية التى ابتدعها ابن المدبر وعرفت بـ (المعاون والمرافق) ، وكان مقدار هذه الضرائب التى اسقطها ١٠٠ ألف دينار كانت تحصل منهم فى كل عام دون وجه حق ، وقد عمل

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٣ ، ص١٢ .
(٢) المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٠٨ .
(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٣٧ .

ابن طولون على إصلاح أحوال مصر خاصة فى الزراعة ، فزاد خراج الأرض لزيادة محاصيلها وإقبال الناس على الزراعة والإنتاج ، فبلغ الخراج ٤ ملايين و٣٠٠ ألف دينار فى العام ، بعد أن كان قد انتقص قبله إلى المليون دينار فقط ، وقد ساد الرخاء فى عهده ورخصت الأسعار حتى بيع العشرة أرادب من القمح بدينار واحد(١) .

لم يهو أحمد بن طولون إلا كل عظيم شأنه فى ذلك شأن مؤسسى الدول وعظماء الرجال ، ومن ذلك اهتمامه بسباق الخيل ، وقد قيل إنه أنشأ حلبة كبيرة للسباق أمام قصره كانت تطلق فيها الخيول الأصيلة لتتسابق ، ويلعب الفرسان على ظهورها لعبة الصوالجة (البولو) ، وفى أيام الأعياد كانت تزين هذه الحلقة وكانت تقام فيها الألعاب ويسمح للشعب بمشاهدتها، كما بنى أحمد بن طولون مكاناً يستعرض فيه الخيل سماء « المنظر » أعتبره المؤرخون من عجائب الإسلام(٢) .

ولم يكثر أحمد بن طولون من الجوارى والغلمان فى قصره ، فقد كان يميل إلى الجد وقضاء أوقاته فيما ينفع الناس ، ولذلك قيل أنه كان يخرج للصلاة ويستمع إلى شكاوى الرعية وتظلماتهم(٣) .

وقد سك ابن طولون ديناراً خاصًا بدولته عام ٢٦٦هـ سمى بالدينار الأحمدى ، والذى كان عياره ٢٤ قيراط ذهباً خالصًا ، وكان الطلب عليه متزايداً فى الأسواق العالمية بسبب شدة نقاوته(٤) .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٣٧ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ١ ، ص٦٠ .

(٣) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٢٤ .

(٤) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٨٧ .

خمارويه والدولة الطولونية (٢٧٠ ـ ٢٨٢هـ) :

بعد وفاة أحمد بن طولون اجتمع الجند على ما قضت به العادة فى ذلك الوقت ، وبايعوا ابنه خمارويه فى ١١ من ذى القعدة عام ٢٧٠هـ، ولم يستطع الخليفة العباسى إلا الموافقة على تعيين خمارويه الذى كان له من العمر عشرون سنة .

على الرغم من أن خمارويه ورث عن أبيه دولة قوية وغنية بعد أن وطد أركانها وحارب أعداءها وانتصر عليهم ، إلا أنه كانت هناك بعض المصاعب التى واجهت خمارويه لتوطيد حكمه ، كان أولها الموفق طلحة أخو الخليفة المعتمد والحاكم الفعلى لدولة الخلافة ، الذى لم يعترف بولاية خمارويه ، فقد ظل الموفق طلحة على عدائه للطولونيين بعد موت أحمد ابن طولون ، ويقال إن الموفق طلحة استند على أن خمارويه لم يأخذ تفويضًا شرعيًا بولاية مصر ، فى حين كان إسحق بن كنداج قد أخذ تفويضًا بحكمها من الخليفة ، لذلك شن الموفق حرباً على خمارويه ، وقد اتفق مع بن كنداج وحليفه محمد بن ديوداد أبى الساج عامل أرمينية والجبال على أن يسيروا قوات ضد خمارويه ، وقد سارت جيوش إسحق بن كنداج ومحمد بن أبى الساج فعلاً ، كما سارت قوة أخرى من قبل الموفق وعلى رأسها ابنه أبو العباس أحمد ، واحتل هؤلاء جميعاً بلاد الشام ودخل أبو العباس أحمد دمشق[1].

وقد اهتم خمارويه بهذا الخطر المحدق به وأرسل جيشًا تحت قيادة كاتب أبيه أبو عبد الله أحمد بن محمد الواسطى ، كما أرسل فى البحر

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٣٨ .

اسطولاً حربيًا ، لكن الأعداء هزموا الواسطى عند شيزر على نهر العاصى[1].

وهناك من يقول إن الواسطى كان يخاف أن يقتله خمارويه لأنه أشار عليه بقتل أخيه العباس الذى كان فى سجنه عند اعتلاء خمارويه للعرش ، ولذلك اتصل الواسطى بأبى أحمد الموفق وهون له أمر خمارويه[2].

على كل حال فقد وصلت أخبار الهزيمة إلى خمارويه فسارع بالخروج بنفسه إلى الشام عام ٢٧١هـ ، وكان جيشه نحو سبعين ألفاً وجيش الموفق نحو أربعة آلاف ، وتقابل الجيشان عند نهر أبى فطرس فى فلسطين ، فهزم جزء من جيش خمارويه كان يقوده هو بنفسه ، فعاد راجعًا إلى الفسطاط غير أن كمين الجيش الطولونى خرج بقيادة سعد الأيسر أو (الأعسر) وهم لا يعلمون بهزيمة خمارويه وفراره ، وانقضوا على جيش أبى العباس حتى هزم وارتد إلى دمشق فلم تفتح له ، وتقدم سعد الأيسر مع الواسطى فدخلا دمشق ودعوا فيها لخمارويه[3].

وقد خرج خمارويه مرة ثانية من الفسطاط فى ذى القعدة عام ٢٧٢هـ وتقدم حتى دخل دمشق فى المحرم عام ٢٧٣هـ ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج فى أعماله حتى سامراء ، وكان من أثر هذه الإنتصارات أن تم عقد صلح بين خمارويه والموفق طلحة مقابل بعض الأموال يبذلها خمارويه له ، فوافق الموفق طلحة وقدم رسوله بشروط الصلح إلى الفسطاط فى رجب عام ٢٧٣هـ ، وكان أهم ما فيها اعتراف الخليفة المعتمد وأبى أحمد الموفق طلحة

---

(١) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٠٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٥٠ .

(٣) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٠٧ .

وابنه إبى العباس ـ بخط أيديهم ـ بولاية خمارويه وولده على مصر والشام لمدة ثلاثين سنة ، وهنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر والدعاء له مع الخليفة[1]، وقد ظلت علاقة خمارويه بالموفق طيبة حتى وفاة الموفق عام ٢٧٨هـ .

ولما توفى الموفق طلحة بايع كبار قواد دولة الخلافة بولاية العهد ابنه أبا العباس أحمد بن الموفق ، الذى تحولت إليه سلطة أبيه ولقب بالمعتضد ، وقد سار المعتضد على سياسة أبيه فى إضعاف نفوذ عمه الخليفة المعتمد والاستئثار بالسلطة الفعلية فى دولة الخلافة ، ولما توفى الخليفة المعتمد فى رجب عام ٢٧٩هـ[2]، بويع المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق بالخلافة ، واستطاع خمارويه أن يتقرب للخليفة الجديد بالهدايا ، فأقره على ولاية البلاد التى كانت فى حوزته ، وفى شهر ربيع الأول عام ٢٨٠هـ وصل إلى مصر كتاب المعتضد بولاية خمارويه وولده لمدة ثلاثين سنة من الفرات إلى برقة ، وجعل له الصلات والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل لدولة الخلافة فى كل عام مائتى ألف دينار عما مضى ، وثلثمائة ألف عما هو قادم[3].

وكان من أثر سياسة حسن التفاهم بين خمارويه والخليفة المعتضد أن عرض خمارويه على الخليفة زواج ابنته أسماء (قطر الندى) من المكتفى بالله ابن الخليفة ، لكن الخليفة اختارها لنفسه زوجة له بعد أن سمع عن

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص٢٣٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٥٠ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٣٨ .

(٣) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٨٨ .

جمالها الزائد وأدبها الجم وحسن خلقها وتربيتها ، فتزوج منها عام ٢٨١هـ وأصدقها مليون درهم[١]، ودخل بها ببغداد فى آخر هذا العام بعد إعداد أعظم عرس جرى لفتاة فى التاريخ ، فقد جهز خمارويه ابنته قطر الندى جهازاً لم يسمع بمثله ، ويقال إنه كلفه مليون دينار فى حين لم يدفع الخليفة سوى مليون درهم ، فقد ذكر السيوطى : « كان من ضمن جهاز قطر الندى ألف تكه بجوهر وعشر صناديق جوهر ومائة هون ذهب »[٢]، كما ذكر ابن تغرى بردى : « وان من جملة جهازها دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة »[٣].

ولم يكتف خمارويه بهذا الإسراف فيما أعده من جهاز لابنته ، فقد غالى كذلك فى الإنفاق على انتقالها من مصر إلى بغداد ، فأمر بأن يبنى لها على رأس كل مرحلة من مراحل هذا الطريق الطويل قصر تنزل فيه ، يعد كل منها بكل ما تحتاجه العروس فى سفرها من الراحة وأسباب الرفاهية[٤]، كذلك أعطى ابنته على ما يقال مائة ألف دينار لتشترى بها من العراق ما قد تحتاج إليه مما لا يتهيأ مثله بمصر[٥].

ويقال أن الخليفة المعتضد أراد بهذا الزواج أن يفقر أباها خمارويه ،

---

(١) محمود أحمد الحفنى : ثلاثة أعراس أودت بالخزانة إلى الإفلاس ، المكتبة الثقافية ١٩٦٨، ص٤٣ .

(٢) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، جـ٢ ، ص١٤٨ .

(٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٣ ، ص٦١ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٦٢ ؛ محمود أحمد الحفنى : ثلاثة أعراس أودت بالخزانة إلى الإفلاس ، ص٤٣ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص١٤٨ .

وهذا ما حدث بالفعل ، فقد أدت المغالاة فى هذا الجهاز إلى افقار خمارويه وإفلاس خزينة مصر ، فتذكر المصادر العربية أن قطر الندى حين وصلت إلى بغداد كان خمارويه فى هم مقيم وكرب شديد ، مما دعاه إلى النقمة على ابن الجصاص الذى تولى أمر هذا الجهاز وأشار عليه بمحتوياته[١].

شخصية خمارويه :

كان خمارويه مسرفاً بطبعه ، محبًا للترف والظهور ، يبذل الأموال الطائلة على الأبهة والمبانى الفخمة والمتنزهات والمطابخ ، فقد بلغت نفقات مطبخه فى كل شهر ثلاثة وعشرين ألف دينار[٢]، سوى مصروف حريمه وجواريه وما يتعلق بهن ، وكان خمارويه قد زاد فى عمارة قصر أبيه وقام بتوسعته والزيادة فيه ، يذكر المقريزى : « أقبل على قصر أبيه وزاد فيه وأخذ الميدان الذى كان لأبيه فجعله كله بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ... وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد وزرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاسًا مذهبًا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر فى فساقى معمولة ويفيض منها الماء إلى المجارى تسقى البستان ، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ... »[٣].

---

(١) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص٥٩ ؛ محمود أحمد الحفنى : ثلاثة أعراس أودت بالخزينة إلى الإفلاس ، ص٤٣ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٣٩ .

(٣) المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٠٨ .

لم يكتف خمارويه بهذا بل اتخذ فى هذا البستان مجلساً له سماه دار الذهب ، يذكر ابن تغرى بردى عنه : « طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد فى أحسن نقش ، وجعل فى حيطانه مقدار قامة ونصف صوراً بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللائى تغنيه فى أحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة وفى آذانها الأخراص الثقال ، ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا القصر من أعجب ما بنى فى الدنيا »[1]، ويقال إن خمارويه بنى دار الذهب هذه لمحظيته بوران التى كان يحبها حبًا جماً ، حتى إنه حزن على موتها قبيل تجهيز ابنته قطر الندى حزناً شديداً[2].

وقد أمر خمارويه أيضًا بحفر بركة أمام دار الذهب ملأها زئبقًا ، ويذكر ابن تغرى بردى والمقريزى سبب ذلك : « أنه اشتكى إلى طبيبه كثرة السهر وعدم النوم ، فأشار عليه بالتكبيس فأنف من ذلك وقال لا أقدر على وضع يد أحد على ، فقال له الطبيب : تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل البركة المذكورة وطولها خمسون ذرعًا فى خمسين ذراعًا عرضًا وملأها من الزئبق فأنفق فى ذلك أموالاً عظيمة ، وجعل فى أركان البركة سككاً من فضة ، وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من فضة وعمل فرشاً من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ، ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزنانير الحرير التى فى حلق

(١) النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٥٣ ـ ٥٤ .
(٢) ابن تغرى بردى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٦١ .

الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه ، وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية وكان لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنو الزئبق »[1] .

كذلك كان من منشآت خمارويه ما يشبه أن يكون حديقة للحيوانات ، إذ جمع فيها من أنواع الطيور والحيوانات المتوحشة الشيء الكثير ، فقد بنى داراً للسباع عمل فيها بيوتاً كل بيت يسع سبعاً وزوجته ، فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع ولهم أوقات يفتح فيها سائر بيوت السباع فتخرج إلى القاعة وتتمشى فيه وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضًا ، فتقيم يوماً كاملاً إلى العشى فيصيح بها السواس فيدخل كل سبع إلى بيته لا يتخطاه إلى غيره ، وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له زريق ، قد أنس بخمارويه وصار مطلقًا فى الدار لا يؤذى أحداً ، ويقام له بوظيفته من الغذاء فى كل يوم فإذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه فرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدى ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به ، وكانت له لبؤة لم تستأنس كما أنس فكانت مقصورة فى بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه ، فإذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه ، فإذا كان نائمًا على سرير ربض بين يدى السرير وجعل يراعيه ما دام نائمًا ، وإن كان نائمًا على الأرض بقى قريبًا منه وتفطن لمن يدخل ويقصد خمارويه ، ولا يغفل عن ذلك لحظة واحدة وكان على ذلك دهره قد ألف ذلك ودرب

---

(١) النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٥٥ ؛ المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ١٠٩ .

عليه ، وكان فى عنقه طوق من ذهب فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائماً لمراعاة زريق له وحراسته إياه ، حتى إذا شاء الله إنفاذ قضائه فى خمارويه كان بدمشق وزريق غائب عنه بمصر ليعلم أنه لا يغنى حذر من قدر »[1].

وقد بنى خمارويه أيضًا دار الحرم ونقل إليها أمهات أولاد أبيه مع أولادهن وجعل معهن المعزولات من أمهات أولاده وأفرد لكل واحدة حجرة واسعة ، كذلك اتسعت اصطبلات خمارويه فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلاً مفرداً سوى الاصطبلات التى بالجيزة ، فإنه كان له فى عدة ضياع من الجيزة اصطبلات مثل نهيا ووسيم وسفط وطهرمس وغيرها ، ولكل اصطبل وكلاء لهم الرزق السنى والوظائف الكثيرة والأموال المتسعة[2].

وبلغ رزق الجيش فى أيام خمارويه تسعمائة ألف دينار فى كل سنة ، وكان خمارويه يخرج إلى مواضع لم يكن أبوه يمشى إليها كالأهرام ومدينة العقاب ونحو ذلك لأجل الصيد ، إذ كان شغوفًا به لا يكاد يسمع بسبع إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابة عنوة وهو سليم فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم ، فإذا أقدم خمارويه من الصيد سار القفص وفيه السبع بين يديه[3]، كذلك كانت حلبة السباق فى أيامهم

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٠ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١١١ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١١٢ .

تقوم مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الغلمان والعساكر على كثرتهم بالسلاح التام والعدد الكاملة ، فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون فى الأعياد ، وتطلق الخيل من غايتها فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضاً حتى يتم السبق[1].

هكذا كانت أحوال خمارويه فى الدولة الطولونية ، والتى يتضح من خلالها انصرافه إلى هواياته وملذاته ، على عكس ما كان أبوه .

وفاة خمارويه وضعف الدولة الطولونية :

يذكر المقريزى عن وفاة خمارويه عام ٢٨٢هـ : « قتل خمارويه بدمشق على فراشه ، ذبحه جواريه وخدمه وحمل فى صندوق إلى مصر ، وكان لدخول تابوته يوم عظيم ، واستقبله جواريه وجوارى غلمانه ونساء القطائع بالصياح وما يصنع فى المآتم ، وخرج الغلمان وقد حلوا أقبيتهم وفيهم من سود ثيابه وشققها ، وكانت فى البلد ضجة عظيمة وصرخة تتعتع القلوب حتى دفن وكانت مدته اثنتى عشر سنة وثمانية عشر يوماً »[2] ولا يوضح المقريزى السبب فى مقتل خمارويه ، أما ابن كثير فيذكر فى هذا الشأن : « عدا أحد الخدام من الخصيان على خمارويه فذبحه وهو على فراشه ، وذلك أن خمارويه أتهمه بجارية له »[3].

على أية حال كانت وفاة خمارويه بداية النهاية للدولة الطولونية ، إذ

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٢ .

(٢) المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٧ .

(٣) البداية والنهاية ، مكتبة الإيمان بالمنصورة (د. ت) جـ١١ ، ص٧٨ .

أن وفاة خمارويه أدت إلى انقسام البيت الطولونى وإنهياره ، ذلك أن التنافس ما لبث أن أشتد بين الأوصياء والمقربين للحاكم ، وبين القواد العسكريين الذين كانت فى أيديهم سلطة تحريك الجند واشعال ثوراتهم ، وقد ولى حكم الدولة الطولونية بعد خمارويه ثلاثة أمراء ضعاف من أمراء البيت الطولونى كانت تنقصهم الخبرة والدراية بأمور الحكم والسياسة ، فلم تطل مدة حكمهم مجتمعين عن عشر سنوات لتسقط الدولة الطولونية عام ٢٩٢هـ .

أبو العساكر جيش بن خمارويه :

لما توفى خمارويه بدمشق فى ذى القعدة ٢٨٢هـ، عاد ابنه أبو العساكر جيش إلى مصر ، فاختاره الجند على صغر سنة (١٤ عام) للحكم بعد أبيه . وقد اضطربت الأمور فى مصر فى عهده اضطراباً شديداً ، إذ انصرف إلى مسراته وقضى أوقاته فى الصيد وأبعد رجال السياسة والأدب والدين والحرب الذين كانوا مقربين فى عهد أبيه وجده ، وكانت حاشيته من العامة الجهال ، ويقال إنه كان من بين أفراد هذه الحاشية اثنان من المصارعين أحدهما اسمه خضر والثانى اسمه ابن البواش وغلام رومى اسمه بندقوش[(١)] ، ولذلك فإن كثيرين من رجال الدولة فروا من مصر إلى العراق والتجأوا إلى الخليفة المعتضد[(٢)] ، وخلعه أحمد بن طغان وكان على الثغر ، وخلعه طغج بن جف (أبو محمد الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية

---

(١) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٢٨ ؛ عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص٩٤ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٧ .

بمصر) وكان عاملاً على دمشق[1]، لم يقف الأمر بجيش بن خماريه عند هذا الحد ، فقد آلى على نفسه أن يشعل نار الفتن والثورات عندما سمع لمشورة بطانته من الغلمان بقتل عمه مضر بن أحمد بن طولون ، بعد أن أوهموه بأنه يتطلع إلى الحكم ويسعى للخلاص منه ، فقام جيش بالقبض عليه ودس إليه من قتله فى محبسه ، وادعى أنه مات ميتة طبيعية، وعندما ثار الجند وطالبوا من أبى العساكر جيش بأن يعتزل ليولوا عمه الآخر نصر بدلاً منه ، ما كان من أبى العساكر إلا أن ذبح عمه والقى برأسه إلى الجند الثائرين[2]، متصوراً أن ذلك العمل سيضعف من روح الثوار المعنوية ، ولكن الأمر كان على عكس ما أراد ، إذ قامت الثورة من جديد ، وجمعوا الفقهاء والقضاة وتبرأوا من بيعتهم له وذلك فى العاشر من جمادى الآخرة عام ٢٨٣هـ، ثم هاجم الثائرون القصر وقاموا بنهب ما فيه، واعملوا القتل فى كل من اعترض طريقهم حيث لقى كل من على بن أحمد الماذرائى سكرتير أبى العساكر حتفه وأمه وأعوانه ، وتم القبض على أبى العساكر وقتل فى السجن بعد خلعه بأيام قليلة ، وقيل إن الذى قتله هو أخوه أبو موسى هارون[3]، وكانت مدة ولايته ستة أشهر واثنى عشر يوماً[4].

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٧ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، جـ٣ ، ص١٣٩ .

(٢) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٢٨ ؛ محمود عرفة محمود : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص٤٦ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٧٨ .

(٤) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٧ .

أبو موسى هارون بن خمارويه :

اجتمع الجند يوم خلع أبى العساكر جيش وولوا ـ على ما جرت به العادة ـ أبا موسى هارون بن خمارويه ، وكان صغيراً لم تزد سنه على الرابعة عشرة ، فلم يكن ـ أيضًا ـ يصلح للولاية والحكم ، لذلك جعلوا وصياً عليه أبا جعفر محمد بن أبالى ، ولم تتحسن الأمور فى عهده لوجود قوتين متنافستين إحداهما قوة الوصى والأخرى قوة القواد العسكريين الذين أدركوا عجز أبى موسى هارون ، فكاتبوا رجلاً آخر من بنى طولون ، هو ربيعة بن أحمد بن طولون ، وكان فى الإسكندرية وطلبوا منه أن يسير إلى مصر ، ووعدوه أن يقوموا بنصرته ، فجمع جمعاً كبيراً من أهل البحيرة ومن البربر وغيرهم وسار حتى نزل بظاهر الفسطاط ، على أن حال هؤلاء القوم مع ربيعة كانت أشبه من بعض الوجوه بحال أهل الكوفة مع الحسين بن على ، فقد خذلوا ربيعة وقعدوا عن نصرته ، ولم يحولوا على الأقل دون خروج جند هارون الذين قاتلوه وأسروه فى شعبان عام ٢٨٤هـ، ثم قاموا بضربه بالسياط إلى أن مات[1] .

لم يفلح المناوئون لحكم هارون فيما دبروه ، بل لم تتعد نصرتهم لربيعة حد التدبير والكتابة ، وفى عهد هارون خرج القرامطة بالشام (٢٩٠هـ) وكانت تابعة لمصر ، فأنفذ هارون جيشًا لمحاربتهم ، إلا أن هذا الجيش لم يستطع إخراجهم من الشام ، بل حلت به الهزيمة تلو الأخرى وزادت الاضطرابات فى مصر ، الأمر الذى أدى إلى تجديد رغبة الخلافة العباسية فى إعادة مصر إلى سلطانها المطلق مرة أخرى[2] .

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٧ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٤٠ .

كان الخليفة المعتضد قد توفى فى ربيع الآخر عام ٢٨٩هـ وبويع ابنه محمد المكتفى بالله بالخلافة ، فأرسل المكتفى قائده الشهير محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر وإعادتها ولاية تابعة للخلافة العباسية ، فسار محمد بن سليمان الكاتب على رأس أسطول فنزل حمص وبعث بالمركب من الثغر إلى سواحل مصر[١]، وخرج هارون بن خمارويه لدفع ابن سليمان عن دخول مصر ، وسير هو الآخر المراكب الحربية لقتاله ، وفى تنيس التقى الأسطولان العباسى والمصرى ، فحلت الهزيمة بأسطول مصر ، ووقعت تنيس ودمياط فى يد محمد بن سليمان[٢].

رأى هارون أنه لا طاقة له بهزيمة الجيش العباسى ، فصمم على الفرار ، ولجأ إلى العباسة[٣]، ومعه أهله وأعمامه ونفر يسير من جنده ، وفى هذا المكان قتله عماه شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون ، وهو منشغل باللهو ثمل بالخمر فى صفر عام ٢٩٢هـ، وكان عمره يومئذ اثنين وعشرين سنة ، وكانت ولايته ثمان سنين وثمانية أشهر وأياماً[٤].

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٧ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، جـ٣ ، ص١٤٠ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١١٧ ؛ حسن إبراهيم حسن : المرجع نفسه، جـ٣، ص١٤٠ .

(٣) العباسة : هى بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ذات نخل طوال ، سميت بعباسة بنت أحمد بن طولون ، كان خمارويه لما زوج ابنته قطر الندى وخرج بها من مصر إلى العراق عملت عباسة فى هذا الموضع قصراً وخرجت لتودع بنت أخيها ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٦ ، ص٢٩١ .

(٤) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٨ .

هكذا انتهت ولاية هارون الذى قتل على يد عميه ، فكان طبيعيًا أن يؤول أمر هذه الولاية إلى أحد قتلته ، وقد آلت بالفعل إلى عمه شيبان .

شيبان بن أحمد بن طولون :

تولى شيبان بن أحمد بن طولون وشهرته (أبو المواقيت)[1] إمرة مصر بعد قتله لابن أخيه هارون بن خمارويه من ١٩ صفر ٢٩٢هـ، وبويع بالولاية فى اليوم التالى ، وما لبث أن سار إلى الفسطاط ليتسلم مقاليد هذه الولاية ، حتى ثار الجند عليه ، فقد أغضب القواد والجند جميعًا ما أتاه شيبان وأخوه من قتل هارون ولم يعترفوا بولاية شيبان ، بل أرسلوا إلى محمد بن سليمان الكاتب وطلبوا منه المسير إلى مصر ، فسار حتى نزل العباسة حيث لقيه طغج بن جف فى جمع كثير من القواد وصحبوه إلى الفسطاط ، وهنا انضم إليهم أصحاب شيبان الذى لم يجد بداً من طلب الأمان من محمد بن سليمان ، فأمنه على نفسه وجميع أهله وماله وولده وإخوته وبنى عمه جميعاً .

وفى شهر ربيع الأول من عام ٢٩٢هـ خرج شيبان ، ولم يكن قد مضى على ولايته غير اثنى عشر يومًا[2]، ثم دخل محمد بن سليمان بعساكره إلى القطائع والقى فيها النار ، ويصف المقريزى ما قام به ابن سليمان : « فألقى النار فى القطائع ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهجموا الدور واستباحوا الحريم وهتكوا الرعية ، وافتضوا

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٨ .

(٢ المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١١٨ .

الأبكار وساقوا النساء وفعلوا كل قبيح من إخراج الناس من دورهم وغير ذلك ، وأخرج ولد أحمد بن طولون وهم عشرون إنساناً وأخرج قوادهم فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر ... ثم سيق أصحاب شيبان إلى محمد بن سليمان وهو راكب فذبحوا بين يديه كما تذبح الشياه ، وقتل من السودان سكان القطائع خلقاً كثيراً »[1].

ثم أمر الحسين بن أحمد الماذرائى متولى خراج مصر بهدم الديوان فابتدئ فى هدمه فى شهر رمضان عام ٢٩٣هـ وبيعت انقاضه ودثر كأنه لم يكن ، وقد قال الشاعر ابن أبى هشام :

يا منزلاً لبنى طولون قــد دثرا
سقاك صرف الغوادى القطر والمطرا
يا منزلاً صـرت أجـفـوه وأهجـره
وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحـبـتنا
أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا[2]

وحدث محمد بن أبى يعقوب الكاتب قال لما كانت ليلة عيد الفطر من سنة اثنتين وتسعين ومائتين تذكرت ما كان فيه آل طولون فى مثل هذه الليلة من الزى الحسن بالسلاح وملونات البنود والأعلام وشهرة الثياب

---

(١) المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١١٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص٤٢٩ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٢ .

وكثرة الكراع وأصوات الأبواق والطبول ، فاعترانى لذلك فكرة ونمت فى ليلتى فسمعت هاتفًا يقول : ذهب الملك والتملك والزينة لما مضى بنو طولون ، وقال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » ، « رأيت كتاباً قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون ، فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فكم يكون شعرهم مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد »(١).

وقد تكون فى هذه الرواية ـ السابقة ـ بعض المبالغة إلا أنها تدل على كثرة الشعراء فى ذلك الوقت ، وعلى تشجيع الطولونيين للشعر والشعراء ، فقد كان أحمد بن طولون يستخدم الشعراء كوسيلة للدعاية ، لذلك كان عدد الشعراء ـ أيضاً ـ الذين رثوا الدولة الطولونية ومدينة القطائع كثير(٢).

أسباب سقوط الدولة الطولونية :

لا ينبغى أن نترك الدولة الطولونية أولى الدول المستقلة عن الخلافة العباسية فى مصر ، دون أن نحلل أو نقف على أسباب هذا السقوط وعوامله، خاصة وأن الخلافة العباسية كانت قد اعترفت بهذا الاستقلال .

يبدو أن موت خمارويه ـ كما ذكرنا ـ كان هو بداية النهاية لهذه الدولة ، فقد بدأت مظاهر الضعف والإنحلال تظهر بها ، لأن قيامها كان معتمداً ـ أساسًا ـ على فرد معين هو أحمد بن طولون، كذلك كان معظم

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٤ .

(٢) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٨٢ .

أمراء الطولونيين بعد خمارويه من الشباب المسرف فى الملذات والذى ليس له قدرة عسكرية أو دبلوماسية ، فقسموا البيت الطولونى إلى جبهات متصارعة من أجل الملك والسلطة ، كذلك كان ضعف الجيش وتألفه من عناصر شتى ، لا يجمعها إلا كفاية شخصية قوية مثل ابن طولون أو ابنه خمارويه ، سببًا فى إنهيار هذه الدولة ، لذلك نجد الجيش بعد وفاة ابن طولون وخمارويه يتفتت ويضعف ، وتنهشه العصبيات التى حاربت بعضها بعضًا ، فتقوم الحرب بين الجند الترك والسودانيين ، كما أن قلة الحروب الخارجية بما كانت تحمله من مغريات لطالبى الغنائم جعلت الجند ينفضون عن الجيش[1] .

.كما عجزت الدولة عن دفع المرتبات والانفاق على الجيش والجند ، وساءت الحالة الاقتصادية ، فانهارت مشاريع ابن طولون الاقتصادية بوفاته وموت ابنه خمارويه ، وسخطت العناصر المتغلبة فى الدولة على النظام وأهله ، فبدأو يتربصون الدوائر ، ويحيكون المؤامرات للقضاء على النظام الطولونى ، وقد انتهزوا ظاهرة سياسية تشبه ظاهرة (الزنج) وهى طائفة « القرامطة » الشيعية الذين نجحوا فى فتح بلاد الشام وانتزاعها من الطولونيين الضعاف ، واستفاد العباسيون من الكارثة التى حلت بالأسرة الطولونية ، وبعثوا جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الذى نجح فى الاستيلاء على الشام عام ٢٩٢هـ ، وطرد القرامطة ، ثم واصل زحفه إلى مصر ليقضى على الدولة الطولونية .

---

(١) صابر محمد دياب : تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، ص١٥٦ .

عودة مصر لتبعية الخلافة العباسية (٢٩٢ ـ ٣٢٣هـ) :

استمرت الاضطرابات فى مصر بعد عودتها لتبعية الخلافة العباسية عام ٢٩٢هـ، لمدة إحدى وثلاثين عاما ، إذ تسلط ـ أيضًا ـ الجند الأتراك على البلاد ، وساءت أحوال مصر وضعفت ، وتدهور اقتصادها بسبب المنافسة داخلها بين الولاة وعمال الخراج كما كان قبل ذلك ، فضلاً عن ضعف الخلفاء العباسيين أنفسهم فى العصر العباسى الثانى واضطراب الأحوال فى دولة الخلافة نفسها .

وقد تعاقب على ولاية مصر من قبل الخلافة العباسية فى هذه الفترة عدد من الولاة هم :

محمد بن سليمان الكاتب ، الذى اسقط الدولة الطولونية بعد قتل شيبان بن أحمد بن طولون ودعا على المنابر بمصر للخليفة العباسى المكتفى بالله وحده ، وولى على الخراج أبا على الحسين بن أحمد الماذرائى بدلاً من أحمد بن على الماذرائى ، ولم تطل مدة محمد بن سليمان بمصر حتى جاءه كتاب الخليفة المكتفى بإحلال عيسى بن محمد النوشرى فى ولاية مصر مكانه[1] .

دخل عيسى مصر فى ١٤ من جمادى الأولى وتسلم أعمال البلاد من محمد بن سليمان الذى اقتصر مقامه فى مصر على أربعة أشهر[2]، وقد خرج محمد بن سليمان من مصر وأخرج معه جميع من تبقى من بنى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص٤٢٩ .
(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٤ .

طولون وأشياعهم ، فلما بلغوا دمشق انفصل عنهم محمد بن على الخلنجى فى جمع كثير ممن كره مفارقة مصر من قواد الطولونيين ، فعقدوا له وبايعوه بإمارة مصر فى شهر شعبان عام ٢٩٢هـ فى الرملة ، ودعا على منابرها للخليفة العباسى وبعده لإبراهيم بن خمارويه أحد الطولونيين الذين كانوا فى الحبس فى ذلك الوقت ، ثم بعدهما لنفسه باعتباره نائبًا عن إبراهيم هذا[1]، وقد دخل الخلنجى مصر بعد ذلك وزاد أتباعه شيئًا فشيئًا ، وأرسل عيسى النوشرى قوة لملاقاته ولكنها خافت منه وتقهقرت بعد أن وقعت بينهما معركة انتصر فيها الخلنجى ودخل الفسطاط فى ٢٦ من ذى القعدة عام ٢٩٢هـ بدون مقاومة ، وقد دعا فى الخطبة للخليفة العباسى ولإبراهيم بن خمارويه ولنفسه كما فعل من قبل فى الرملة ، ولم يكن الناس قد نسوا عهد الطولونيين الباهر فسروا بما فعله الخلنجى ، بعد ذلك عين الخلنجى العمال اللازمين لإدارة شئون البلاد واتخذ مقامه فى قصر الإمارة وزاد أنصاره زيادة كبيرة ، وقد وجد الخزانة خاوية لأن عيسى النوشرى كان قد حمل معه الأموال العامة والسجلات ومعظم الكتاب ، فكان من المستحيل معرفة الضرائب المستحقة على الناس للدولة، لكن الخلنجى لم يتعب نفسه وأمر رجاله بجمع الأموال بقدر ما يستطيعون وأن يعطوا الناس إيصالات بالمبالغ التى أخذوها ويعدوهم برد المبالغ الزائدة عند العثور على السجلات ، وبعد هذا أرسل الخلنجى جنوداً بالبر والبحر إلى الإسكندرية ـ مع أن والى مصر كان معسكراً بالقرب منها ـ، واستولى عليها وأعاد أموال الحكومة والكتاب ، وقد انتشر نفوذ الخلنجى فى

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص١٤٧ .

العاصمة والدلتا ، وبلغت المدة منذ دخوله مصر حتى قبض عليه سبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً[1] .

اهتم الخليفة المكتفى بأمر الخلنجى فأرسل له قائده أبو الأعز لمحاربته ، إلا أن الخلنجى هزم جيش أبى الأعز وأسر من أصحابه عدداً كبيراً عند العريش[2] ، فأرسل المكتفى بعد ذلك من بغداد جيشاً برياً بقيادة فاتك المعتضدى وأسطولاً بقيادة دميانة ، فنجحت هذه القوات بعد ما انضمت إليها قوات عيسى النوشرى التى كانت قد هزمت من قبل ، فى هزيمة ابن الخلنجى والقبض عليه وإرساله إلى الخليفة فى بغداد ، حيث طافوا به على جمل ليكون عبرة لغيره ثم قتل[3] .

دخل عيسى النوشرى مرة أخرى مصر وتولى إمرتها ، إلا أن الجند شغبوا عليه وحاربوه فظفر بجماعة منهم[4] ، وتوفى الخليفة المكتفى فى ذى القعدة عام ٢٩٤هـ وبويع المقتدر بالخلافة ، فأقر النوشرى فى ولاية مصر حتى توفى فى ٢٦ شعبان عام ٢٩٧هـ وهو والٍ ، فكانت ولايته على مصر خمس سنين وشهرين ونصف[5] .

تولى بعد النوشرى ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى ، ثم ولى إمارة مصر بعد ذلك تكين الخزرى أبو منصور من قبل الخليفة المقتدر ، فدعى

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص١٥٢ .
(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٤ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص١٤٩ .
(٤) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٥ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٢٥ .

له بها يوم الجمعة ١١ من شوال وقدم إلى مصر فى ثانى ذى الحجة ، وبعث جيشًا إلى برقة لمحاربة قوات المهدى عبيد الله الفاطمى بقيادة قائده حباسة بن يوسف الكتامى ، الذى كان قد استولى على برقة وسار إلى الإسكندرية فى أكثر من مائة ألف فى المحرم عام ٣٠٢هـ، فقدمت الجيوش من العراق لمعاونة تكين فى شهر صفر فى جمع من القواد ، والتقت قوات مصر مع قوات حباسة عند الجيزة وقتل فيها آلاف من الناس وعاد حباسة منهزمًا إلى المغرب فقتله المهدى(١)، ثم قدم القائد التركى مؤنس الخادم من بغداد إلى مصر فى جيوشه فى منتصف رمضان ومعه جمع من الأمراء ، وقام مؤنس بعزل تكين عن إمارة مصر فى الرابع عشر من ذى القعدة ، فخرج منها فى السابع من ذى الحجة وأقام مؤنس يدعى ويخاطب بالأستاذ ودعى له على المنابر بعد الخليفة(٢).

ثم ولى ذكا الرومى أبو الحسن من قبل المقتدر إمارة مصر فدخلها فى الثانى عشر من صفر عام ٣٠٣هـ(٣)، وخرج ذكا إلى الإسكندرية فى المحرم من عام ٣٠٤هـ، ثم عاد فى الثامن من ربيع الأول وتتبع كل من كاتب المهدى صاحب إفريقية فسجنهم وقطع أيدى وأرجل بعضًا منهم ، وقدمت عساكر المهدى صاحب إفريقية ودخلت الإسكندرية فى الثامن من صفر عام ٣٠٧هـ، فهرب أهلها إلى الشام فى البر والبحر ، وجد ذكا فى

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٠٠ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص٤٢٩ .

أمر محاربة قوات المهدى وحفر خندقاً على عسكره بالجيزة إلا أنه مرض ومات بالجيزة فى الحادى عشر من ربيع الأول ، وكانت إمرته على مصر أربع سنين وشهراً[١] . ثم تولى أبو منصور تكين إمارة مصر للمرة الثانية من قبل المقتدر ، والراجح أن الخليفة إختاره لسابق خبرته بمحاربة الفاطميين وصدهم عن مصر[٢] .

كان لعودة تكين أكبر الأثر فى عودة الثقة إلى المصريين فتحمسوا فى حربهم للفاطميين وساعدتهم فى ذلك الجيوش والسفن الحربية التى بعث بها الخليفة إلى مصر ، وطالت الحرب بين الفريقين ولم يحرز المصريون انتصارهم الحاسم على الفاطميين إلا عام ٣٠٨هـ، بسبب النجدة التى أرسلها الخليفة العباسى إليهم بقيادة مؤنس الخادم ، ونجدة عراقية أخرى بقيادة جنى الخادم المعروف بالصفوانى عند الفيوم وفرار قوات القائم بن المهدى إلى برقة[٣] .

قام مؤنس الخادم بعزل تكين فى ربيع الأول عام ٣٠٩ عن إمرة مصر ، وولى عليها أبا قابوس محمود بن حمل فأقام ثلاثة أيام ثم عزله وأعاد تكين لمدة أربعة أيام ، ثم عزله للمرة الثالثة وأبعده عن مصر بإخراجه إلى الشام فى أربعة آلاف من أهل الديوان[٤]، ثم تولى هلال بن بدر من قبل المقتدر فدخل مصر فى السادس من ربيع الآخر ، واستدعى

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٦ .

(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٠٠ .

(٣) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٦ .

(٤) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٢٦ .

الخليفة مؤنساً إلى بغداد فخرج من مصر فى الثامن عشر من نفس الشهر ومعه ابن حمل ، وما لبث الخليفة أن عزل الوالى الجديد بعد أن أضطربت الأمور فى مصر وعمت الفوضى وعين مكانه أحمد بن كيغلغ واليًا عليها[1]، إلا أن هذا الوالى الجديد لم يستطع أن يعيد ـ أيضًا ـ الاستقرار إلى البلاد فزادت حالة الاضطراب فيها ، ولم يجد الخليفة بداً من إعادة تكين لحكم مصر للمرة الرابعة عام ٣١٢هـ[2].

قتل الخليفة المقتدر عام ٣٢٠هـ وبويع بالخلافة أخوه القاهز الذى أقر تكين على ولاية مصر ، لكن ولايته لم تطل هذه المرة بسبب مرضه ووفاته فى منية الإصبغ فى السادس عشر من ربيع الأول عام ٣٢١هـ فحمل إلى بيت المقدس ، وكانت إمرته هذه تسع سنين وشهرين وخمسة أيام[3].

كادت وفاة أبى منصور تكين تقضى على حالة الاستقرار الأخيرة التى عاشتها مصر فى ولايته الأخيرة بسبب وقوع الصراع على الحكم بعده ، بين ابنه محمد بن تكين وبين أبى بكر محمد بن على المادرائى[4]، إلى أن ظهر محمد بن طغج الإخشيد ونجح فى الوصول إلى ولاية مصر ، ثم الاستقلال بها وإقامة ثانى دولة مستقلة بمصر هى الدولة الإخشيدية .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص٤٢٩ .
(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٠١ .
(٣) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٧ .
(٤) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٠١ .

الفصل السابع

الدولـــة الإخشيديـــة

(٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م)



الفصل السابع

الدولــة الإخشيديــة

(٣٢٣ ـ ٣٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م)

حكمت الدولة الإخشيدية مصر نحو ٣٤ سنة ، ومؤسسها هو محمد ابن طغج الإخشيد الذى ولد فى منتصف شهر رجب عام ٢٦٨هـ[١]، ببغداد وتولى إمرة مصر بعد موت تكين من قبل الخليفة القاهر ، ولم يدخل مصر فى هذه الولاية بل دخلها أميراً عليها فى ولايته الثانية من قبيل الخليفة الراضى بالله .

وتنسب الدولة الإخشيدية إلى الإخشيد ، وهو اللقب الذى منحه الخليفة العباسى الراضى بالله لمحمد بن طغج فى عام ٣٢٧هـ بناءاً على التماس تقدم به محمد للخليفة ، ولقب الإخشيد بلغة أهل فرغانة يعنى (ملك الملوك)[٢]، فقد كان لقب ملوكهم ، كما كان قيصر لقب ملوك الروم ، وكسرى لقب ملوك العجم ، وفرعون لقب ملوك مصر ، والنجاشى لقب ملوك الحبشة ، أما كلمة طغج فتعنى بالتركية (عبد الرحمن)[٣].

وقد كان جف جد محمد بن طغج أحد الضباط الأتراك الذين أحضرهم الخليفة المعتصم من بلاد ما وراء النهر إلى العراق فى سامراء ، واتخذهم أعوانا له وجعل لهم قطائع فى مدينة سامراء ، وقد ظلت قطائع

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٤٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٢٣٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٢٣٧ .

جف تنسب إليه حتى زمن ابن خلكان المتوفى عام ٦٨١هـ[١]، ولما توفى المعتصم انتقل جف إلى خدمة ابنه الواثق ، ولما مات الواثق عام ٢٣٢هـ صحب جف أخاه المتوكل وظل فى بطانته إلى أن توفى فى بغداد فى الليلة التى قتل فيها المتوكل عام ٢٤٧هـ[٢].

لما مات جف اتصل ابنه طغج أبو محمد بأحمد بن طولون فى مصر، وكان من أكابر قواده ، ثم اتصل بخدمة ابنه خمارويه ، وولى من قبل خمارويه طرسوس وحاز انتصارات كبيرة ضد الروم مما جعل خمارويه يوليه على دمشق وطبرية ، ويروى أن طغج بن جف كان مع خمارويه فى القصر ليلة قتله ، وإنه طارد الخدم الذين اشتركوا فى ذبحه فقبض عليهم وأمر بذبحهم وصلبهم[٣].

ولما تولى هارون بن خمارويه كان طغج يحكم الشام مستقلاً عن مصر إلى حد كبير ، وبينما كان طغج يحكم الشام تقدمت جموع القرامطة بعد أن طاردتهم جيوش الخلافة العباسية فى العراق فعاثت فى الشام فساداً وقتلت كثيراً من سكانها عام ٢٨٩هـ، وقد حاول طغج التصدى لهم إلا إنه هزم بعد أن قتل عدد كبير من جنده ، كذلك أرسل طغج فى العام التالى جيشاً آخر لقتال القرامطة ولكنه هزم شر هزيمة ، مما شجع القرامطة على حصار دمشق فى الوقت الذى كانت تراقب فيه الخلافة هذا القتال بين

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٧٥ ، ص٦١ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، القاهرة ١٢٩٩هـ، جـ٢ ، ص٥٣ ـ ٥٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٦٠ .

القرامطة والطولونيين ، ولا شك أن الخلافة أرادت أن تضرب ضربة حاسمة لتتخلص من الفريقين ، لذلك بعثت بجيش كامل العدة على رأسه القائد محمد بن سليمان ، وعندما علم القرامطة بقدوم هذا الجيش بادروا بترك دمشق بعد أن دفع لهم أهلها مبلغًا من المال ، ثم انسحبوا إلى حمص[١].

كان طغج بن جف من القواد الطولونيين الذين لم يرضوا عن قتل هارون بن خمارويه ولم يعترفوا بخلفه شيبان بن أحمد بن طولون ، وقد قرر هؤلاء القواد أن يتصلوا بالجيش العراقى بقيادة محمد بن سليمان الذى سار إلى مصر للقضاء على حكم بنى طولون ، وقد انضم هؤلاء القادة إلى هذا الجيش عند مدينة العباسة[٢]، وعندما غادر محمد بن سليمان مصر صحب معه إلى بغداد طغج بن جف وولده وأخاه ، وكان وزير المكتفى بالله حينئذ هو العباس بن الحسن الذى عرف بالمكر والدهاء ، فقام الخلاف بين هذا الوزير وطغج بن جف الذى أظهر تعاليا وتكبراً على العباس بن الحسن ، فما زال الوزير بالخليفة المكتفى يوغر صدره على طغج ويحذره منه ، حتى أمر الخليفة بسجنه ومعه ابناه محمد وعبد الله[٣].

وقد ظل طغج محبوساً إلى أن توفى عام ٢٩٤هـ، وأطلق ولداه محمد وعبد الله ولزما خدمة الوزير العباسى ، وعندما قتل الوزير العباسى خرج محمد بن طغج إلى الشام ثم اتصل بأبى العباس أحمد بن بسطام عامل

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٦٤ .

(٢) سيدة إسماعيل كاشف : المرجع نفسه ، ص٦٤ .

(٣) سيدة إسماعيل كاشف : المرجع نفسه ، ص٦٤ .

الخراج بها ، وكان يخدمه فى شئون الصيد حتى عرف باسم (بازيار بن بسطام)[1]، ولما تقلد ابن بسطام خراج مصر عام ٢٩٦هـ صحبه محمد ابن طغج إليها ، ثم توفى ابن بسطام وخلفه على الخراج ابنه أبو القاسم فظل ابن طغج ـ أيضاً ـ فى خدمته فترة من الزمن حتى عزل أبو القاسم عام ٣٠٠هـ[2].

اتصل محمد بن طغج بعد ذلك بتكين والى مصر ،، وعندما قدم الجيش الفاطمى لغزو مصر بقيادة حباسة عام ٣٠٢هـ، أبلى محمد بن طغج بلاءاً حسناً مع تكين فى قتال هذا الجيش ، وتوثقت الصلة بينهما ، ولما نحى تكين عن ولاية مصر وخرج إلى الشام صحبه ابن طغج ثم تقلد تكين ولاية دمشق فأناب عنه محمد بن طغج فى عمان وجبل السراة[3]، كما اتصل محمد بن طغج بالقائد العباسى مؤنس الخادم الذى قدم من العراق عام ٣٠٨هـ على رأس جيش عباسى لطرد الفاطميين ، وقد تقلد محمد بن طغج خكم الحوفيين الشرقى والغربى من قبل تكين[4].

وقد تولى محمد بن طغج الإخشيد إمارة مصر مرتين الأولى لمدة اثنتين وثلاثين يوماً من قبل الخليفة العباسى القاهر عام ٣٢١هـ، والثانية

---

(١) البازيار أو البازدار هو الذى يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده ، وخص بإضافته إلى الباز الذى هو أحد أنواع الجوارح دون غيره لأنه هو المتعارف بين الملوك فى الزمن القديم . القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٥ ، ص٤٦٩ .

(٢) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٦٦ .

(٣) السراة : جبل يصل ما بين أقصى اليمن والشام . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥، ص٣٤ .

(٤) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٦٧ .

لمدة أحد عشر عامًا فى سنة ٣٢٣هـ، من قبل الخليفة الراضى ، وقد استقل الإخشيد بمصر خلال ولايته الثانية وأقام بها دولة مستقلة نسبت إليه وعرفت به .

كان الإخشيد يطمع فى حكم مصر قبل وفاة واليها تكين ، ولكنه انتظر حتى خلا مكانه واضطربت الأحوال فى مصر ، واستطاع الحصول على تقليد ولايتها من الخليفة القاهر أولاً عام ٣٢١هـ، لكن اضطراب الأمور فى مصر وفى عاصمة الخلافة نفسها لم يعط الفرصة الكاملة للإخشيد لتولى حكم مصر ، فلم يدع له من فوق المنابر سوى اثنين وثلاثين يومًا ، إذ ورد بعدها كتاب من الخليفة القاهر بتولية أحمد بن كيغلغ على البلاد للمرة الثانية[1] .

استخلف ابن كيغلغ أبا الفتح بن عيسى النوشرى فشغب الجند على محمد بن على الماذرائى متولى الخراج مطالبين برواتبهم ، فاستتر منهم فقاموا بإحراق دوره ودور أهله ووقعت فتن فى مصر ، قتل فيها عدد من الناس إلى أن أتاهم محمد بن تكين من فلسطين فى ١٣ ربيع الأول عام ٣٢٢هـ واليًا[2]، وقد أنكر الماذرائى ولاية محمد بن تكين وتعصبت طائفة له ودعت له بالإمارة ، وخرج ابن النوشرى إلى الصعيد فى عدد من أتباعه وأمروه عليهم أيضاً .

أقام ابن تكين واليًا على مصر بالفسطاط لمدة ١١٢ يومًا ، وفى تلك

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٧٦ ؛ عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٠٤ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٧ .

الأثناء خلع الخليفة القاهر من الخلافة وبويع مكانه أبو العباس الراضى بالله ، وقد أظهر ابن تكين أن الراضى قد وافق على ولايته لمصر[1]، لكن الجنود انقسموا إلى طائفتين ، طائفة تنصر ابن تكين ، وطائفة تنصر ابن كيغلغ ، وانتهى الأمر بهزيمة ابن تكين فى مكان يسمى الطواحين بين فاقوس وبلبيس ، ثم أسر ونفى إلى أخميم وكاد الأمر يستقر لابن كيغلغ ، ولكن ما لبث الخليفة العباسى الراضى بالله أن قلد محمد بن طغج ولاية مصر للمرة الثانية[2].

لم يرض ابن كيغلغ عن تولية محمد بن طغج ، بل أرسل إليه بجيش ليمنعه من دخول الفرما ، فأقبلت مراكب ابن طغج إلى تنيس ونزلت إلى البر والتقت مع قوات ابن كيغلغ فى ١٩ شعبان عام ٣٢٣هـ، وانتصرت قوات ابن طغج وأقبلت مراكبه إلى الفسطاط فى آخر شعبان[3]، وتقدم ابن كيغلغ وسلم نفسه وقواته لابن طغج دون قتال معتذراً إليه بأن زمام الأمور كان قد أفلت من يده وأن جنود مصر قد تصدوا له دون موافقته ، كذلك اضطر أبو بكر محمد بن الماذرائى عامل الخراج إلى الإختفاء بعد استسلام ابن كيغلغ مدة من الزمن ، فى الوقت الذى وافق فيه ابنه الحسين بن محمد الماذراتى على الاستسلام لمحمد بن طغج[4].

هكذا خلصت مصر لابن طغج وصار والياً على مصر الولاية الثانية بعد أن قلده الخليفة الراضى ولايتها عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م .

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٧٦ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٢٤٤ .

(٤) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٨٠ .

ولاية محمد بن طغج الإخشيد على مصر :

ولى الخليفة محمد بن طغج ولاية مصر على الصلاة والخراج معاً ، فدخلها فى ٢٤ من رمضان عام ٣٢٣هـ[١]، وما كادت الأحوال فى مصر أن تستقر حتى قدم إليها الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات ومعه الخلع لمحمد بن طغج التى أرسلها الخليفة الراضى له بمناسبة توليه حكم مصر[٢]، وقد كان إرسال هذه الخلع من قبل الخليفة رمزاً إلى تثبيت ابن طغج فى ولاية مصر ، وقد أقام ابن الفرات فى مصر عاماً كاملاً يبحث فى شئونها المالية وأموال أعدائه الماذرائيين وضياعهم ، وقام ابن الفرات بمصادرة كل أموال وضياع الماذرائيين فى مصر والشام لصالح دولة الخلافة ، ولما انتهى ابن الفرات من مهمته فى مصر خرج ومعه محمد ابن على الماذرائى مقبوضاً عليه[٣].

ويعتبر خروج ابن الفرات من مصر بداية الاستقلال التام لمحمد بن طغج بأمر البلاد ، ذلك لأن ابن الفرات كان يدبر أمر الخراج والأموال بمصر مدة إقامته بها وترك لابن طغج تدبير أمر الجيش وبقية الأمور الداخلية ، فلما خرج ابن الفرات صار ابن طغج هو الحاكم الفعلى لمصر بعد أن جمع إليه الصلاة والخراج معًا ، كما أرادها الخليفة له وقلدها إياه[٤].

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٨٠ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص٢٨٧ .

(٣) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٨٦ .

(٤) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٠٥ .

وقد وقعت حروب بين ابن طغج وأصحاب ابن كيغلغ أنهزموا فيها منسحبين بعدها إلى إقليم برقة ، ثم ذهبوا إلى إمام الفاطميين القائم بأمر الله محمد بن المهدى بالمغرب فحرضوه على فتح مصر[١]، فجهز الفاطميون جيشًا سار إلى مصر ، وجهز ابن طغج جيشه وأرسله إلى الإسكندرية ليتصدى لهذه القوات المغربية الفاطمية ويمنع تقدمها إلى مصر[٢] ، وفى تلك الأثناء ورد الكتاب من الخليفة العباسى ببغداد بالزيادة فى اسم الأمير ابن طغج فلقب بالإخشيد ودعى له بذلك على المنبر فى رمضان عام ٣٢٧هـ[٣] . على أن الأمور لم تستمر على ما يرام فى العلاقة بين الإخشيد والخلافة ، وذلك بسبب ما سار إليه الحال فى مقر الخلافة وما وقع من منافسات ومؤامرات فى العصر العباسى الثانى ، للاستئثار بالنفوذ والسلطة بسبب ما استحدثه الخليفة الراضى من منصب إمرة الأمراء ، الذى حل مكان منصب الوزارة وصار لصاحبه السلطة الفعلية فى دولة الخلافة وإمارة الجيش وولاية الخراج ، كما صار يخطب لصاحب هذا المنصب على المنابر مع الخليفة فى سائر أنحاء العالم الإسلامى .

وقد تولى محمد بن رائق أمير واسط هذا المنصب فى بغداد عام ٣٢٤هـ بتقليد من الخليفة الراضى للتصدى للمشاكل التى كانت تعانى منها دولة الخلافة آنذاك وإيجاد الحلول لها بعد أن فشل الوزراء فى حلها وإخراج دولة الخلافة من أزمتها[٤] . وقد حدث الإصطدام بين الإخشيد

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٢٥٢ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٧ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص٥٤ .

(٤) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٠٦ .

وابن رائق عندما تشدد ابن رائق مع الإخشيد فى أمر خراج مصر ، إذ طالب ابن رائق الإخشيد بزيادة الأموال التى كان يرسلها إلى بغداد ، لكن التنافس على منصب إمرة الأمراء بين القواد الأتراك لم يجعل ابن رائق يهنأ بهذا المنصب لمدة طويلة ، إذ سرعان ما خرج عليه القائد الديلمى (بجكم) وانتزاع المنصب منه عام ٣٢٦هـ .

وحدث بعد ذلك أن خرج (بجكم) مع الخليفة لقتال الحمدانيين فى الشام فظهر ابن رائق ثانية فى بغداد ، ثم وعد بالانسحاب عنها إذا منح ولاية بلاد الجزيرة ، فأجيب إلى طلبه ، لكنه لم يكتف بذلك وطمع فى امتلاك كل بلاد الشام[١] .

وقد اتسع سلطان ابن رائق فى بلاد الشام وبدأ فى تهديد الإخشيد ومطالبته بأموال فرضها عليه مقابل ممتلكاته فى الشام ، كما خرج إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير ليحقق مطالبه ، فقرر محمد بن طغج الإخشيد محاربة ابن رائق ، والتقت القوتان فى منتصف شهر رمضان من عام ٣٢٨هـ عند العريش فى معركة عنيفة ، هزمت فيها قوات الإخشيد أولاً ، ثم حمل الإخشيد بنفسه على قوات ابن رائق فهزمها وقتل وأسر الكثير منها ، وفر ابن رائق إلى الرملة ، ثم تداعى ابن رائق والإخشيد بعد ذلك إلى الصلح واصطلحا ، فعاد ابن رائق إلى دمشق والإخشيد إلى الفسطاط فى المحرم عام ٣٢٩هـ[٢] .

وتوفى الخليفة الراضى فى شعبان عام ٣٢٩هـ ، وبويع لأخيه المتقى

---

(١) محمود عرفة : الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص٥٤ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٨ .

لله بالخلافة من بعده ، فأقر الإخشيد على ولايته لمصر[1]، وقتل ابن رائق بالموصل على يد ناصر الدولة ابن حمدان فى شعبان عام ٣٣٠هـ، وبوفاة ابن رائق استطاع الإخشيد أن يعيد سيطرته على كل بلاد الشام ، إذ أرسل جيوشه إلى الشام ثم صار إليها فى السادس من شهر شوال بعد أن استخلف أخاه الحسن بن طغج على مصر ، ودخل دمشق[2]، ثم عاد إلى مصر فى ١٣ جمادى الأولى عام ٣٣١هـ، وأخذ البيعة لابنه أبى القاسم أنوجور على جميع القواد آخر ذى القعدة .

فى تلك الأثناء كان الصراع مشتعلاً بين القادة الأتراك على منصب إمرة الأمراء ، الذى خلص فى النهاية لتوزون التركى ، فقد أختاره الخليفة المتقى لهذا المنصب عام ٣٣١هـ، لكن سرعان ما ساءت العلاقة بين توزون والخليفة المتقى ، الذى اضطر إلى الاستنجاد بالإخشيد والكتابة إليه بأنه ينوى التوجه إليه ليحتمى به من بطش توزون ، وخرج الخليفة بالفعل إلى الرقة مع وزيره ابن مقلة ، وكذلك خرج الإخشيد من مصر إلى الرقة للإلتقاء بالخليفة واصطحابه لمصر ، لكن الأمور لم تمض على ما كان يريده كل من الخليفة والإخشيد ، ذلك لأن بنى حمدان منعوا الإخشيد من دخول الرقة ، كما شعر الخليفة بالضجر والملل من بنى حمدان فعمل على الصلح مع توزون وعاد إلى بغداد فى المحرم من عام ٣٣٣هـ.

ويقال إن الخليفة عندما قابله الإخشيد على الشاطئ المقابل للرقة ،

---

(١) الكندى الولاة والقضاة ، ص٢٩٠ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٨ .

بالغ الإخشيد فى إظهار أمارات الخضوع والإجلال للخليفة ، كما قدم إليه وإلى وزيره وحاشيته الهدايا النفيسة من المال والجواهر والطيب والدواب[1] ، حتى أن الخليفة سر بإخلاص الإخشيد وهداياه فقال له : « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أنوجور »[2] .

وهكذا حصل الإخشيد على تقليد جديد من الخليفة بولاية مصر وحق توريث إمارتها لأبنائه من بعده لمدة ثلاثين سنة ، وقد عاد الإخشيد إلى مصر فى جمادى الأولى عام ٣٣٣هـ[3] ، وسار الخليفة إلى بغداد بعد صلحه مع توزون ، وخرج توزون لاستقبال الخليفة ، لكنه قبض عليه وسجنه وقام بسمل عينيه وعزله ، وعين ابن المكتفى خليفة ولقب بالمستكفى بالله فى السابع من جمادى الآخرة عام ٣٣٣[4] ، ولما ولى المستكفى بالله أقر الإخشيد على ولاية مصر والشام ، ولكن سرعان ما خلع المستكفى بالله وبويع للمطيع بالله فى شوال ٣٣٤هـ ، والذى بادر بإقرار الإخشيد ـ أيضاً ـ على ولايته[5] ، كما قام الخليفة بتقليد ولاية اليمن والحرمين للإخشيد فخطب له من على منابرها ، يقول ابن سعيد : « وما زالت همته تعلو وسعادته تعينه إلى أن ملك مصر والشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن »[6] ، أما الشام فقد تقاسمها الإخشيد مع الحمدانيين

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٩٤ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٢٥٥ .
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص٢٩٢ .
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٧ ، ص١٨٧ .
(٥) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٩٧ .
(٦) المغرب فى حلى المغرب ، ليدن ١٨٩٩ ، ص٤٠ .

حكام الموصل وحلب ، واصطلح الإخشيد مع سيف الدولة الحمدانى على أن تكون له حلب وانطاكية وحمص ، وتكون باقى بلاد الشام للإخشيد ، ونتيجة لهذه المصالحة بين الإخشيد والحمدانيين تزوج سيف الدولة الحمدانى من ابنة الإخشيد[1] ، لكن القتال تجدد بعد ذلك بين الطرفين ونجح الإخشيد فى إنتزاع حلب من سيف الدولة الحمدانى عام ٣٣٣هـ ، وذلك حين توجه سيف الدولة بقواته إلى مصر محاولاً الإستيلاء عليها ، إلا أن القوات المصرية هزمت قواته وأجبرته على العودة إلى بلاده ، ثم عاد الإخشيد إلى دمشق فمرض بها وتوفى يوم الجمعة ٢٢ ذى الحجة عام ٣٣٤هـ ، وهو فى السادسة والستين من العمر ، بعد أن حكم إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ودفن ببيت المقدس[2] .

هكذا ترك محمد بن طغج الإخشيد دولة موطدة الأركان ، بعد أن حكم حكماً مستقلاً واستغل إمكانيات مصر لصالحه ، ولم تعد تربطه بدولة الخلافة إلا العلاقة الطيبة التى تنحصر فى تبادل الهدايا والتبعية الروحية التى تتمثل فى الدعاء للخليفة معه من فوق المنابر[3] .

وقد وصف ابن تغرى بردى محمد بن طغج الإخشيد فقال : « كان ملكاً شجاعاً مقداماً حازماً متيقظاً حسن التدبير ، عارفاً بالحروب مكرماً

---

(١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص٢٤٢ ، يذكر ابن تغرى بردى : أن فاطمة التى تزوجها سيف الدولة الحمدانى هى ابنة أخى الإخشيد عبيد الله وليست ابنة الإخشيد ، النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٢٥٥ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٨ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٤٦ ؛ عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٠٩ .

للجند شديد البطش ذا قوة مفرطة ، لا يكاد أحد يجر قوسه وله هيبة عظيمة فى قلوب الرعية ، وكان متجملاً فى مركبه وملبسه ، وكان موكبه يضاهى موكب الخلافة ، بلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك ، وكان عدة جيوشه أربعمائة ألف ، وكان قوى التحرز على نفسه ، وكانت مماليكه تحرسه بالنوبة عندما ينام كل يوم ألف مملوك ، ويوكل الخدم بجوانب خيمته ثم لا يثق بأحد حتى يمضى إلى خيمة الفراشين فينام فيها»[1].

أنوجور بن الإخشيد :

بعد موت محمد بن طغج الإخشيد اختار الجند ولى عهده الذى كانوا قد اختاروه فى حياة أبيه وهو أبو القاسم أنوجور ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، ويذكر السيوطى أن كلمة أنوجور تركية معناها محمود أو محمود مقامه[2].

وقد تولى أنوجور الحكم فى يوم الجمعة ٢٢ من ذى الحجة عام ٣٣٤هـ، وأقره الخليفة المطيع لله على مصر والشام وعلى كل ما كان لأبيه من الولاية ، ونظراً لصغر سن أنوجور فقد تقرر أن يكون كافور الإخشيد (أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيد) خادم محمد بن طغج الإخشيد وصياً على أنوجور وأخيه أبى الحسن على .

وكان كافور عبداً قد اشتراه سيده محمد بن طغج بثمانية عشر

---

(١) النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٢٥٦ .

(٢) حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص١٠ .

ديناراً من الزياتين ، ورباه وأعتقه ثم رقاه حتى جعله من كبار القواد ، لما رأى منه الحزم والعقل وحسن التدبير ، ثم أصبح مربيًا وأستاذاً لأولاده(١).

وقد استطاع كافور أن يقبض على زمام الحكم من غير أن تكون له سلطة شرعية ، ولم يتح لأنوجور أى فرصة ليظهر مزاياه أو عيوبه فى الحكم ، وزاد نفوذه حتى أصبح يدعى له على المنابر كلها منذ عام ٣٤٠هـ، وكان على أنوجور أن يكتفى بانفاق المخصصات التى حددها له كافور ، وقدرها بـ٤٠٠ ألف دينار فى العام وأن يترك تدبير الأمور لكافور وأعوانه(٢).

وقد ظل الحال كذلك إلى سنة ٣٤٣هـ، حين شعر أنوجور بأنه جاوز سن الرشد وبأن من حقه أن يقبض على زمام الحكم ، خاصة بعد أن زين له بعض المتصلين به أن يتنكر لكافور ، فبدأ أنوجور فى إظهار سخطه على سير الأمور وظهر الجفاء والوحشة بينه وبين كافور ، ثم ترك أنوجور العاصمة وانصرف إلى الصيد واللهو فى الاقاليم ، وانقسم الجند فريقين : الإخشيدية وهم مماليك الأسرة الإخشيدية وأنصارها ، والكافورية وهم أنصار كافور الذين رقاهم إلى المناصب العليا فى الدولة ، ثم قرر أنوجور المسير إلى الرملة والابتعاد عن كافور ، لكن والدة أنوجور كانت لا تثق بإن ولدها باستطاعته التغلب على كافور ، وكانت تخشى عليه من بطشه ،

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٢٩٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٢٩١ ؛ سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص١٣٤ .

فكتبت إلى ابنها تخوفه من عاقبة الفتنة وأعلمت كافوراً بأن ابنها ينوى الرحيل عن مصر ، فكتب كافور إلى أنوجور وصالحه ودام الأمر فى شئون الدولة على حاله ، وظل كافور يدبر أمورها لأنوجور إلى أن توفى الأخير فى ذى القعدة عام ٣٤٩هـ، ونقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث دفن إلى جوار ابيه ، ويقال أنه لم يمت ميتة طبيعية ، بل دس كافور له السم فمات ، بعد أن حكم مصر نحو أربع عشرة سنة[١] .

على بن محمد بن طغج الإخشيد :

لما مات أنوجور أقام كافور الإخشيدى أخاه عليا أبا الحسن بن الإخشيد مكانه ، وأقره الخليفة المطيع على إمرة مصر على الجند والخراج، وأضاف إليه الشام ، كما كان لأبيه الإخشيد ولأخيه أنوجور .

وكان على بن الإخشيد يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة ، وبالرغم من ذلك لم يكن له أمر فى شئون الحكم مع كافور ، فكان أسيراً فى قصره ، وكان كافور هو الحاكم الفعلى للبلاد ، ومثلما فعل كافور مع أنوجور فعل مع أخيه على ، فقد خصص له ـ أيضًا ـ راتبًا سنوياً قدره أربعمائة ألف دينار[٢] .

ومثلما انصرف أنوجور إلى اللهو والشراب انصرف على كذلك فترة من الزمن ، ثم تاب عن الشراب ولزم الصلاة وقراءة القرآن ، ثم حاول

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٢٨ ؛ سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص١٣٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٢٩٢ .

عـام ٣٥١هـ أن ينحى كـافـور عن تدبيـر أمـور الدولـة فلم يفلح لضـعف شخصيته وقلة أنصاره ، بعد أن قويت شوكة كافور وأصبح صاحب الأمر والنهى فى كل شىء[١]، وكان من أثر هذه المحاولة أن فسدت العلاقة بينه وبين كافور ، يذكر ابن تغرى بردى : « ثم فسد ما بين على بن الإخشيد صاحب مصر وبين مدبر مملكته كافور الإخشيدى ومنع كافور الناس من الاجتماع به حتى اعتل على المذكور بعلة أخيه أنوجور ومات لإحدى عشرة خلت من المحرم سنة خمس وخمسين وثلثمائة وحمل إلى المقدس ودفن عند أبيه وأخيه أنوجور ... وكانت مدة سلطنة على بن الإخشيد على مصر خمس سنين وشهرين ويومين »[٢]، وقيل ـ أيضًا ـ أن كافوراً دس له السم كما فعل مع أخيه من قبل[٣].

بعد وفاة أبى الحسن على بن الإخشيد بقيت مصر بعده أيامًا بغير أمير ، وكان كافور يدبر أمرها على عادته فى أيام أولاد الإخشيد ومعه أبو الفضل جعفر بن الفرات ، ثم ولى كافور إمرة مصر باتفاق أعيان مصر وجندها[٤]، بعد أن اعترض على تولى أحمد بن أبى الحسن الوريث الشرعى بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه (٩ سنوات)[٥].

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص١٣٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٣٢٦ .

(٣) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٩٣ .

(٤) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص١٤٢ .

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٤٧ .

كافور الإخشيدى :

هو الأستاذ أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدى ، وكان يسمى أيضًا اللابى نسبة إلى إقليم اللاب من بلاد النوبة ، تذكر سيدة كاشف «كان عبدًا أسود بصاصًا قبيح الشكل بطيئًا ثقيل البدن قبيح القدمين مثقوب الشفة السفلى ، وقيل إن سنة ميلاده غير معروفة ، وإنه ولد بالحبشة أو النوبة بين عامى ٢٩٢ ، ٣٠٨هـ»[١] ، ومهما يكن من الأمر فالراجح أن كافوراً جلب إلى مصر مع عبيد آخرين من مواطنيه فبيع لتاجر من تجار الزيت[٢] ، وقيل لرجل من أصحاب الضياع فى مصر اسمه محمد بن هاشم ، وبيع بعد ذلك لرجل يدعى محمود بن وهب بن عباس الكاتب ، ثم اشتراه منه محمد بن طغج الإخشيد بثمانية عشر ديناراً فرباه وأعتقه[٣] .

لا شك فى أن الإخشيد كان قد أدرك ما يمتاز به كافور من الذكاء والهمة والإخلاص فقربه إليه ، وظلت منزلته عنده ترتفع تدريجيًا حتى أصبح موضع ثقته وأقرب المقربين إليه . والواقع أن بعض المؤرخين يذكر أن الإخشيد كان يتنبأ بأن كافوراً سيرث ملكه من بعده وأنه كان يقول فى كثير من الأحيان : « والله لاورث دولة ابن طغج إلا هذا العبد ، يعنى كافور »[٤] ، وتعلق سيدة كاشف على ذلك : « ولكنا نرجح أن مثل هذا الزعم فيه شىء من المبالغة لأنه لو صح لانتظرنا ألا يعهد الإخشيد

---

(١) مصر فى عصر الإخشيديين ، ص١٣٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص١٠ .

(٣) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص١٣٧ .

(٤) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص٤٦ .

إلى كافور بالوصاية على ولده من بعده فيسلمه بذلك مقاليد الأمور منحيًا سائر أفراد أسرته ، أو لعله كان يرى ألا مفر من التسليم بما لا بد منه »[١] .

على كل الأحوال نجح كافور فى أن يكون له حكم البلاد وأرسل له الخليفة المطيع كتابا بهذا التقليد مع الخلع ، ونودى به واليا على مصر وما يليها من البلاد ، ودعى له على المنابر ، ولم يلقب نفسه بلقب الأمير وإنما اكتفى بلقب الأستاذ[٢]، الذى كان يرى فيه تكريماً واعترافًا بالمكانة التى وصل إليها بجهوده ، ويتجنب به الاعتراض على شرعية ولايته العرش[٣] .

لم تطل مدة حكم كافور فقد توفى فى جمادى الأولى عام ٣٥٧هـ ، أى بعد انفراده بحكم مصر حكمًا منفرداً قرابة سنتين وأربعة أشهر ، وحمل تابوته ـ أيضاً ـ إلى بيت المقدس فدفن فيها[٤] .

وكان كافور يدنى إليه الشعراء ويغدق عليهم وكان من أبرزهم أبى الطيب المتنبى (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد) الشاعر الكوفى الشهير، الذى مدح الملوك وانتشر شعره وتناقله الناس ، والمعروف أن المتنبى كان متصلاً ـ أولاً ـ بسيف الدولة الحمدانى وقال فى مدحه عدة قصائد خالدة ، ولكن يبدو أن أمراً حدث بينهما أدى إلى أن يبحث

---

(١) مصر فى عصر الإخشيديين ، ص١٤٠ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص١٤٧ .

(٣) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص١٤٢ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص١٠ .

المتنبى عن سيد آخر يرعاه ، ولعله سمع ببلاط كافور وما يلقاه الشعراء والأدباء من تقدير وإكرام ، فعقد العزم على التوجه إلى مصر ، وقد وصل المتنبى إلى مصر عام ٣٤٧هـ، فرحب به كافور وأخلى له داراً وخلع عليه وحمل إليه كثيراً من المال ، فقال المتنبى فى مدحه قصيدته المشهورة التى مطلعها :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيًا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

ومن أبياتها :

قواصد كافور توارك غيره

ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا إنسان عين زمانه

وخلت بياضًا خلفها ومآقيا(١)

وقد ظل المتنبى فى بلاط كافور يقول فى مدحه القصائد ويصف الحالة السياسية فى عهده بشىء من المبالغة ، فأنشد فى شوال عام ٣٤٧هـ قصيدته البائية التى يقول فيها :

وإخلاق كافور إذا شئت مدحه

وإن لم أشأ تملى على وأكتب

إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه

ويمم كافوراً فما يتغرب

---

(١) المتنبى : ديوان المتنبى ، بيروت ١٩٠٠ ، ص٣٧٣ .

فتى يملأ الأفعال رأيًا وحكمة

ونادرة أحيان يرضى ويغضب[1]

وقد قام المتنبى بمدح الأمير أبى شجاع فاتك الرومى ، وهو مولى الإخشيد ورفيقاً لكافور ، وكان يحقد على كافور توليه السلطة فى البلاد ، ولما سمع المتنبى بكرم أبى شجاع قام بمدحه ، فحقد عليه كافور ، وخاف المتنبى على نفسه من بطش كافور به فخرج من مصر هارباً ، وقام بهجاء كافور بعد أن كان يمدحه ، فقال فى يوم عرفة قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية التى هجا فيها كافور :

من علم الأسود المخصى مكرمة

أقومه البيض أم آباؤه الصيد

أم أذنه فى يد النخاس دامية

أم قدره وهو بالفلسين مردود

وذاك أن الفحول البيض عاجزة

عن الجميل فكيف الخصية السود[2]

أحمد بن على الإخشيد (أبو الفوارس) :

وبعد وفاة كافور لم يطل عهد الدولة الإخشيدية ، إذ أن الجند اختاروا طفلاً صغيراً اسمه أبو الفوارس أحمد ، وهو ابن أبى الحسن على بن الإخشيد وكانت سنه إحدى عشر سنة ، فعينوا الحسن بن عبيد الله بن

---

(١) المتنبى : ديوان المتنبى ، ص٣٩٨ .

(٢) المتنبى : المصدر نفسه ، ص٤٣١ .

طغج ـ والى الشام ـ وصيا عليه ، غير أنه لم يلبث أن استبد بالأمر وأساء معاملة أهل البلاد ، فسخط عليه المصريون واضطر أخيراً إلى العودة إلى بلاد الشام بعد أن اغتصب الحكم من أحمد بن على وحكم البلاد نحو ثلاثة أشهر[١] .

كانت الأحوال قد ازدادت آنذاك فى مصر اضطراباً ، بسبب تزايد هجمات الفاطميين على حدود مصر الغربية ، وإصرارهم على غزو مصر بعد أن تبين لهم مدى ضعف حكم الإخشيديين فى أواخر أيام دولتهم ، خاصة بعد أن ضعفت الخلافة العباسية بسبب مشاكلها الداخلية فى ظل سيطرة البويهيين عليها ، وسرعان ما نجح الفاطميون فى غزو مصر بقيادة قائدهم جوهر الصقلى ، الذى أرسله الخليفة الفاطمى المعز لدين الله على رأس جيش كبير عام ٣٥٨هـ لفتحها ، وبفتح الفاطميين لمصر انتهت دولة الإخشيديين وانتزعت مصر من تبعية الخلافة العباسية، وقام بها حكم مستقل للفاطميين الشيعة الإسماعيلية ، إستمر قرابة ما يزيد على قرنين من الزمان .

أسباب سقوط الدولة الإخشيدية :

كانت الظروف التى أدت إلى ضعف الطولونيين هى نفس الظروف التى أدت إلى ضعف الإخشيديين ، وإلى دخول مصر فى حلقة جديدة من حلقات تاريخها الإسلامى .

فقد كان موت كافور الإخشيدى الحاكم الفعلى للبلاد ، واحتلال مكانه

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١١٦ .

طفل فى الحكم (أحمد بن على بن الإخشيد) فرصة للوزير ابن الفرات ليفرض وصايته على الشعب ويقوم بالضغط عليه لإستنفاد موارد البلاد ، وكانت قوات مصر فى حالة ثورة وهياج فقاموا بنهب قصر الوزير وراسل قوادهم المعز لدين الله لفتح البلاد ، وحاول الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد قادماً من الشام أن ينقذ البلاد من خطر القرامطة ؛ إلا أنه لم يتول أمر مصر سوى ثلاثة أشهر عاد بعدها مضطراً إلى الشام بعد أن هزمت قواته من القرامطة .

على الجانب الآخر انتشرت فى مصر المجاعات فى أواخر عهد الإخشيديين ، بسبب نقص النيل عام ٣٥٦هـ، وتوفى آنذاك ما يزيد عن ٦٠٠ ألف نسمة من سكان مصر حول الفسطاط وبدأ السكان يهربون من أراضيهم إلى غيرها بحثا عن الطعام .

وقد كان الخليفة المعز لدين الله الفاطمى على علم تام بكل هذه الأحوال السيئة التى تعيشها مصر ، فقد أخبره بها الوزير اليهودى يعقوب ابن كلس ، الذى كان مقرباً من كافور وقام بطرده من مصر الوزير المعادى له جعفر بن الفرات .

وقد كانت تقارير ابن كلس من أهم الأمور المعينة للخليفة المعز لدين الله الفاطمى على فتح مصر وسقوط الدولة الإخشيدية التى حكمت مصر أربعة وثلاثين عاماً .

منشآت وعمائر الإخشديين :

كان العصر الإخشيدى ـ على قصره ـ عصر ازدهار فى تشييد العمائر والمنشآت ، وعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا من أثارهم بسبب

تقادم العهد بها من ناحية ، وبسبب مجيء العصر الفاطمى بعدها من ناحية أخرى ، إلا أننا يمكن أن نقف على بعض الإسهامات الحضارية والفنية التى ساهمت بها الدولة الإخشيدية فى مصر .

قصر المختار والبستان :

كان من أهم المنشآت التى شيدها الإخشيديون قصر المختار والبستان، الذى شيده الإخشيد فى جزيرة الروضة عام ٣٢٥هـ، ويقال إن الإخشيد عندما أراد بناءه قال لصالح بن نافع أحد رجال دولته إنه أراد منذ حصل على ولاية مصر أن ينقل دار الصناعة من جزيرة الروضة ، وأن يجعل موضعها بستاناً يسميه المختار ، ثم أمره أن يخرج إلى الجزيرة ليعد مشروع هذا البستان مع دار كبيرة تقام فيه وأن يقدر ما يلزم لذلك من النفقات ، فخرج صالح بن نافع مع بعض من لهم دراية بمثل هذه الأمور وخطوا تصميم البستان والقصر وألحقوا بهما داراً للحرس وداراً للغلمان وخزائن للطعام والملابس والفرش وما إلى ذلك ، وعرضوا هذا التصميم فى رقعة كبيرة من الورق على الإخشيد فأعجب به وسأل عن نفقاته فقيل له : ثلاثون ألف دينار ، فاعترض الإخشيد على إنفاق هذا المال الكثير وقال إنه يريد الاقتصاد فى نفقات هذا المشروع ، وما زال بهم حتى انخفض رقم المال اللازم إلى خمسة آلاف دينار ، ومع ذلك فإن الإخشيد ـ على عادته فى الحرص على المال ـ أصر على أن تجمع هذه النفقات من تبرع رجال حاشيته ومن إليهم من القادرين على الدفع ، فأخذ صالح بن نافع ورقة وبدأ قائمة التبرعات بأن سجل على نفسه التبرع بثلاثمائة دينار ، وتبعه غيره حتى جمع لهذا المشروع ستة آلاف

دينار ، وأشرف على تنفيذه المهندسان زقازق وابن أبى الرداد ، وكان الإخشيد بعد ذلك يفاخر أهل العراق بهذا المتنزه[1].

البستان الكافورى :

كان الإخشيد شديد العناية بتجميل حاضرته ، فقد ذكر أنه أنشأ بستاناً آخر شمالى الفسطاط عرف بعد ذلك باسم البستان الكافورى[2]، وأنه عنى به وجعل له أبواباً من حديد وأنه كان ينزل به ويقيم فيه أياماً كاملة ، وعنى به من بعده ابناه أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن على فى أيام إمارتهما ، وكان كافور كثيراً ما يتنزه به ويواصل الركوب إلى الميدان الذى كان فيه ، وكانت خيوله بهذا الميدان ، ولما قدم جوهر الصقلى إلى مصر على رأس الجيش الفاطمى نزل بجوار هذا البستان وأصبح البستان جزءاً من القاهرة واتخذه الخلفاء الفاطميون متنزهاً لهم[3].

وذكر على باشا مبارك أن جوهر القائد لما قدم بجيشه إلى ساحل الفسطاط فى شعبان من عام ٣٥٧هـ ، نزل بحرى الفسطاط التى فيها اليوم الجامع الأزهر وبيت القاضى وخان الخليلى وبين القصرين وما جاورهما من الأماكن التى بين الجبل والخليج ، وكانت هذه البقعة رمالاً فيما بين مصر والفسطاط وعين شمس التى تسمى الآن بالمطرية ، يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين شمس فيما بين الخليج المعروف فى

---

(١) ابن سعيد : المُغرب فى حلى المغرب ، ص١٤ ؛ سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٢٠٣ .

(٢) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص١٣٠ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٣١ .

أول الإسلام بخليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ... وعند نزول جوهر بهذه الرملة لم يكن بها بنيان غير البساتين وأماكن قليلة منها بستان الإخشيد محمد بن طغج المعروف بالكافورى ، وكان هذا البستان فى شرقى الخليج ، محله اليوم فيما بين جامع الشعرانى والسكة الجديدة قريباً من قنطرة الموسكى ممتداً فى الجهة الشرقية إلى النحاسين ، وكانت مساحته تبلغ ستة وثلاثين فداناً بمقياسنا اليوم ، وبجانبه من الجهة القبلية ميدان الإخشيد ومحله الآن من بر الخليج الشرقى إلى شارع السكرية والغورية »[١] .

البيمارستان :

ومن العمائر الإخشيدية التى تنسب إلى الإخشيد مستشفى أو مارستان كان يعرف باسم المارستان الأسفل تمييزاً له عن المارستان الطولونى[٢] ، وقد أنشأ الإخشيد قيساريات (أسواق) وحوانيت ودوراً وحبس دخلها على هذا المارستان ، وهو ما يدل على أن الإخشيد سار سيره أحمد بن طولون واهتم بإنشاء المستشفيات التى كان يعالج فيها الناس من أمراضهم[٣] .

كما ينسب إلى كافور مارستان شيده هذا الأمير عام ٣٤٦هـ ، والراجح أنه هو المارستان الأسفل المنسوب إلى الإخشيد[٤] .

---

(١) الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠م ، جـ١ ، ص٣١ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الإمصار ، القسم الثانى ، ص٩٩ .

(٣) مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص٢٥٨ .

(٤) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٣٠٦ .

المســاجــد :

كانت عناية الأمراء الإخشيديين بالمساجد كبيرة فكانوا يطلقون لها النفقات ويأمرون بعمارتها وإمدادها بما يلزم من الحصر والمصابيح وما إلى ذلك ، وقد وصلت إلينا أسماء عدد من المساجد من العصر الإخشيدى منها : مسجد الفقاعى الذى شيده كافور الإخشيدى فى سفح جبل المقطم[1]، ومسجد الجيزة الذى كان الفضل فى بنائه لكافور أيضاً ، فيقال إن أهل الجيزة علموا أن الفضاء الذى شيد فيه هذا المسجد كان يراد به أن تقام فيه حوانيت وغير ذلك من عمائر الاستغلال ، ولكنهم كانوا يريدون فيه مسجداً ، فكلموا كافور فى الأمر وتم لهم بناء المسجد ، وذلك فى ولاية أبى الحسن على بن الإخشيد[2]، ومسجد موسى الذى بناه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات فى سفح جبل المقطم فى المنطقة نفسها التى بنى فيها مسجد الفقاعى على يد كافور[3].

السقايات السبع :

ومن قبيل الأسبلة التى سنراها تبنى بكثرة فى العهد الإخشيدى ، السبع سقايات التى شيدها فى العصر الإخشيدى الوزير جعفر بن الفرات لسكان الفسطاط حين أصبحوا يحتاجون فى موسم الجفاف إلى جلب الماء من منطقة جزيرة الروضة بسبب جفاف الخلجان وانحسار مياه النيل إلى

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص٤٥٦ .
(٢) ابن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الإمصار ، ص١٢٧ .
(٣) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ٢ ، ص٤٥٦ ؛ سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٣٠٥ .

تلك المنطقة[1]، وقد حفر هذا الوزير بئراً لينقل منها الماء إلى السقايات السبع التى أنشأها وحبسها (أوقفها) والبئر لجميع المسلمين التى كانت بخط الحمراء ، وقد ذكر المقريزى أن السقايات خربت بمرور الزمن وبنى فوق البئر وتوالد فيها كثير من الوطاويط فعرفت ببئر الوطاويط[2].

مشهد وضريح آل طباطبا :

أما الأضرحة الخاصة التى بنيت فمنها مشهد وضريح آل طباطبا ، وترجع أهميته إلى أنه يضم رفات عدد كبير من أفراد هذه الأسرة الشيعية الكبيرة نساءاً ورجالاً ، فمنهم على بن الحسن بن إبراهيم طباطبا المتوفى عام ٢٥٥ هـ، وأحمد بن على بن الحسن بن طباطبا ، وعبد الله بن أحمد ابن على بن الحسن بن إبراهيم طباطبا المتوفى عام ٣٤٨هـ، وخديجة ابنة محمد بن إسماعيل بن القاسم الرسى بن إبراهيم طباطبا المتوفاة عام ٣٢٠هـ، ونفيسة ابنة على بن الحسن بن إبراهيم طباطبا وغيرهم وغيرهم من أفراد أسرة إبراهيم طباطبا الذى قدم إلى بغداد فى خلافة هارون الرشيد[3].

ويرجع بناء هذا الضريح إلى سنة ٣٣٤هـ ويقع على بعد خمسمائة متر غربى ضريح الإمام الشافعى ونحو مائتين وثلاثين متراً شمالى حمامات عين الصيرة بالقاهرة ، ويتألف هذا الضريح من مساحة من الأرض شكلها غير منتظم وطولها نحو ثلاثين متراً وعرضها نحو عشرين متراً وفى طرفها الجنوبى قبتان ويحيط بها جدار وتضم عدداً من القبور[4].

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار ، جـ١ ، ص٣٤٤ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٣٥ .
(٣) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٣٠٠ ، ٣٠١ .
(٤) سيدة إسماعيل كاشف : المرجع نفسه ، ص٢٩٩ .

الفصل الثامن
الفتح الفاطمى لمصر
(٣٥٨هـ/ ٩٦٨م)

الفصل الثامن

الفتح الفاطمى لمصر

(٣٥٨ هـ/ ٩٦٨م)

الدعوة الإسماعيلية وقيام الخلافة الفاطمية :

الإسماعيلية هى إحدى الفرق الشيعية ، وجماعة الشيعة جماعة دينية سياسية بدأت تظهر نواتها كحزب يناصر عليا بن أبى طالب ويتشيع له ، ومن هنا أخذوا اسم الشيعة ، وقد اقتصر أصحاب هذه الفرقة أول الأمر على المطالبة بحق على بن أبى طالب فى الخلافة ، ثم ما لبث أن قوى أمرها وأصبح لها دور كبير فى الصراع مع حكام الأمويين والعباسيين ، وكان لهذا الصراع أثر كبير وبصمات واضحة فى مجريات الأحوال السياسية فى الدولة الإسلامية[١] .

وقد ازداد نشاط الشيعة بعد استشهاد الحسين بن على وعدد من أهل بيته فى معركة كربلاء فى العاشر من المحرم عام ٦١هـ، فقد أدى هذا الحادث إلى تطور التشيع ، فبعد أن كان رأياً سياسيًا نظرياً وحباً عاطفيًا تحول إلى عقيدة راسخة فى نفوس الشيعة ، إذ رأى الشيعة أنهم فى حاجة إلى تنظيم أنفسهم ، فاجتمع نفر منهم عند قبر الحسين وتذاكروا دعوتهم له وشعروا بالندم لتخليهم عنه ، ورأوا ضرورة الثأر من قتلته والتصدى لحكام الأمويين الذين كانوا وراء عملية قتله ، وقد عرفت هذه الجماعة بالتوابين[٢] .

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٤٣ .

(٢) محمود عرفة محمود : الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص٢٠ .

وقد دخل الشيعة بعد ذلك فى معارك عديدة مع الأمويين انتهت جميعها بهزيمتهم ، كذلك دخلوا فى صراعات مع العباسيين بعد أن تبين لهم – أيضًا – أنهم اغتصبوا الخلافة من العلويين ، وبدا لهم إصرار العباسيين على محاربتهم والقضاء عليهم ، وقد فشلت أيضًا محاولتهم وثوراتهم ضد العباسيين ، كما فشلت من قبل مع الأمويين ، لذلك لم يرى الشيعة فائدة من الثورة المعلنة ، فلجأوا إلى السرية والتخفى أو ما يعرف بالتقية فى بعض الأحيان ، حتى تكتمل صفوفهم وتقوى وتتاح لهم الفرصة المناسبة للظهور والوصول إلى الحكم ، بعد نشر المذهب الشيعى سراً فى الأطراف البعيدة عن مركز الدولة العباسية فى بغداد .

وقد انحصرت زعامة العلويين ، منذ أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى فى الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، وهو الإمام السادس عند طائفة الشيعة الإمامية (الإثنا عشرية)(1).

كانت هذه الطائفة (الإسماعيلية) تذهب إلى أن الإمامة تنحصر فى سلالة الإمام على من فرع ابنه الإمام الحسين ، وأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ ، بعد أن انتقلت من الإمام الحسن إلى أخيه الإمام الحسين ، وأنها لا تكون إلا فى الأعقاب ، أى فى الفرع الحسينى .

وقد خرج بعض الإمامية عن هذه التعاليم بعد موت الإمام جعفر الصادق عام ١٤٨هـ/ ٧٦٥م، بسبب الخلاف حول من هو الإمام الحق

---

(١) محمود عرفة محمود : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص٣٤ .

من بين ولديه ، موسى الكاظم وإسماعيل ، فقد قال الإثناعشرية بإمامة موسى الكاظم (الابن الأصغر لجعفر الصادق) وأبنائه من بعده حتى الإمام الثانى عشر الذى اختفى بسرداب فى مدينة سامراء عام ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م، ولا يزال أنصاره ينتظرون عودته ، وقد عرفوا أيضًا بالموسوية نسبة إلى موسى الكاظم وهو عندهم الإمام السابع[١]، بينما قال المعارضون بإمامة إسماعيل الابن الأكبر وهو عندهم ـ أيضًا ـ الإمام السابع وكذلك ابنه محمد .

ويروى أن أساس هذا الاختلاف يرجع إلى أن الإمام جعفر الصادق كان قد خلع ابنه الأكبر إسماعيل عن الإمامة وأحل ابنه موسى فى حياته بدلاً منه[٢] . فلم يعترف المعارضون بهذا الخلع ، ولم يعترفوا بمبايعته لموسى وبايعوا إسماعيل ، وعرفوا بعد ذلك بالإسماعيلية ، ولما توفى إسماعيل عام ١٤٥هـ فى حياة أبيه ، رأى الإسماعيليون أتباعه أن تنتقل الإمامة بعده إلى ابنه محمد بن إسماعيل وحفيد جعفر الصادق طبقًا لتعاليمهم التى تقول بأن تظل الإمامة فى الأعقاب وليس الأخوة ، فهو عندهم بدلاً لأبيه الإمام السابع إسماعيل[٣] .

انفصلت جماعة الإسماعيلية عن جماعة الإمامية الموسوية ، وأمعن أنصار محمد بن إسماعيل بعد أن بايعوه أمامًا ، فى التخفى ونشر الدعوة له سراً أيام الخلفاء العباسيين : المهدى والهادى والرشيد ، حتى انتشرت الدعوة وانبتت بعد ذلك الخلافة الفاطمية .

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٤٥ .

(٢) محمود عرفة محمود : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص٣٦ .

(٣) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٢٥ .

ويرجع السبب فى تخفى الأئمة الإسماعيليين الذين تولوا الإمامة بعد محمد بن إسماعيل وتسترهم ، إلى ما ذهب إليه فقهاؤهم من أنه من حق الإمام أن يستتر عن العيون ، طالما لم يصبح لديه القوة التى يحارب بها أعداءه ، حتى يحفظ نفسه من الأسر أو القتل ، لذلك خاف محمد بن إسماعيل من بقائه فى المدينة أيام خلافة الرشيد حين ذاعت دعوته واكتشف أمرها رجال الرشيد ، فقرر الرحيل إلى فرغانة من بلاد ما وراء النهر[١]، معتمداً فى نشر دعوته على داعيته ابن ميمون القداح ، وعندما توفى إسماعيل سلك ابنه عبد الله الرضى الذى عهد إليه بالإمامة من بعده ، نفس مسلكه واعتمد على الداعية نفسه ، وارتحل هو وابنه أحمد إلى قرية سلمية قرب حمص خوفاً من الخليفة المأمون وعيونه ، وقد أصبحت سلمية بعد ذلك دار هجرة للأئمة الإسماعيلية والمركز الرئيسى للدعوة فى عهد إمامة أحمد المتقى ومن بعده الإمام الحسين الرضى (كان يكنى المقتدى والزكى)[٢].

الخلافة الفاطمية فى المغرب :

فى عهد الحسين الرضى خرج من سلمية عدد كبير من دعاة الإسماعيلية إلى مختلف بلاد العالم الإسلامى لنشر الدعوة ، فانتشرت فى بلاد اليمن على يد الداعى ابن حوشب ، كذلك انتشرت الدعوة فى بلاد المغرب بعد أن نجح انتشارها فى اليمن والبحرين واليمامة ، فقد أرسل

---

(١) محمود عرفة محمود : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص٣٦ .

(٢) محمود عرفة محمود : المرجع نفسه ، ص٣٨ ؛ عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٤٦ .

الإمام الحسين الرضى داعيته أبا عبد الله الشيعى إلى المغرب لنشر الدعوة هناك بعد أن تزود بأصول نشر الدعوة من ابن حوشب .

وكان ابن حوشب قد أرسل داعيتين من قبله قبل وصول أبو عبد الله الشيعى ، هما : أبا سفيان والحلوانى ، وعند وفاة هذين الداعيين تحرك أبو عبد الله الشيعى عام ٢٨٠هـ متوجهًا إلى المغرب ليكمل ما قد بدأه أبو سفيان والحلوانى[١] .

وصل أبو عبد الله الشيعى إلى المغرب بعد أن تعرف بمكة على حجاج من قبيلة كتامة ، صحبوه إلى المغرب ، وكان أهل المغرب يحبون آل البيت وينساقون إلى من يدعوا لهم ، لذلك لقيت دعوة أبى عبد الله الشيعى قبولاً عند سكان المغرب وانتشرت فيها ، كذلك انتشرت فى إفريقية (تونس) بعد أن نجح أبو عبد الله فى إزالة سلطان الأغالبة عنها[٢] .

ولما استقرت الأمور لأبى عبد الله الشيعى فى المغرب وإفريقية أرسل إلى الإمام عبيد الله المهدى بن الإمام الحسين[٣] ، فى سلمية وفداً من رجال كتامة يدعونه إلى ترك سلمية والقدوم إلى المغرب التى اعتنقت الدعوة .

---

(١) محمود عرفة محمود : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص٥٤ .

(٢) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٤٧ .

(٣) اختلف النسابون فى أصل عبيد الله المهدى ، فمنهم من يرى أنه من سلالة إسماعيل ابن جعفر الصادق ويسمونه سعيد بن الحسين ، ومنهم من يرى أنه من سلالة ميمون القداح ، وقد انتقلت إليه زعامة الدعوة الإسماعيلية عام ٢٨٠هـ بعد وفاة أحمد بن عبد الله القداح . ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٨ ، ص٩ ـ ١٢ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٩٦ ، جـ١ ، ص١٦ ؛ للمزيد من التفاصيل حول هذا القضية انظر أيضًا محمود عرفة محمود، الدولة الفاطمية فى مصر ، ص٤٥ .

نجح أبو عبيد الله المهدى فى الوصول إلى بلاد المغرب عام ٢٩٧هـ على الرغم من الصعاب التى واجهته فى طريقه من سلمية إلى هذه البلاد، ونزل بقصر من قصور رقادة التى اتخذها حاضرة لدولته الجديدة، وتلقب بلقب المهدى أمير المؤمنين ، ومن رقادة أعلن قيام الخلافة الفاطمية فى المغرب أولاً ، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الحكم الشيعى المناهض لخلفاء العباسيين السنيين .

على الرغم من الجهود التى قام بها الداعى أبو عبد الله الشيعى حتى وصل عبيد الله المهدى إلى عرش الحكم فى المغرب ، إلا أنه قتل على يد عبيد الله المهدى نفسه، الذى خاف من ازدياد نفوذه وحب الكتاميين له ، وعلو مكانته بين أهل المغرب ، وهو ما يؤكد أن الثورة تأكل أبنائها ، فقد قتل من قبل الخليفة العباسى المنصور ـ أيضاً ـ داعيته أبو مسلم الخراسانى .

وقد أدى حادث قتل الداعية أبو عبد الله الشيعى إلى ثورة الكتاميين ضد الإمام ، الأمر الذى دفعه إلى استخدام القوة وإخماد ثورتهم ، بفضل ابنه وولى عهده أبو القاسم(١) .

عمل عبيد الله المهدى على بناء حاضرة جديدة له فى بلاد المغرب، تحمل اسمه وتخلد دولته ، فبنى مدينة المهدية على مكان يقع على بعد ستين ميلاً جنوبى القيروان ، اكتمل بناؤها عام ٣٠٨هـ وانتقل إليها فى العام التالى .

عند وفاة المهدى عام ٣٢٢هـ خلفه فى الحكم ابنه أبو القاسم الذى تلقب بلقب (القائم بأمر الله)، وقد قامت فى عهده عدة ثورات فى طرابلس وفى المغرب الأوسط ، على يد رجال قبيلة زناتة الناقمين على

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٤٨ .

الفاطميين بسبب تفضيلهم قبيلة كتامة عليهم وإيثارهم بالمكانة والثروة ، فضلاً عن سوء معاملة الولاة الفاطميين لأهالى البلاد ، كذلك ثار الخوارج من البربر بزعامة ابن كيداد بهدف التخلص من حكم الفاطميين(١) .

كانت ثورة ابن كيداد أخطر الثورات التى تعرض لها الحكم الفاطمى فى بلاد المغرب ، فقد استطاع ابن كيداد هزيمة ثلاث جيوش فاطمية ، حتى نجح الخليفة المنصور الفاطمى (إسماعيل بن أبى القاسم) فى هزيمته وقتله عام ٣٣٦هـ، وقام بتعقب الزناتيين فى إفريقية (المغرب الأوسط) ، وابتنى المنصور حاضرة جديدة له ، على مقربة من القيروان أسماها المنصورية ، ظلت عاصمة للفاطميين حتى ارتحال المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر عام ٣٦٢هـ، وبناء القاهرة التى أصبحت عاصمتهم حتى نهاية دولتهم .

وتولى المعز لدين الله الخلافة بعد موت أبيه عام ٣٤١هـ، وقد حاول المعز تثبيت حكم الفاطميين فى المغرب مستنداً إلى مهارة قائده جوهر الصقلى ، الذى نجح فى القضاء على نفوذ الزناتيين فى تاهرت ، ونفوذ بنى واسل فى سجلماسة وإخضاع معظم بلاد المغرب للفاطميين حتى شواطئ المحيط الأطلنطى(٢) .

حملات الفاطميين لفتح مصر :

منذ قيام الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب ، اتجهت أنظار أئمتها إلى

---

(١) محمود عرفة محمود : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص٦١ .

(٢) محمود عرفة محمود : المرجع نفسه ، ص٦٥ ؛ عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٤٩ .

مصر التى تتمتع بموقع متميز فى العالم الإسلامى ، فقد أدرك الفاطميون أن السيطرة على مصر تعنى السيطرة على بلاد الشام والحجاز ، فيكتسب بذلك الفاطميون وضعًا سياسياً ودينياً يستطيعون من خلاله السيطرة على البلدان الإسلامية ، وضم شعوبها تحت لواء خلافة شيعية ، والقضاء على الخلافة العباسية(١) .

من ناحية أخرى أيقن الفاطميون أن بلاد المغرب لا تصلح لإقامة خلافة دائمة ، يتحقق معها أملهم فى السيادة على كافة أرجاء العالم السلامى ، وذلك لأن أهلها من البربر سريعو الغضب حادو الطباع كثيرو الثورات ، الأمر الذى يهدد الإستقرار ويعطل خطط التنمية وتوطيد أركان الدولة(٢) .

ولم يكن فتح مصر على يد القائد جوهر الصقلى هو أول محاولات الفاطميين لفتح مصر ، فقد كانت أولى محاولات الغزو لمصر فى عهد حكم عبيد الله المهدى ، الذى وضع الخطط لغزو مصر عام ٣٠١هـ ، فأرسل جيشًا إليها بقيادة ابنه أبى القاسم ، فنجح فى الوصول إلى الإسكندرية والإستيلاء عليها ، إلا أن هذه الحملة باءت بالفشل بسبب هزيمة قوات الفاطميين على يد مؤنس الخادم قائد الخليفة العباسى المقتدر بالقرب من الجيزة(٣) .

وعاود عبيد الله المهدى مهاجمة مصر بحملة أخرى عام ٣٠٦هـ ،

---

(١) محمود عرفة محمود : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص٦٩ .
(٢) محمود عرفة محمود : المرجع نفسه ، ص٦٩ .
(٣) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٥١ .

فأرسل ابنه أبا القاسم على رأس جيش لفتح مصر فى أواخر هذا العام ، فوصل إلى ما وصل إليه جيشه فى الحملة الأولى ، ولقى هزيمة على يد مؤنس الخادم ـ أيضاً ـ الذى استولى على سفنهم وأحرقها(١).

توقفت الحملات الفاطمية بعد ذلك على مصر حوالى ثلاثة عشر عاماً ، بسبب إنشغال الخلافة الفاطمية بتوطيد سيادتها فى بلاد المغرب والقضاء على فتن وثورات الخارجين ، ولكن ذلك لم ينهى رغبة المهدى فى محاولاته لفتح مصر ، ففى عام ٣٢١هـ أرسل حملته الثالثة تحت قيادة حبشى بن أحمد المغربى ، فنجح محمد بن طغج الإخشيد فى هزيمته وإجباره على العودة منهزمًا إلى المغرب ، وخلال ذلك كان الخليفة الفاطمى قد توفى (٣٢٢هـ) ، وأخفى ولى عهده خبر موته ولم يعلنه إلا بعد استقرار الأمور فى بلاد المغرب وتلقب بالقائم .

تابع القائم سياسة أبيه فى غزو مصر فأرسل جيشًا عام ٣٢٣هـ، وصل إلى الإسكندرية ، لكن الإخشيديين استطاعوا ـ أيضاً ـ أن يهزموه ويجبروه على العودة للمغرب(٢).

لم تحقق الحملات الثلاث أهدافها فى فتح مصر وفرض السيادة الفاطمية عليها ، لأن مصر كانت ـ فى ذلك الوقت ـ من القوة بحيث استطاعت أن ترد غارات الفاطميين وخاصة بمعاونة الجند العباسى .

ولم يقم الفاطميون فى عهد المنصور بمحاولة لغزو مصر ، بينما

---

(١) محمود عرفة محمود : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص٧٥ .

(٢) محمود عرفة محمود :: المرجع نفسه ، ص٧٦ .

جاءت هذه المحاولة الجادة والأخيرة فى عهد المعز ، خاصة بعد وفاة كافور الإخشيدى واضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية فى مصر بعد وفاته ، وقد استفاد المعز من كل أخطاء الحملات السابقة[1]، وأعد جيشاً قوياً وأمر بحفر الآبار وإنشاء الطرق بين طربلس ومصر منذ عام ٣٥٦هـ، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة ، فلما اكتملت الاستعدادات حشد الخليفة الفاطمى كل ما استطاع من جند وذخيرة ومال وعهد بتلك الحملة إلى أعظم قواده جوهر الصقلى ، ولما وصل جيش جوهر إلى مشارف الإسكندرية ، قرر الزعماء إرسال جعفر بن الفرات للتفاوض مع جوهر القائد ، فأناب عنه أبا جعفر مسلم بن عبد الله الحسين (من الأشراف)، فسار أبو جعفر مسلم على رأس وفد من ذوى الرأى والنفوذ إلى الإسكندرية فلقى جوهر فى قرية تروجة على مقربة من الإسكندرية فى ١٨ رجب عام ٣٥٨هـ، فسعد جوهر بلقائهم وكتب لهم الأمان الذى ضمنه غايات السياسة الفاطمية ومزاياه لحماية مصر ، واختتمه بدعوة المصريين إلى لقائه والتبرك بالسلام عليه ، والتزام الطاعة والولاء للإمام أمير المؤمنين[2].

اضطر جوهر رغم الأمان الذى منحه للمصريين إلى خوض بعض المعارك مع الجند الإخشيديين والكافوريين الذين أفاقوا على ضياع ملكهم ، فاحتشدوا لقتال جوهر عند الجيزة ، لكنه أنفذ بعض قواته التى عبرت النيل والتقت مع الجند المصريين ، فانهزم الإخشيدية بعد أن خسروا كثيراً

---

(١) عطية القوصى : مصر الإسلامية ، ص١٥٢ .

(٢) محمود عرفة محمود : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص٨١ .

من جندهم ، ولم يلق جوهر بعد ذلك مقاومة تذكر ، وتم له فتح مصر فى منتصف شهر شعبان من عام ٣٥٨هـ .

دخل جوهر الصقلى الفسطاط يوم الثلاثاء ١٧ من شعبان ٣٥٨هـ الموافق ٧ يوليو ٩٦٩م، ثم استكمل سيره إلى موضع المدينة الجديدة التى قرر الفاطميون إنشاءها لتكون قاعدة لهم ، وحفر أساس القصر الفاطمى فى وسطها ، فكان ذلك إيذانا بمولد القاهرة المعزية ، وقد ترتب على فتح مصر قطع الدعوة من على منابرها لبنى العباس وإقامتها للخليفة الفاطمى[١] .

(١) محمود عرفة محمود : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص٨٣ .

الملاحق

ملحق رقم (١)

رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك دعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم القبط ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا تعبدوا إلا الله ولا نشرك به ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا إشهدوا بأنا مسلمون)

هذه الرسالة هي التي بعثها رسول الله ﷺ إلى المقوقس حاكم قبط مصر وقد تحصل عليها من موثق تاريخي هو الأخ أحمد عادل كمال صاحب كتاب الطريق إلى القادسية من كنيسة سوهاج ـ بمصر

تم تصويرها في جمادى الأولى سنة ١٤٠٣ للهجرة

ملحق رقم (٢)
اسماء ولاة مصر من الفتح الإسلامى
حتى العصر العباسى

(أ) فى خلافة الراشدين :

مسلسل	اسم الوالى	مرات الولاية	سنوات الولاية
١	عمرو بن العاص	الأولى	٢١ ـ ٢٥هـ
٢	عبد الله بن سعد بن أبى السرح	الأولى	٢٥ ـ ٣٥هـ
٣	قيس بن سعيد بن عبادة	الأولى	٣٥ ـ ٣٦هـ
٤	الأشتر النخعى مالك بن حارث (لم يصل إلى ولايته)	الأولى	٣٦ ـ ٣٦هـ
٥	محمد بن أبى بكر الصديق	الأولى	٣٦ ـ ٣٨هـ

(ب) فى خلافة الأمويين :

مسلسل	اسم الوالى	مرات الولاية	سنوات الولاية
٦ ـ	عمرو بن العاص	الثانية	٣٨ ـ ٤٣هـ
٧ ـ	عقبة بن أبى سفيان		٤٣ ـ ٤٤هـ
٨ ـ	عتبة بن عامر الجهنى		٤٤ ـ ٤٧هـ
٩ ـ	مسلمة بن مخلد		٤٧ ـ ٦٢هـ
١٠ ـ	سعيد بن يزيد بن علقمة		٦٢ ـ ٦٤هـ

مسلسل	اســم الوالــى	مرات الولاية	سنوات الولاية
١١ ـ	عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم		٦٤ ـ ٦٥هـ
١٢ ـ	عبد العزيز بن مروان بن الحكم		٦٩ ـ ٨٥هـ
١٣ ـ	عبد الله بن عبد الملك بن مروان		٨٥ ـ ٩٠هـ
١٤ ـ	قرة بن شريك بن الحارث العبسى		٩٠ ـ ٩٦هـ
١٥ ـ	عبد الملك بن رفاعة الفهمى		٩٦ ـ ٩٩هـ
١٦ ـ	أيوب بن شرحبيل الأصبحى		٩٩ ـ ١٠١هـ
١٧ ـ	بشر بن صفوان بن حنظلة		١٠١ ـ ١٠٢هـ
١٨ ـ	حنظلة بن صفوان		١٠٢ ـ ١٠٥هـ
١٩ ـ	محمد بن عبد الملك بن مروان		١٠٥ ـ ١٠٥هـ
٢٠ ـ	الحر بن يوسف بن الحكم		١٠٥ ـ ١٠٨هـ
٢١ ـ	حفص بن الوليد بن الحارث		١٠٨ ـ ١٠٩هـ
٢٢ ـ	عبد الملك بن رفاعة الفهمى	الثانية	١٠٩ ـ ١٠٩هـ
٢٣ ـ	الوليد بن رفاعة		١٠٩ ـ ١١٧هـ
٢٤ ـ	عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمى		١١٧ ـ ١١٩هـ
٢٥ ـ	حنظلة بن صفوان	الثانية	١١٩ ـ ١٢٤هـ
٢٦ ـ	حفص بن الوليد	الثانية	١٢٤ ـ ١٢٧هـ

مسلسل	اســـم الوالـــى	مرات الولاية	سنوات الولاية
٢٧ ـ	حسان بن عتاهية التجيبى (١٦ يوماً)		١٢٧ـ١٢٧هـ
٢٨ ـ	خفص بن الوليد	الثالثة	١٢٧ـ١٢٨هـ
٢٩ ـ	الحوثرة بن سهيل البابلى		١٢٨ـ١٣١هـ
٣٠ ـ	المغيرة بن عبيد الله الفزارى		١٣١ـ١٣٢هـ
٣١ ـ	عبد الملك بن مروان اللخمى		١٣٢ـ١٣٣هـ
(جـ) فى خلافة العباسيين :			
٣٢ ـ	صالح بن على بن عبد الله العباسى	الأولى	١٣٣ـ١٣٣هـ
٣٣ ـ	أبو عون عبد الملك بن يزيد الخراسانى	الأولى	١٣٣ـ١٣٦هـ
٣٤ ـ	صالح بن على بن عبد الله العباسى	الثانية	١٣٦ـ١٣٧هـ
٣٥ ـ	أبو عون عبد الملك بن يزيد الخراسانى	الثانية	١٣٧ـ١٤١هـ
٣٦ ـ	موسى بن كعب		١٤١ـ١٤١هـ
٣٧ ـ	محمد بن الأشعث		١٤١ـ١٤٣هـ
٣٨ ـ	حميد بن قحطبة		١٤٣ـ١٤٤هـ
٣٩ ـ	يزيد بن حاتم بن قبيصة		١٤٤ـ١٥٢هـ
٤٠ ـ	عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية		١٥٢ـ١٥٤هـ

مسلسل	اســـم الوالـــى	مرات الولاية	سنوات الولاية
٤١ ــ	محمد بن عبد الرحمن بن حديج		١٥٤ـ١٥٥هـ
٤٢ ــ	موسى بن على بن رباح		١٥٥ـ١٦١هـ
٤٣ ــ	عيسى بن لقمان الجمحى		١٦١ـ١٦٢هـ
٤٤ ــ	منصور بن يزيد الرعينى		١٦٢ـ١٦٢هـ
٤٥ ــ	يحيى بن داود		١٦٢ـ١٦٥هـ
٤٦ ــ	إبراهيم بن صالح بن على	الأولى	١٦٥ـ١٦٧هـ
٤٧ ــ	موسى بن مصعب		١٦٧ـ١٦٨هـ
٤٨ ــ	عسامة بن عمرو		١٦٨ـ١٦٨هـ
٤٩ ــ	الفضل بن صالح		١٦٨ـ١٦٩هـ
٥٠ ــ	على بن سليمان		١٦٩ـ١٧٢هـ
٥١ ــ	مسلمة بن يحيى		١٧٢ـ١٧٣هـ
٥٢ ــ	محمد بن زهير		١٧٣ـ١٧٣هـ
٥٣ ــ	داود بن يزيد		١٧٣ـ١٧٤هـ
٥٤ ــ	موسى بن عيسى		١٧٤ـ١٧٥هـ
٥٥ ــ	إبراهيم بن صالح	الثانية	١٧٥ـ١٧٦هـ
٥٦ ــ	عبد الله بن المسيب		١٧٦ـ١٧٧هـ

مسلسل	اســـم الوالـــى	مرات الولاية	سنوات الولاية
٥٧ـ	إسحاق بن سليمان بن علي		١٧٧ـ١٧٨هـ
٥٨ـ	عبد الملك بن صالح بن علي		١٧٨ـ١٧٩هـ
٥٩ـ	موسى بن عيسى	الثالثة	١٧٩ـ١٨١هـ
٦٠ـ	عبيد الله بن المهدى	الثانية	١٨١ـ١٨٢هـ
٦١ـ	إسماعيل بن صالح		١٨٢ـ١٨٣هـ
٦٢ـ	الليث بن فضل		١٨٣ـ١٨٨هـ
٦٣ـ	أحمد بن إسماعيل		١٨٨ـ١٩٠هـ
٦٤ـ	عبد الله بن محمد		١٩٠ـ١٩١هـ
٦٥ـ	الحسين بن جميل		١٩١ـ١٩٢هـ
٦٦ـ	مالك بن دلهم		١٩٢ـ١٩٣هـ
٦٧ـ	الحسن بن البحباح		١٩٣ـ١٩٤هـ
٦٨ـ	حاتم بن هرثمة		١٩٤ـ١٩٥هـ
٦٩ـ	جابر بن الأشعث		١٩٥ـ١٩٦هـ
٧٠ـ	عباد بن محمد		١٩٦ـ١٩٨هـ
٧١ـ	المطلب بن عبد الله	الأولى	١٩٨ـ١٩٨هـ
٧٢ـ	العباس بن موسى		١٩٨ـ١٩٩هـ

مسلسل	اسم الوالي	مرات الولاية	سنوات الولاية
٧٣ـ	المطلب بن عبد الله	الثانية	١٩٩ـ٢٠٠هـ
٧٤ـ	السرى بن الحكم		٢٠٠ـ٢٠٥هـ
٧٥ـ	محمد بن السرى		٢٠٥ـ٢٠٦هـ
٧٦ـ	عبيد الله بن السرى		٢٠٦ـ٢١٠هـ
٧٧ـ	عبد الله بن طاهر بن الحسين		٢١٠ـ٢١٣هـ
٧٨ـ	عيسى بن يزيد الجلودى	الأولى	٢١٣ـ٢١٤هـ
٧٩ـ	عمير بن الوليد		٢١٤ـ٢١٤هـ
٨٠ـ	عيسى بن يزيد الجلودى	الثانية	٢١٤ـ٢١٥هـ
٨١ـ	عبدويه بن جبلة		٢١٥ـ٢١٦هـ
٨٢ـ	عيسى بن منصور الرافعى		٢١٦ـ٢١٧هـ
٨٣ـ	كيدر نصر بن عبد الله الصفدى		٢١٧ـ٢١٩هـ
٨٤ـ	المظفر بن كيدر		٢١٩ـ٢١٩هـ
٨٥ـ	موسى بن أبى العباس ثابت		٢١٩ـ٢٢٤هـ
٨٦ـ	مالك بن كيدر		٢٢٤ـ٢٢٦هـ
٨٧ـ	على بن يحيى	الأولى	٢٢٦ـ٢٢٩هـ
٨٨ـ	عيسى بن منصور	الثانية	٢٢٩ـ٢٣٣هـ

مسلسل	اسـم الوالـي	مرات الولاية	سنوات الولاية
٨٩ ـ	هرثمة بن نصر الجبلى		٢٣٣ـ٢٣٤هـ
٩٠ ـ	على بن يحيى	الثانية	٢٣٤ـ٢٣٥هـ
٩١ ـ	إسحاق بن يحيى		٢٣٥ـ٢٣٦هـ
٩٢ ـ	عبد الواحد بن يحيى		٢٣٦ـ٢٣٨هـ
٩٣ ـ	عنبسة بن إسحاق الضبى		٢٣٨ـ٢٤٢هـ
٩٤ ـ	يزيد بن عبد الله بن دينار		٢٤٢ـ٢٥٣هـ
٩٥ ـ	مزاحم بن خاقان		٢٥٣ـ٢٥٤هـ
٩٦ ـ	أحمد بن مزاحم		٢٥٤ـ٢٥٤هـ
٩٧ ـ	ياركوج بن أولوغ طرخان		٢٥٤ـ٢٥٤هـ

ملحق رقم (٣)

حكام الدولة الطولونية فى مصر

مسلسل	اســـم الوالـــى	سنوات الولاية
١ ـ	أحمد بن طولون	٢٥٤ـ٢٧٠هـ
٢ ـ	خمارويه بن أحمد	٢٧٠ـ٢٨٢هـ
٣ ـ	أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢ـ٢٨٣هـ
٤ ـ	هارون بن خمارويه	٢٨٣ـ٢٩٢هـ
٥ ـ	شيبان بن أحمد	٢٩٢ـ٢٩٢هـ

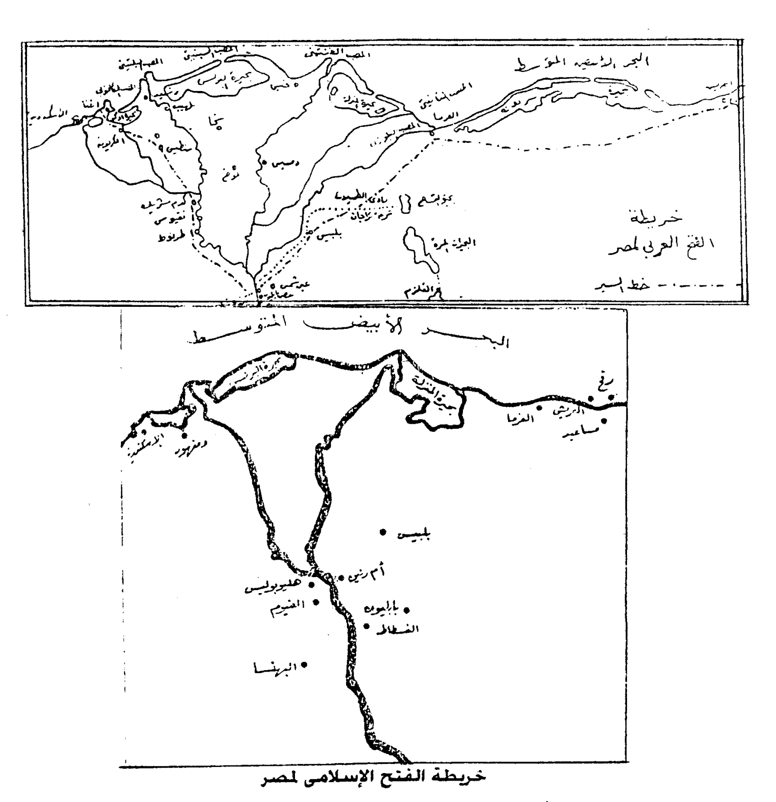
ملحق رقم (٤)

حكام الدولة الإخشيدية فى مصر

مسلسل	اســـم الوالـــى	سنوات الولاية
١ ـ	محمد بن طغج الإخشيد	٣٢٣ـ٣٣٤هـ
٢ ـ	أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد	٣٣٤ـ٣٤٩هـ
٣ ـ	أبو الحسن على بن الإخشيد	٣٤٩ـ٣٥٥هـ
٤ ـ	أبو المسك كافور	٣٥٥ـ٣٥٧هـ
٥ ـ	أبو الفوارس أحمد بن على	٣٥٧ـ٣٥٨هـ

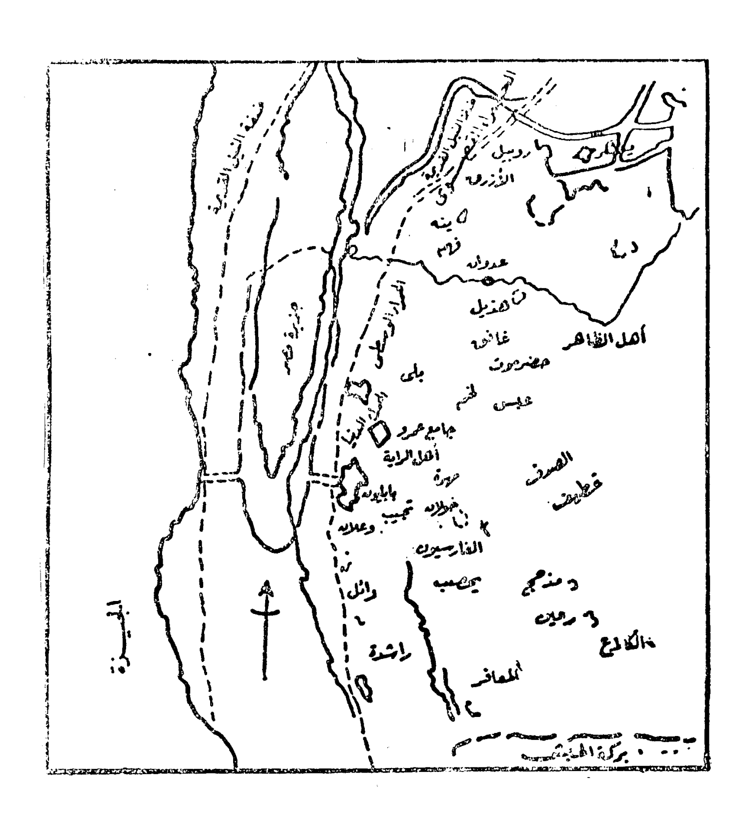
الخرائط والصور





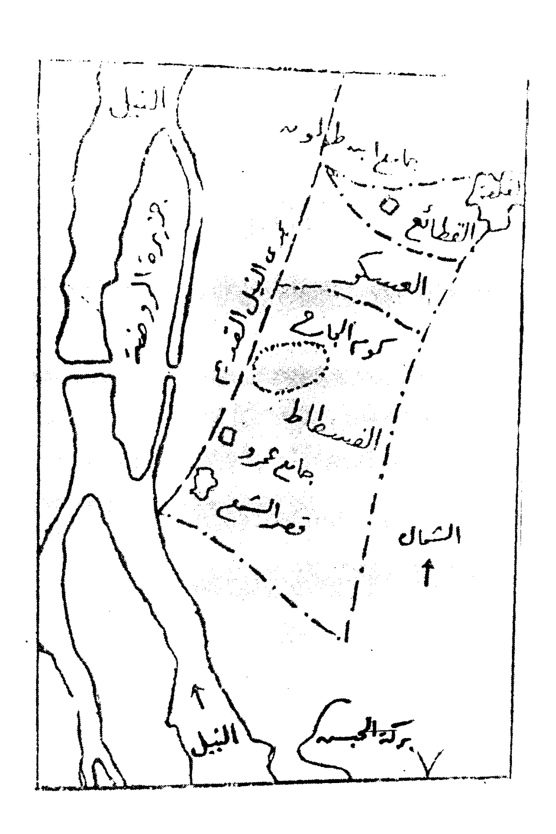
خريطة الفتح الإسلامى لمصر

نقلاً عن مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، ص١٩



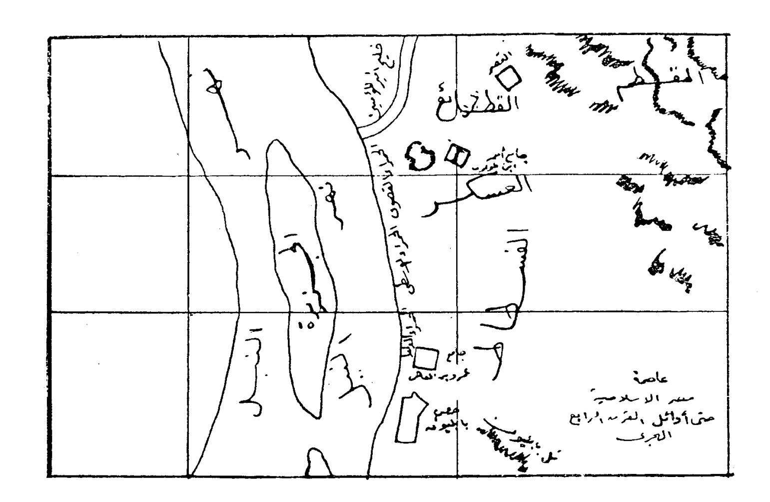
خطط الفسطاط عام ٢١هـ

نقلاً عن عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ص٣١١



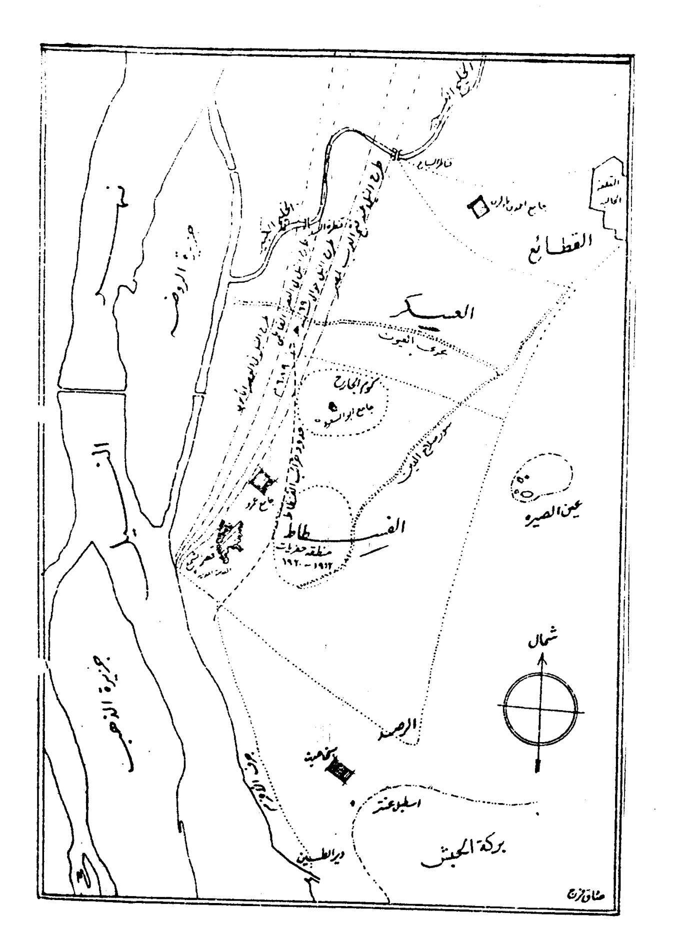
رسم تخطيطى لموقع الفسطاط والعسكر والقطائع

نقلاً عن د/ حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ص٢٩٧



عاصمة مصر الإسلامية حتى أوائل القرن الرابع الهجرى

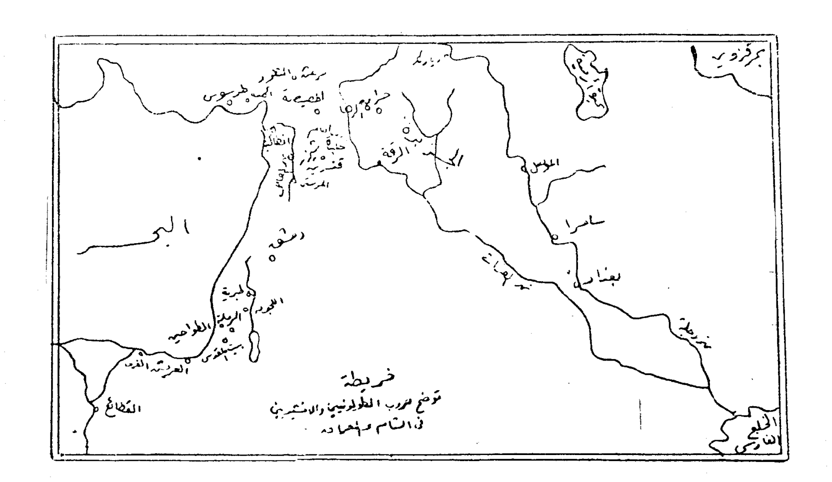
نقلاً عن مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، ص١٦٣



رسم تقريبى لموقع الفسطاط والعسكر والقطائع

يوضح تحول الشاطئ الشرقى للنيل نحو الغرب

نقلاً عن شحاتة عيسى إبراهيم (القاهرة) ص٥١



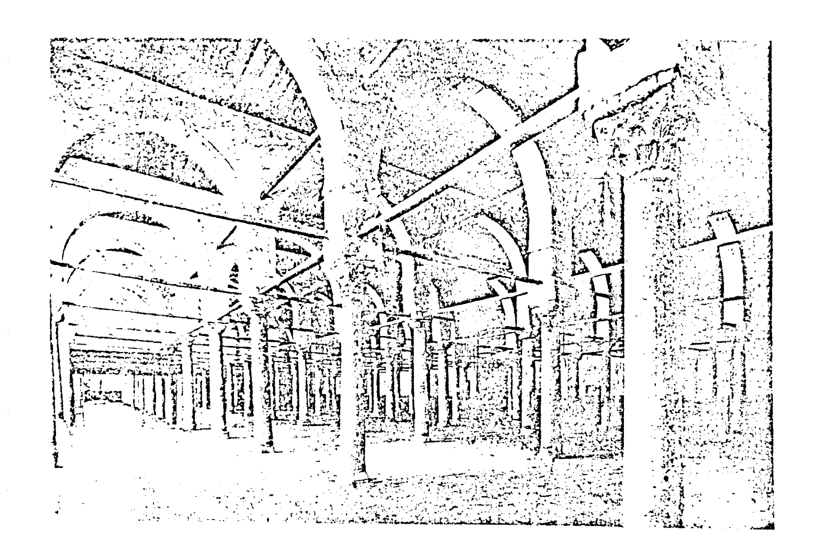
حروب الطولونيين والإخشيديين فى الشام والعراق

نقلاً عن مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، ص١٣٣

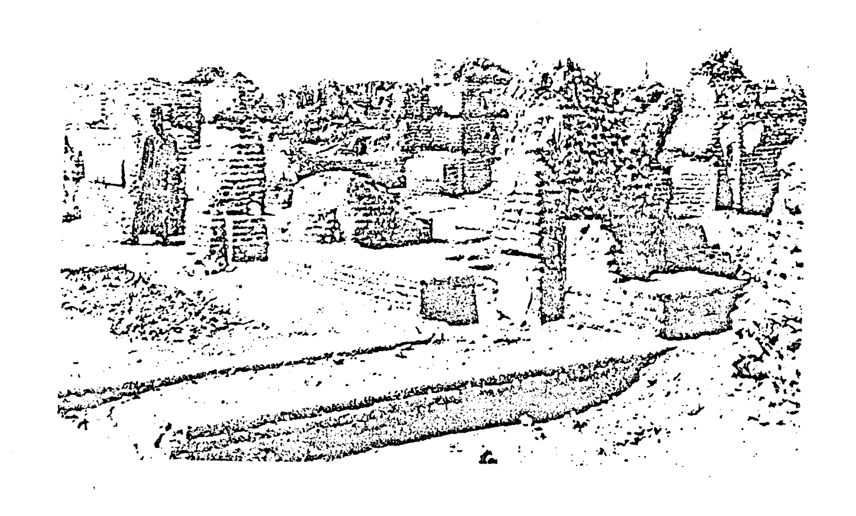


باب حصن بابليون (قصر الشمع) وقد كانت مياه النيل
تحف به وقت الفتح

نقلاً عن شحاتة عيسى إبراهيم (القاهرة) ص٥٤

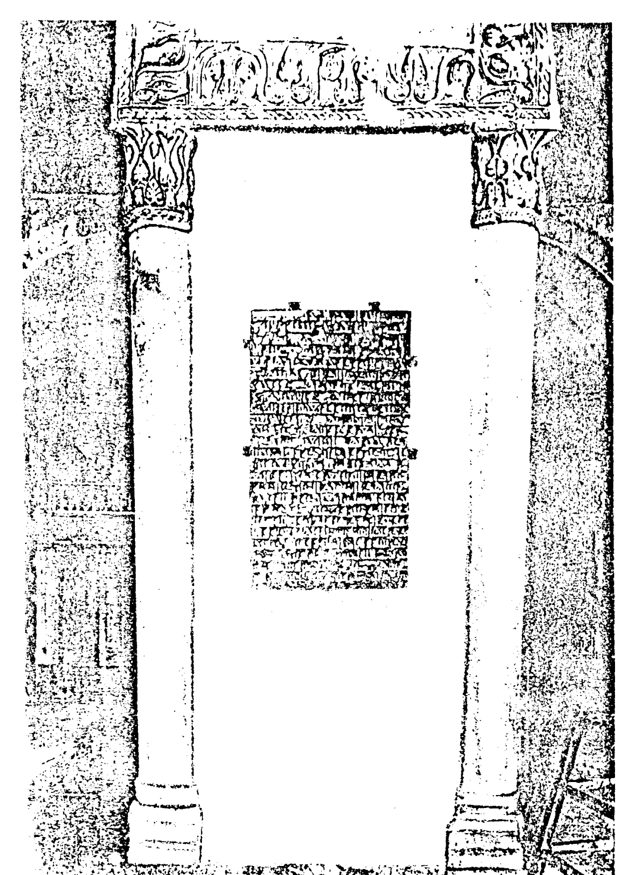


الإيوان الشرقى (إيوان القبلة) بجامع عمرو بن العاص
ويرى به عدد كبير من الأعمدة القديمة ذات التيجان
ترتكز عليها عقود مدببة
نقلاً عن شحاتة عيسى إبراهيم (القاهرة) ص٥٢

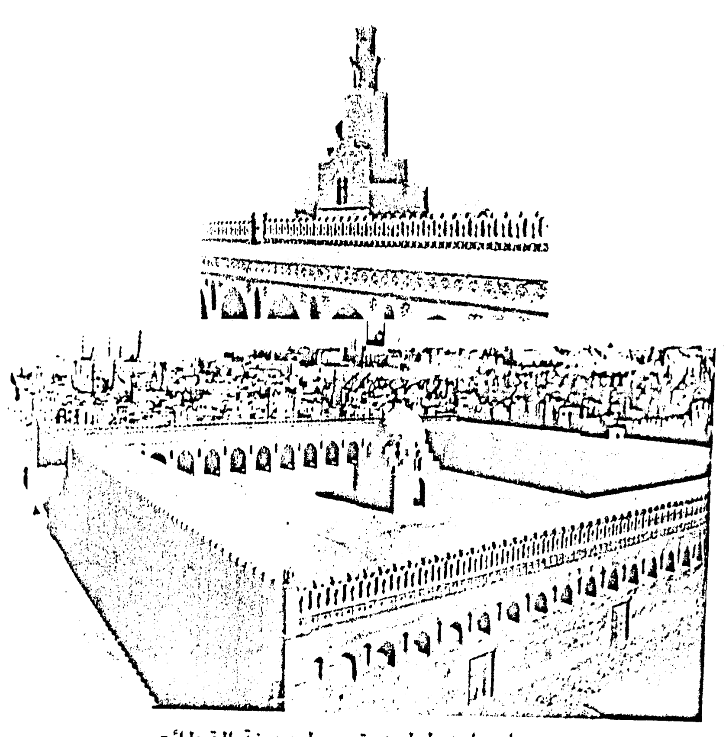


إحدى الدور بمدينة الفسطاط وقد كشفت عنها حفريات
المتحف الإسلامى بالقاهرة

نقلاً عن شحاتة عيسي إبراهيم (القاهرة) ص٥٣



اللوح التذكارى بجامع أحمد بن طولون ويتضمن تاريخ إنشاء المسجد ، واسم منشئه ، ويوجد على أحد الأكتاف بالمسجد ، ويرى على جانبى الكتف عمودان ، تاجاهما والافريز الذى يعلوهما من الزخارف الجصية
نقلاً عن شحاتة عيسى إبراهيم (القاهرة) ص٥٥

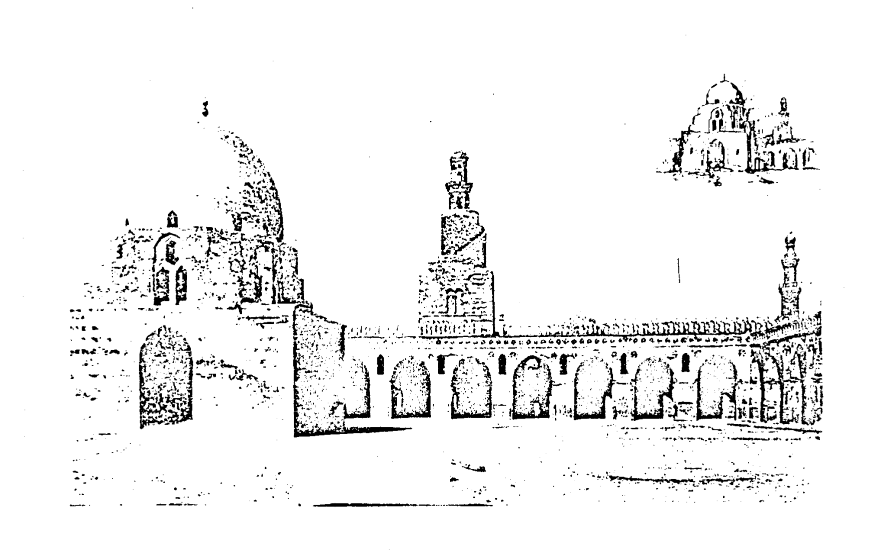


جامع ابن طولون يتوسط مدينة القطائع

ومئذنته (الملوية) ذات السلالم الخارجية

نقلاً عن د/ سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون

ص٤٥٩



المئذنة والميضأة بالمسجد الطولونى وكلاهما من العصر المملوكى وتشاهد الدعائم (الأكتاف) والفتحات التى تعلوها . والزخارف الجصية على شكل صرر وكذا الشرافات

نقلاً عن شحاتة عيسى إبراهيم (القاهرة) ص٥٦



دينار مؤرخ سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٧م، يرجع إلى العصر الأموى

النص فى المركز :

الله أحد الله

الصمد لم يلد

ولم يولد

النص فى الهامش :

بسم الله ضرب هذا الدينر

سنة عشرين ومائة

نقلاً عن د/ حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية

ص٤٧٢



دينار من أوائل العصر العباسى مؤرخ بسنة ١٣٩هـ/٧٦٨م

النص فى المركز :

محمد

رسول

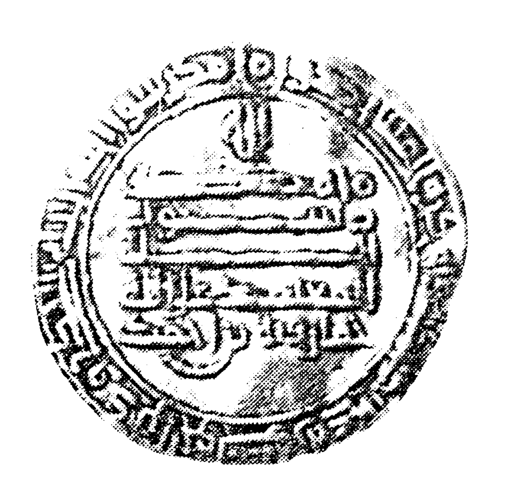
الله

النص فى الهامش :

بسم الله ضرب هذا الدينر سنة

تسع وثلثين ومئة

نقلاً عن د/ حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص٢٧٤



دينار من العصر الطولونى باسم المعتمد على الله وخمارويه

النص فى المركز :

محمد

رسول

الله

المعتمد على الله

خمارويه بن أحمد

النص فى الهامش :

محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق

ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون

نقلاً عن د/ حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص٤٧٢



دينار إخشيدى باسم أبو القاسم بن الإخشيد مؤرخ بسنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م

النص فى المركز :

لا اله الا

الله وحده

لا شريك له

أبو القسم بن

الإخشيد

النص حول الهامش الخارجى :

لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

النص فى الهامش الداخلى :

بسم الله ضرب هذا الدينر بمصر سنة ست وثلثين وثلث مائة

نقلاً عن د/ حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص٤٧٢

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصدار والمراجع

أولاً : المصادر : ـ

١ ـ القرآن الكريم :

ابن الأثير : عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم (ت٦٣٠هـ) :

٢ ـ الكامل فى التاريخ : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٣م .

الاصطخرى : أبو إسحاق بن محمد الفارسى الاصطخرى (ت٣٠٩) :

٣ ـ المسالك والممالك ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٤م .

البغدادى : عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على موفق الدين (ت٦٢٩هـ):

٤ ـ الإفادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٨م .

البلاذرى : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ) :

٥ ـ فتوح البلدان ، بيروت ، ١٩٩١م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن (ت٨٧٤هـ) :

٦ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٩م.

ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى (ت٥٩٧هـ):

٧ ـ تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير، مكتبة الآداب (د.ت) .

ابن خلكان : أبو القاسم شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ)

٨ – وفيات الأعيان ، القاهرة ، ١٢٩٩هـ .

ابن الداية : أحمد بن يوسف الكاتب (ت٣٤٠هـ) :

٩ – سيرة أحمد بن طولون ، برلين ، ١٨٩٤م .

ابن دقماق : إبراهيم بن محمد المصرى (ت٨٠٩هـ) :

١٠ – الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ، بيروت (د. ت) .

الرازى : محمد بن أبى بكر بن عبد القادر (ت٦٦٦هـ)

١١ – مختار الصحاح ، بيروت ، ١٩٨٢م .

ابن زولاق : أبو محمد الحسن بن إبراهيم (ت٣٨٧هـ)

١٢ – فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، تحقيق د. على محمد عمر ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٩م .

ابن سعيد : على بن موسى المغربى (ت٦٧٣هـ)

١٣ – المغرب فى حلى المغرب ، ليدن ، ١٨٩٩م .

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ)

١٤ – تاريخ الخلفاء ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠٣م .

١٥ – حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٦٧م.

ابن طباطبا : فخر الدين محمد بن على المعروف بابن الطقطقى (ت٧٠٩هـ)

١٦ – الفخرى فى الآداب السلطانية ، دار صادر ، بيروت ، ٢٠٠٥م.

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)

١٧ ـ تاريخ الرسل والملوك ، دار الفكر ، ١٩٧٩م .

ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت٢٥٧هـ)

١٨ ـ فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق محمد صبيح ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

ابن عبد ربه : شهاب الدين أحمد (ت٣٢٩هـ)

١٩ ـ العقد الفريد ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٤م .

ابن العبرى : أبو الفرج بن هرون الملطى (ت٦٨٥هـ) :

٢٠ ـ تاريخ مختصر الدول ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٨٩٠م .

القلقشندى : أبو العباس أحمد (ت٨٢١هـ)

٢١ ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٥م .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير الدمشقى (ت٧٧٤هـ)

٢٢ ـ البداية والنهاية ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ٢٠٠٥م .

الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف (ت٣٥٠هـ)

٢٣ ـ الولاة والقضاة ، بيروت ، ١٩٨٠م .

المتنبى : أبو الطيب (ت٣٥٤هـ)

٢٤ ـ ديوان المتنبى ، بيروت ، ١٩٠٠م .

المقريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد بن على (ت٨٤٥هـ)

٢٥ ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٩٦م .

٢٦ ـ المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، مكتبة الآداب ، ١٩٩٦م.

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى (ت٢١٨هـ)

٢٧ ـ السيرة النبوية ، تحقيق محمد خليل هراس ، مكتبة زهران ، القاهرة (د. ت) .

هيرودوت:

٢٨ ـ هيرودوت فى مصر ، ترجمة وهيب كامل ، القاهرة ، ١٩٤٦م .

ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت٦٢٦هـ)

٢٩ ـ معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٩٧م .

ثانيا: المراجع:

إبراهيم أحمد العدوى :

١ ـ مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥م .

٢ ـ مصر والشرق العربى درع الإسلام ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٨٥م .

أحمد محمد عوف :

٣ ـ مدينة الفسطاط وعبقرية المكان ، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٣م .

آدم متز :

٤ ـ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، بيروت ، ١٩٦٧م .

أ. دونالد نيكول :

٥ ـ معجم التراجم البيزنطية ، ترجمة وتعليق أ. د/ حسن حبشى ، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٣م .

الفريد . ج . بتلر :

٦ ـ فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ٢ ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٩م .

توماس أرنولد :

٧ ـ الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

چرچى زيدان :

٨ ـ التمدن الإسلامى ، دار الهلال ، ١٩٠٣م .

جمال الدين الشيال :

٩ ـ تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ٢ ، دار المعارف (٢٠٠٠م) .

حسن إبراهيم حسن :

١٠ ـ تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٦م .

حسن الرزاز :

١١ ـ عواصم مصر الإسلامية ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٩٦م .

سعاد ماهر :

١٢ ـ مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٧١م .

سعيد مغاوري محمد :

١٣ ـ الألقاب وأسماء الحرف والوظائف في ضوء البرديات العربية ، دار الكتب المصرية ، ٢٠٠٠م .

سيدة إسماعيل كاشف :

١٤ ـ الأرض والفلاح في مصر الإسلامية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة ، ١٩٧٤م .

١٥ ـ عبد العزيز بن مروان ، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٥م .

١٦ ـ مصر الإسلامية وأهل الذمة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٣م .

١٧ ـ مصر في عصر الإخشيديين ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٠م .

١٨ ـ مصر في فجر الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٧م .

١٩ ـ الوليد بن عبد الملك ، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٥م .

شكري فيصل :

٢٠ ـ حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٢م .

صابر محمد دياب :

٢١ ـ دراسات في تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م .

عبادة عبد الرحمن كحيلة :

٢٢ ـ العقد الثمين في تاريخ المسلمين ، دار الكتاب الحديث ، الكويت ، ١٩٩٦م .

عبد الرحمن زكى :

٢٣ ـ الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م .

عبد الله خورشيد البرى :

٢٤ ـ القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٢م .

عطية القوصى :

٢٥ ـ مصر الإسلامية ، دار الثقافة العربية ، ٢٠٠٣م .

على إبراهيم حسن :

٢٦ ـ مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٤٧م .

على باشا مبارك :

٢٧ ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٠م .

فاطمة مصطفى عامر :

٢٨ ـ تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية ، جـ١ ، ٢ ، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م .

محمد رمزى :

٢٩ ـ القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٤م.

محمد عبد الوهاب صقر :

٣٠ ـ عمرو بن العاص ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

محمد عزه دروزه :

٣١ ـ عروبة مصر قبل الإسلام وبعده ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا ، بيروت ، ١٩٦٣م .

محمود أحمد حنفى :

٣٢ ـ ثلاثة أعراس أودت بالخزانة إلى الإفلاس، المكتبة الثقافية، ١٩٦٨م.

محمود عرفة محمود :

٣٣ ـ الموجز فى تاريخ مصر الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨٥م .

٣٤ ـ الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

مصطفى العبادى :

٣٥ ـ الأرض والفلاح فى مصر الرومانية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

مصطفى طه بدر :

٣٦ ـ مصر الإسلامية من الفتح الإسلامى حتى زوال الدولة الإخشيدية ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩م .

نريمان عبد الكريم أحمد :

٣٧ ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٦م .

هـ .آيدروس بل :

٣٨ ـ مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى إلى العصر الفاطمى ، نقله إلى العربية أ. د/ عبد اللطيف أحمد على ، دار النهضة العربية، ١٩٦٨م .

هويدا عبد العظيم رمضان :

٣٩ ـ المجتمع فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى العصر الفاطمى ، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٦م .

الفهرست

الفصل الرابع

ولاة مصر في العصرين الأموى والعباسى (٤٠ ـ ٢٥٤ هـ)

الفصل الخامس

التكوين الاجتماعى والثقافى لمصر فى عصر الولاة

الفصل السادس

الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ/ ٨٧٩ ـ ٩٠٤م)

الفصل السابع

الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨ هـ/ ٩٣٥-٩٦٩م)

الفصل الثامن

الفتح الفاطمى لمصر (٣٥٨ هـ/ ٩٦٨م)